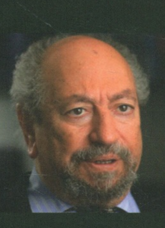
مختارات ميريت

سيرة
سعد الدين إبراهيم

(٢)



مذكرات

سيرة

سعد الدين إبراهيم

سيرة

سعد الدين إبراهيم

الجزء الثاني

الطبعة الأولى ٢٠١٣.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit٥٦@hotmail.com

الغلاف إهداء من الفنان: **مجدى الشافعى**

التدقيق: **أحمد مجدى همام**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٣٣٦٧

الترقيم الدولي: ٣-٦٥٩-٣٥١-٩٧٧-٩٧٨

سيرة

سعد الدين إبراهيم

(الجزء الثاني)

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٣

هذه المُذكرات جزء من السيرة الذاتية

السيرة الشخصية لأي إنسان هي رحلة حياته منذ المهد، أو المولد، إلى اللحد أي الرحيل الأبدي من عالمنا. ولا يمكن لأي إنسان أن يحكي كل وقائع هذه الرحلة، ولا يمكن تضمينها جميعاً في كتاب واحد مهما امتدت صفحاته، لا مادياً فقط، ولكن أيضاً لأن كثيراً من وقائع حياتي هي وقائع نمطية، لابن قرية مصرية، لا تختلف عن تلك التي شارك في مثلها ملايين من أبناء جيلي (١٩٣٨-٢٠١٣).

ولذلك فإن ما كتبته في هذه المُذكرات كان بالضرورة "انتقائياً" من عدة نواحي، أولها، ما تذكرت أنه كان مُختلفاً عن المُعتاد في حياتي اليومية. وثانيها، ما اعتقدت أنه كان محطات فاصلة في حياتي، مثل الانتقال من ثم إلى الولايات المتحدة، ثم من قريتي (بدّين) إلى أقرب مدينة (المنصورة)، ثم إلى العاصمة (القاهرة)، وهو الانتقال الذي ارتبط بمراحل الدراسة المُتتالية. ولكن السفر إلى الولايات المتحدة، للحصول على الدكتوراه في عِلم الاجتماع، كان نقلة فرعية، استحقت التفضيل، خاصة لما صاحبها من نشاط طُلابي سياسي، وضعني في صِدام مع نظام الرئيس الراحل **جمال عبد الناصر**، أثناء رئاستي لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا، أدى إلى إجراءات عقابية أخّرت عودتي إلى مصر ثلاثة عشر عاماً. وهو ما غيّر كثيراً في مسيرتي المهنية، الاجتماعية والأسرية.

وفي كل الأحوال هناك العشرات الذين أتيت على ذكر أسمائهم في هذه المُذكّرات . من مصريين، وعرب، وأجانب. فإذا قُيّد للأحياء منهم أن يقرؤوها، فأرجو أن يصححوا لي إن كنت قد نسيت أو أخطأت في حقهم، أو في سرد وقائع تتعلق بهم. أما من فارقوا دنيانا، فلهم الرحمة وليغفر لي الأحياء من ذويهم، إن كنت قد تجاوزت في سردي أو أحكامي فيما يتعلق بهم، بما قد يَخدش مشاعرهم.

إن العقود الستة من انخراطي في الحياة العامة شهدت أحداثاً مرحلية، ووطنية، وإقليمية، وعالمية، كنت شاهداً عليها. وقد انفعلت بها من ناحية،

وتقاطعت هي مع مسيرة حياتي من ناحية أخرى. وشجّعني كثيرون على الحديث عنها من منظوري الشخصي. وهو ما حاولته في هذه المُذكّرات فأرجو أن تكون إضافة، ولو متواضعة، تُسهم في فهم التاريخ الاجتماعي لمصر والوطن العربي منذ منتصف القرن العشرين إلى أوائل القرن الحادي والعشرين.

لقد كُنت محظوظاً أنني التقيت وجهاً لوجه كل رؤساء مصر . **جمال عبد الناصر**، و**أنور السادات**، و**حسني مُبارك**، و**محمد مُرسي**. كما التقيت عدداً من الرؤساء والملوك العرب، مثل الملك **فيصل**، والملك **حسين** والملك **الحسن الثاني**، والرئيس العِراقي **صدام حسين**، والرئيس السوري **حافظ الأسد**، والرئيس السوداني **جعفر نميري**، واللبناني **بشير الجميّل**، والرئيسين الفلسطينيين **ياسر عرفات**، و**محمود عباس**، وحاكم قطر الشيخ **حمد بن خليفة آل ثاني**، وزوجته المُتميزة، الشيخة **موزة بنت ناصر المُسند**، والزعيم الليبي **مُعمر القذافي** (الذي ساجلته لمدة ساعة على قناة الجزيرة عام ١٩٩٥).

كما أتيحت لي فُرصٌ لم تتح لكثيرين غيري من أبناء جيلي. كان أهمها، لا فقط الدراسة والعمل خارج مصر (الولايات المتحدة، وكندا، وبريطانيا، والمغرب، والجزائر، والسعودية، والعِراق، والأردن، ولبنان وقطر) ولكن أيضاً الإسهام في تأسيس وإدارة عدد من المنظمات غير الحكومية، أو ما أصبح يُصطلح عليه بتعبير منظمات "المجتمع المدني" كانت بدايتها المنظمة العربية لحقوق الإنسان (ومقرها القاهرة)، ومركز دراسات الوحدة العربية (ومقره بيروت)، والمجلس العربي للطفولة والتنمية (ومقره الرياض بالسعودية)، ومنتدى الفكر العربي (ومقره عمّان بالأردن)، ومركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية (ومقره القاهرة)، والمؤسسة العربية للديمقراطية (ومقرها الدوحة بدولة قطر). كذلك تمت دعوتي لعضوية مجالس أمناء عدد من المنظمات الدولية غير الحكومية، منها جامعة حقوق الأقليات (ومقرها لندن)، ومنظمة القانون والحقوق (ومقرها مونتريال، بكندا)، والوقفية الأهلية للديمقراطية (ومقرها واشنطن)، والجمعية الدولية لعِلم الاجتماع (ومقرها المكسيك).

وسواء جاء أو لم يجئ ذِكر هذه الخبرات والتجارب صراحة في المُذكّرات، إلا أنه من المؤكد أنها أثّرت بدرجات مختلفة على كاتب هذه السطور، وكانت وراء سعيي الدائم في العقود الأربعة الأخيرة من أجل نشر وتعميق ثقافة الديمقراطية، فِكراً ومُمارسة، في مصر والوطن العربي. وحينما هبّت نسائم ثورات الربيع العربي للديمقراطية . بداية بتونس، ومروراً بمصر وليبيا، واليمن، والبحرين، والأردن، وسوريا، شعرت أن كفاحي وآلافاً غيري، لم يذهب هباء منثورا. وربما تجلّت سُخرية التاريخ، وعدالة السماء في كون نفس السجن

(مزرعة طُرة) ونفس العنبر (رقم ٦)، ونفس الزنزانة التي قضيت فيها ثلاث سنوات (٢٠٠٠-٢٠٠٣)، هو نفس المكان الذي يقضي فيه الرئيس السابق حسني مُبارك، ونجلاه علاء وجمال، وكذا أقطاب نظامه، بما في ذلك رئيس وزرائه (د. أحمد نظيف)، عقوبات سجن عن جرائم فساد، واستغلال نفوذ، والتواطئ في قتل متظاهرين، خلال أحداث ثورة يناير ٢٠١١.

إن ثورات الربيع العربي، هي خير تعويض لي ولأبناء جيلي، الذين حاولوا إسقاط الأنظمة المستبدة خلال نصف القرن السابق، ولم يُحالفهم التوفيق. وعزاؤنا أن أجيالاً جديدة، أخصب خيالاً، وأقدر تنظيماً، وأقوى إرادة، استطاعت أن تُكمل هذه المُهمة التاريخية، فانبهرت بها أمتها، وأبهرت هي العالم، فلهم خير الجزاء.

سعد الدين إبراهيم
المعادي - القاهرة
٢٠١٣/١/١

١٩٨٥ - ١٩٩٠
سنوات منتدى الفكر العربي
عمّان - الأردن

١٩٨٥ ـ ١٩٩٠
سنوات منتدى الفكر العربي في عمان

بدأت عملي الرسمي كأمين عام لمنتدى الفكر العربي في أول يوليو ١٩٨٥... وكنت حريصاً قبل القدوم إلى عمان، أن أسوي أكبر قدر من الالتزامات والملفات المفتوحة في القاهرة وبيروت والولايات المتحدة. ورتبت مع مساعدتي الوفية **نعمت** متابعة التزاماتي في المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ومع **علي الدين هلال** و**جودة عبد الخالق**، و**إبراهيم سعد الدين** متابعة اللمسات الأخيرة في مشروع المستقبل العربي. كما حرصت على قضاء أسبوعين مع أسرتي في إجازة بالولايات المتحدة، بما في ذلك اللقاء الأسري السنوي لعائلة زوجتي (**آل ليثم**). توقفت أيضاً في واشنطن لعدة أيام، حيث تزاورت مع أصدقائي **إسماعيل سراج الدين وفوزي هيكل ونعيم الشربيني** ـ وكلهم من جيلي وأيام الجامعة ومنظمة الطلبة العرب. كذلك بدأت ألتقي بأستاذ الجيولوجيا الكبير **رشدي سعيد**، الذي كان يكبرنا بعشرين عاماً على الأقل... وكان قد استقر في ضواحي واشنطن منذ شملته إجراءات الملاحقة والتنكيل التي أصدرها الرئيس **السادات** في سبتمبر ١٩٨١... وكانت زوجته **د.وداد سعيد**، زميلتي في الجامعة الأمريكية، وضمن من ذهبوا معي إلى الصين في الرحلة الأولى عام ١٩٧٧... كما كان **رشدي ووداد** من جيراننا سكان المعادي... وكنت سعيداً بأن **رشدي** انضم إلى شلة أصدقائي في واشنطن، رغم الاختلاف الجيلي والمهني والطائفي.

في أول صباح لي في مكتبي بالعاصمة الأردنية... اجتمعت بالموظفين في أمانة المنتدى، وكانوا فقط خمسة بمن فيهم السائق والساعي، ومديرة إدارة واثنان سكرتارية... واستمعت منهم، وسألتهم عن الكيفية التي يمكن لكل منهم أن يؤدي بها عمله بشكل أفضل وأسعد... ونظروا إلى بعضهم وإلى مديرتهم **هالة صبري**، التي بدت مثلهم مندهشة لهذا السؤال، الذي لم يجب عليه أحد منهم ـ وهو ما الذي يجعل كل منهم أسعد في العمل. تحدثت عن اللمسات الجمالية والموسيقى والمرح والحب! وكنت أنظر من نافذة قاعة الاجتماعات حيث بانوراما عمّان بين الطابق الرابع عشر، لمبنى بنك الإسكان، حيث كان المنتدى يشغل الطابق بأكمله... وراحوا يقترحون ما يمكن أن يجعلهم أسعد... وطلبت منهم أن يفكروا

للاجتماع القادم في مثل هذا اليوم للإجابة على سؤال كيف يمكن **للمنتدى أن يكون أفضل؟**

استغرق اجتماعي الأول بموظفي أمانة المنتدى ساعتين، بعدها مباشرة قيل لي إن هناك زائراً ينتظر في مكتبي... وتوجهت من قاعة الاجتماعات لأجد أن أول زائر لي في أول يوم من عملي بالمنتدى هو **د.خير الدين حسيب!** كانت مفاجأة، لعلمي أنه كان معترضاً على قبولي العمل في هذا الموقع... ولكن لأنني أحمل له حباً حقيقياً، فقد سعدت برؤيته، وأحسنت وفادته... وطلبت من السكرتيرة أن تحضر طلب انضمام وعضوية بالمنتدى، وطلبت منه أن يملأها، مع وعد مني "بتزكيته"! ففر الرجل في دهشة من مبادرتي... وتساءل بشيء من التحدي "كيف لك بهذه الجرأة... وهذه الثقة أن تطلب مني هذا الطلب؟ ألا تعلم أن الأمير **حسن** قد طلب ذلك مني منذ ثلاث سنوات، واعتذرت له؟" هززت رأسي بأني كنت أعرف كل ذلك... ولكن بما أن المنتدى الآن يبدأ مرحلة جديدة تحت إدارتي... وأريده رديفاً وامتداداً، واستكمالاً **لمركز دراسات الوحدة العربية**، فليساعدني في ذلك، كما ساعدته أنا منذ عشر سنوات على انطلاق مركز دراسات الوحدة. وتدفقت أفكاري ومقترحاتي حول صور وسبل التعاون بين المركز والمنتدى... وبعد نقاش طويل ملأ الرجل طلب الانضمام... ثم دعوته للغداء... وأثناءه اكتشفت أن أحد أسباب وجوده في عمّان، هو استلام سيارته المرسيدس ٢٨٠ الجديدة المشحونة من ألمانيا، والتي يريد بيعها في عمان بدلاً من أخذها إلى بيروت، حيث مخاطر حمايتها عالية في ظروف الحرب الأهلية التي كانت ما تزال مشتعلة... وفجأة اقترح أن يشتريها المنتدى أو أشتريها أنا. وفوجئت بالاقتراح... وأفهمته أن الأمير **حسن** أهداني سيارة مرسيدس ٢٠٠ في حالة جيدة، وتكفي لاستخدامي الشخصي وزيادة... ولكنه عاد بقوله "إن كنت تنوي القيام بكل ما حدثتني عنه من أنشطة فإنك ستحتاج إلى سيارتين إضافيتين" ... فوعدته أن أفكر في الأمر، وإذا اتضح فعلاً أننا في حاجة فسيكون لسيارته الأولوية... وسعد لذلك...

في اليوم الثاني لعملي بالمنتدى، أتى زائر أردني قدم نفسه باسم **د.فهد الفانك**، محاسب وكاتب صحفي، ومطرود من عمله كنائب مدير شركة عالمية، هي **الخطوط الجوية الأردنية.** أدهشني وأعجبني أسلوبه المباشر. سألته "وماذا تريد يا دكتور **فهد؟**" أجاب على الفور "أريد عملاً في المنتدى!" ابتسمت وسألته لماذا يتوقع مني وقد بدأت العمل بالأمس فقط أن ألبي طلبه، خاصة وهو مفصول من شركة يرأس مجلس إدارتها أحد أصدقاء الملك **حسين** الحميمين وهو المهندس **علي الغندور.** أجاب بسرعة **"لأنك غير أردني، وغير فلسطيني،**

وغير لبناني، ولا تحتاج هذا الموقع... ولأني قومي عربي ليبرالي مستقل، والوحيد الذي يمكنك الاستعانة به في الأردن دون حساسية". قلت له "لا أظن أن حجم أعمال وحسابات المنتدى بالحجم الذي يبرر الاستعانة بمحاسب أو إداري مخضرم مثلك". قال "أنا لا أريد أن أعمل محاسباً أو إدارياً في المنتدى... ولكن أريد أن أكون باحثاً بعض الوقت، حيث أنوي افتتاح مكتب محاسبة خاص". طلبت منه أن يترك سيرته الشخصية (C.V) ووعدته خيراً.

قضيت الأسبوعين التاليين في لقاءات مع موظفي الأمانة، وأعضاء المنتدى الأردنيين أو العرب المقيمين في عمان أو العابرين لها... تناولت الغداء والعشاء عدة مرات مع الأمير **حسن**... وأخبرته بزيارتي **خير الدين حسيب وفهد الفانك**... وبدا مندهشاً ومسروراً... وحينما أخبرته بطلب انضمام **حسيب** للمنتدى لم يصدق... فقلت مداعباً: قد يكون ثمن انضمامه هو أن نشتري سيارة مرسيدس يريد بيعها للمنتدى. قال الأمير "بسيطة... ولم لا؟ والأردنيون متيمون بالمرسيدس!. وماذا عن **فهد؟**" قلت له "لا أعرف الرجل ولكن أعجبني أسلوبه المباشر، وسرعة بديهته". قال الأمير "هذه فعلاً صفاته... ولكن لسانه سليط... والفلسطينيون في الأردن لا يحبونه لأنه مستغرق في شرق أردنيته... وهذا النوع أسميه بالليكود الأردني، ومع ذلك أترك الأمر لك كلية". سألت ما إذا كانت الاستعانة به ستضايق المهندس **علي الغندور** (لبناني) أو تضايق جلالة الملك... قال الأمير: إذا اقتنعتَ أنت... فلنمضِ قدماً... وأشكرك أنك أعلمتني بما تنويه... ولكني لا أتوقع ذلك مستقبلاً، **لك أن تتصرف بكامل حريتك مادامت العبرة في النهاية بالأداء والنتائج**".

قبل نهاية يوليو، كنت قد أعددت خطة عمل أولية لنشاط المنتدى خلال السنتين التاليتين، وهي المدة التي التزمت بها. تضمنت الخطة سلسلة من الحوارات الأردنية، وسلسلة من حوارات عربية، وسلسلة حوارات بين العرب والعالم. يصاحب هذه الحوارات برنامج نشر... كذلك تضمنت الخطة برنامجاً للأبحاث والدراسات المستقبلية، وإصدار نشرة شهرية ومضاعفة وتنويع العضوية، ومضاعفة وتنويع إيرادات المنتدى.

في أول أغسطس، استدعيت **د.فهد الفانك**، وعقدت معه مقابلة طويلة، عن تعليمه، وخلفيته السياسية والحزبية، وآرائه في عدد من القضايا العامة التي تهمني وتهم المنتدى... وكنت قد بدأت متابعة عموده في صحيفة الرأي الأردنية، اليومية... كان صريحاً في إجاباته، واضحاً في آرائه... مهذباً في لغته. علمت أنه أنهى تعليمه الجامعي في كلية التجارة، جامعة عين شمس بمصر... وأن لقب الدكتوراه الذي يحمله، هو من أحد جامعات كاليفورنيا التي

تمنح شهادة دكتوراه بالمراسلة، مقابل أطروحة (رسالة) سهلة الإعداد، ولكن برسوم باهظة تصل إلى عدة آلاف دولار... متزوج وله ثلاثة أولاد وبنتين، ومن بلدة الحصن في شمال الأردن، انضم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي في صباه، وظل وفياً لمبادئه وشعاراته العامة، دون أن يبقى عضواً منتظماً به... ذو ميول عربية قومية وحدوية واضحة، ويؤيد العراق في حربه ضد إيران، وكذلك الوجود السوري في لبنان... يكره إسرائيل ولكنه يمقت الوجود الفلسطيني في الأردن... علماني التوجهات على خلفية طائفة الروم الأرثوذكس... باختصار كان **فهد الفانك** خليطاً من المتناقضات الشرقية... ولكنه بدا لي جديراً، وأميناً، وصريحاً. وكانت الصفة الأخيرة هي التي أدت إلى إنهاء خدمته كنائب لمدير الخطوط الملكية الأردنية. عرضت عليه الخطة العريضة التي أنتويها للمنتدى في العامين التاليين... أبدى ملاحظات ثاقبة حولها... سألته عما يريد أن يقوم به في هذه الخطة... أجاب على الفور: "النشرة الشهرية، وما تيسر من البحوث والدراسات... وهذا بالضبط ما أردته. اتفقت معه على مكافأة شهرية، وخصصت له مكتباً في الجناح المقابل، وطلبت منه أن يظهر العدد الأول من نشرة "المنتدى" في أوائل سبتمبر - أي بعد شهر... ورد على الطريقة العراقية "صار" (أي اعتبر التوجيه قد نفذ بالفعل)... ثم سألني إن كنت سأقدمه لبقية العاملين بالمنتدى... فقلت له طبعاً... وطفت به فعلاً على المكاتب، بادئاً بمكتب المديرة الإدارية **هالة صبري**... وقدمته "ككبير باحثين" حيث كان يكبرني في العمر بثلاث سنوات، كما كان شعره أبيض تماماً... اتضح أن الجميع كانوا يعرفونه بالاسم، أو يعرفون بناته وأولاده... لاحظت أن **هالة** كانت باردة ولكن مهذبة لاستقبال نبأ انضمام **فهد الفانك** لأسرة أمانة المنتدى... ومع الاختلافات الحادة في الرأي، في العديد من القضايا... ظل **فهد الفانك** نموذجاً طيباً للنزاهة والأداء طوال سنوات عملي كأمين عام لمنتدى الفكر العربي... ولم يتوقف أو يتأخر صدور نشرة المنتدى مرة واحدة، بين سبتمبر ١٩٨٥ وأغسطس ١٩٩٠. وبمرور الوقت أوكلت له الإشراف على سلاسل المطبوعات الدورية الأخرى.

صراع أدوار مبكر بين المفكر والأمير

قبل أن ينتهي شهر أغسطس، وقعت في جامعة اليرموك مظاهرات طلابية عارمة، حول مطالب فئوية... وكالعادة حاولت قوات الأمن الأردنية أن تحتويها، فزادت الطين بلة، حيث وقع عدد كبير من الجرحى بين الطلاب، وهو ما أدى إلى تفاقم وتسييس المظاهرات في الأيام التالية... وأعلن عدد من أساتذة الجامعة تضامنهم مع الطلاب، كما طالبوا بالتحقيق في استخدام قوات الأمن للقوة

المفرطة لقمع المظاهرات داخل الحرم الجامعي... ومع مقتل أحد الطلاب ازداد الموقف توتراً وتدهوراً... وكان الملك **حسين** خارج البلاد في إجازة صيفية طويلة... وكان الأمير **حسن**، ولي العهد، ونائب الملك، هو المسؤول عن تسيير الأمور... امتص الأمير الغضب الشعبي المتصاعد بالأمر بإلغاء القرارات التي أدت إلى إضراب الطلاب، كما أمر بلجنة تحقيق فورية للنظر في تجاوزات قوات "منع الشغب"، وأمر بصرف تعويضات لأهل القتيل والمصابين... وذهب بنفسه لمواساتهم... كنت أراقب هذا المسلسل باهتمام شديد، حيث أعادت تفاصيل كل ذلك ذكريات خمسة عشرة سنة سابقة، أي احتقانات أغسطس/ آب ١٩٧٠، والتي تصاعدت بسرعة مذهلة إلى حرب أهلية بين فصائل المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني... وكنت وقتذاك في الأردن، متطوعاً في صفوف **الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين**، التي كان يقودها **نايف حواتمة**.

هدأت الأمور نسبياً... واعتبرت أنا الأمر شأناً أردنياً داخلياً... إلى أن فوجئت بعد أسبوع بقرار فصل عدد من الأساتذة في جامعة اليرموك، دون تحقيق، أو توجيه اتهامات، أو محاكمة... وكما توقعت أرسل هؤلاء الأساتذة شكاوي إلى عدة جهات خارجية، منها المنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة... كما أن زوجة أحد هؤلاء ـ وهو **د.كمال أبو ديب**، أستاذ الأدب المقارن ـ حضرت شخصياً من إربد، حيث مقر الجامعة، إلى عمّان، لتسلمني الشكوى، وتطلب مني التدخل لحماية "الحرية الأكاديمية". كانت الزوجة الغاضبة إنجليزية الجنسية، وتتحدث العربية بطلاقة، وتشعر بقهر مضاعف لأن زوجها من كل الأساتذة المفصولين، قبض عليه، وتم ترحيله خارج الحدود بعد سجنه عدة أيام... وهي تريده أن يعود إلى الأردن وإلى عمله فوراً"... تعاطفت مع الزوجة الغاضبة، التي ذكرتني ثورتها بثورة الطلاب في الستينيات بالولايات المتحدة... وتصورت أن زوجتي **باربارا** يمكن أن تجد نفسها في موقف مشابه، في وقت ما، في مكان ما، وتعجبت كيف ستتصرف... ما لم تقله لي الزوجة الإنجليزية وهي تحكي قصة التنكيل المضاعف بزوجها أنه "سوري" الأصل والجنسية... وأنه طبقاً للتعاقد مع جامعة اليرموك، من حق هذه الأخيرة أن تنهي تعاقده في أي وقت دون إبداء الأسباب، وتطلب منه أن يترك البلاد، مقابل تعويضه مالياً بدفع مستحقاته المالية عن بقية مدة العقد... هذا ما علمته من مكتب الأمير حينما استعلمت عن الأمر... وحينما عادت إلي... وقلت لها ذلك تضاعفت ثورتها... "**كيف يظنون بزوجها أنه مجرد أجير أو مرتزق، كل ما يهمه هو التعويض المالي**؟ إنه ترك عملاً محترماً في الولايات المتحدة لكي يأتي إلى هنا في وطنه العربي... فأي أمة عربية هذه، التي تتشدق بالوحدة كشعارات فقط، ثم حين تقع

الواقعة (when the lest comes) يقال هذا سوري... وهذا فلسطيني... وهذا أردني؟... قل "**لأميرك**" الذي طالما كان صديقاً لنا، ونحن ندرس سويا في **أكسفورد، إنه لم يكلف خاطره بالسؤال عنا حتى مرة واحدة ونحن في بلده منذ سنتين**... هل الكرم العربي، مثل القومية والوحدة العربية، مجرد شعارات جوفاء؟" وخرجت الزوجة الغاضبة، وردت باب مكتبي بعنف... وخرجت وراءها محاولاً تهدئتها... ودخلت المصعد المزدحم، وأنا معها والدموع تملأ عينينا... والناس ينظرون في عجب ما عسى أن يكون قد حدث بين هذه الشقراء الأجنبية وهذا الرجل العربي؟ حينما هبطنا إلى الأرض، أخذت **فيكتوريا** من يدها إلى فندق الماريوت - على بعد خطوات، وأمرت لها ببعض الماء المثلج... وتعهدت لها أنني لن أبقى في الأردن يوماً إلا إذا سويت قضية زوجها العزيز **د.كمال أبو ديب**... هدأت السيدة نوعاً ما... دعوتها لوجبة غداء خفيفة في الفندق، قبل أن تشكرني وتودعني، مسرعة إلى إربد لطفلتها التي تركتها مع بعض الأصدقاء.

كان مشهد السيدة **فيكتوريا** وكلماتها الغاضبة، وسخريتها من شعاراتنا القومية التي نتشدق بها، دون أن نعنيها أو نحرص على تطبيقها مؤثراً وموجعاً... وتعجبت ضمن الخواطر العديدة التي تدافقت إلى عقلي... لماذا لم تأت أي زوجة من زوجات الأساتذة العرب الآخرين، الذين فصلوا، مثل زوجة **كمال أبو ديب،** لتحتج أو على الأقل لتعبر عن غضبها؟ لا يمكن أن يكون ذلك لنقص الحب لأزواجهن... إنها طرق التنشئة الاجتماعية لبناتنا ونسائنا العربيات... أغلب الظن أن الزوجات العربيات اعتكفن في المنازل يبكين حظ أزواجهن وحظهن هكذا... دون أن يفكرن، أو يجرؤن على الخروج للاحتجاج والتعبير عن غضبهن... إن الاحتجاج العلني هو حكر على الرجال العرب... وحق هذا الدور الذكوري في التعبير، حتى للمثقفين، كان ينكمش ويضمر بسرعة في أواخر القرن العشرين... وتساءلت مرة أخرى ما إذا كان تعاطفي الإنساني مع زوجة **كمال أبو ديب** مرجعه أنني تصورت زوجتي الأمريكية **باربارا (بركة)** في نفس الموقف...

في اليوم التالي مباشرة طلبت موعداً مع الأمير **حسن،** واستجاب الرجل في الحال... وذهبت لرؤيته في القصر الملكي... وكان كعادته معي ودوداً... مرحاً... وأعلنت على الفور السبب في طلب مقابلته... وقال "**أنى كلي آذان مصغية**"... وحكيت له بدوري كل ما حدث بيني وبين **فيكتوريا أبو ديب،** بما في ذلك عتابها الشديد عليه لعدم سؤاله أو استقباله لها ولزوجها، رغم ما كان يجمعهما من صداقة أيام الدراسة في أكسفورد في الستينيات... ووعدي لها بأنني

لن أستمر في موقعي بمنتدى الفكر العربي في عمان يوماً واحداً ما لم أسوّ مشكلة **د.أبو ديب!**.

استمع الأمير باهتمام شديد... وبدا وجهه متأثراً للغاية... وقبل أن يرد أو يعلق بكلمة واحدة، طلب من سكرتاريته أن تتصل بمنزل **د.كمال أبو ديب**... وتحدث مع **فيكي** بإنجليزية أكسفوردية... اعتذر لها عن تقصيره الشخصي في حقها... ووعد بأن يحل المشكلة خلال أسبوع، وتمنى عليها أن تحلني من وعدي بعدم البقاء يوماً واحداً قبل حل مشكلة **كمال**... وقال لها مداعباً إنه قضى أربع سنوات إلى أن أتى بي إلى الأردن... فرحمة به حتى لا يضيع عمله في أربع سنوات... ودعاها هي وإبنتها لتناول الغداء معه و**ثروت** (زوجته) وبناته... وودعها، وأنهى المكالمة... ونظر لي، متسائلاً "هل هذا يكفي مؤقتاً؟" ابتسمت... وشكرته... فقال دعنا نتحدث في هذا الأمر تفصيلاً، غداً في الطائرة إلى المغرب!"، ولما رآني مندهشاً قال ألم يخبرك مكتبي بأننا سنغادر إلى المغرب غداً لحضور مهرجان أصيلة، عند صديقك **محمد بن عيسى؟**"!.

على الطائرة الخاصة في اليوم التالي... كان طاقم السكرتارية الخاصة بالأمير **حسن**، واثنان من شباب الأمراء، أحدهما ابن شقيقه الأكبر الأمير **محمد**، وكان يدرس في جامعة برنستون بالولايات المتحدة، والآخر الأمير **عبد الله** ابن شقيقه الآخر، الملك **حسين**، يدرس في جامعة كمبردج البريطانية. كانت هذه أول رحلة طويلة أسافر فيها مع الأمير **حسن** بطائرة خاصة... وتعلمت فيها المزيد عن شخصية الرجل، وأسلوبه في التعامل مع المشكلات والأزمات، وحرصه على تعليم وتدريب الجيل الجديد من أمراء الأسرة الهاشمية... كان يجلس في قسم خاص (صالون) في مقدمة الطائرة... وهو الذي يستدعي من يريد التحدث معه أو معهم من المرافقين... ولاحظت أنه كان يرسل إلى الأميرين الشابين لمناقشة أوراق بحثية كلفهما هو بها... ولم يرسل لي للحديث معه إلا في الساعتين الأخيرتين من رحلة الساعات الخمس.

حدثني عن العشاء مع **فيكتوريا** وإبنتها... وكيف طيب خاطرها... وأخبرته بدوري أنها اتصلت بي وطلبت مني ألا أتعجل باتخاذ قرار مغادرة الأردن احتجاجاً على فصْل زوجها وزملائه من الجامعة... فقال ضاحكاً "**الحمد لله... وبالمناسبة، هل كنت تعتقد حقاً أنه كان يمكنك مغادرة المملكة بهذه السهولة؟ أم أنك كنت ستطلب تدخلاً مصرياً مسلحاً لتحريرك من الأسر الأردني؟**" ضحكت... وكررت له قصة **مارك توين** الشهيرة عن اختطاف اللصوص لطفل مزعج، طلبوا فدية كبيرة من والديه لفك أسره... ولم يستجب الوالدان...

وبعد أسبوع... كان اللصوص هم الذين يرسلون التوسلات لوالدي الطفل لاسترداده..."

حدثني الأمير عن **التقارير الأمنية** التي وردت في حق **د.كمال أبو ديب**، متهمة إياه أنه "بعثي محرض... وأنه وراء الاضطرابات..." استمعت للأمير... وتذكرت لقائي مع ضابط مباحث أمن الدولة المصري، العقيد **رضا مطاوع**، في مكتبه في ليلة رمضانية، منذ عشر سنوات (سبتمبر ١٩٧٥)... وحكيت للأمير، كيف أن الملف المتخم أمام ضابط المباحث المصري كان يحوي عشرة في المئة حقائق، وتسعين في المئة من نسج خيال المرشدين والمخبرين... كان الأمير يبتسم ابتسامة موحية، وهو يستمع إلى حديثي عن ملف جهاز أمن الدولة المصري... وحين توقفت، قال "**بالمناسبة نحن لدينا نسخة من هذا الملف كاملاً**..." دارت بي أرض الطائرة حينما سمعت هذه الجملة... واستوضحته، علني سمعت خطأ... فأكد نفس الشيء برمته ولكنه سارع بتأكيد، أن السلطات الأردنية لم تطلب هذا حينما علمت بتوقيع عقد عملي مع المنتدى... وفي الواقع سألت الشخصية المصرية التي كانت قد أحضرت الملف خصيصاً للأمير بعد شهر، وقبل وصولي عمان لاستلام العمل عما إذا كان الأمير قد قرأ الملف... فأخبرها الأمير أنه فعل، ولكنه لم يصدق معظم ما في التقرير... وأن الجزء القابل للتصديق كان يعرفه بالفعل... ومن مصادر علنية... !

رغم أن الأمير كان يحاول إبراء ذمته، ويؤكد ثقته بي، إلا أني شعرت كأن سكاكين تمزق جسدي... فكيف لأجهزة مصرية أن تحاول الوقيعة والنيل من مراطن مصري لدى حاكم دولة أخرى؟. تظاهرت بالهدوء، وأنا أغلي من داخلي... واستأذنت من الأمير لعدة دقائق... وإنسحبت إلى مؤخرة الطائرة... وتظاهرت بأنني متعب وأريد أن أغفو قليلاً.

قبل الهبوط في مطار طنجة بحوالي نصف ساعة أرسل إليّ الأمير **حسن** مرة أخرى... وأظن أنه أدرك ما كنت أمر به من مشاعر... حاول التخفيف عني، بإحدى نكاته الخارجة عن فلاحين أستراليين ينقلان قطيعا من الغنم بالطائرة... حيث تعطل أحد المحركين، وكان عليهما أن يقفزا من الطائرة بالبراشوت... وماذا قال أحدهما عن الغنم؟ كان بقية النكتة بالإنجليزية أحدهما يسأل what about the sheeps، رد الآخر fuck the sheeps فتساءل الأول بسذاجة، "وهل لدينا الوقت لذلك؟"... وضحكت فعلاً من قلبي... وكانت تلك مهارة اجتماعية نادرة لدى الأمير حسن، ونسيت مؤقتاً الطعنة الغائرة لأحد الأجهزة المصرية، التي من واجبها حماية الوطن والمواطنين... فإذا بها تطعن أحد مواطنيها، وعلى أرض، حتى ولو كانت عربية، إلا أنها أجنبية.

سألني الأمير **حسن** "ما هي آخر مرة قبلت فيها يد إنسان آخر؟" قلت على الفور: أفعل ذلك دائماً مع زوجتي، وكنت أفعل مع والدتي رحمها الله... قال الأمير بضيق ظاهر"أقصد يد رجل آخر مثل ملك أو ولي عهد؟"، أجبت "هذا... لم يحدث أبداً... لم يحدث بعد... لماذا تسأل سموك؟"... قال"أريد أن أحذرك مما نحن بصدده، حينما نصل إلى مطار طنجة... إن الأمير **محمد**، ولي العهد المغربي سيكون وحاشيته في استقبالي أنا وسيادتك وبقية المرافقين... إن التقاليد الملكية المغربية تقضي بتقبيل اليد (الملك وولي العهد)... وسيادتك مفروض أن تقبل يد الأمير مولاي **محمد**" ثم أطلق واحدة من ضحكاته العالية... كان يريد أن يعرف رد فعلي... قلت "سأبقى في الطائرة مع طاقمها إلى أن تنتهي مراسم الاستقبال، وتذهب الحاشية الملكية إلى صالة كبار الزوار... وإلا فسأصافح سموه كما أصافح سموك، يداً بيد... وأرجو ألا يتسبب ذلك في أزمة برتوكولية". هز الأمير رأسه... وقال شيئاً عاماً عن تخلف الأسرة المالكة المغربية!.

صافحت الأمير مولاي **محمد بن الحسن** الثاني بيدي... ولاحظت أنه شاب خجول في أواخر العشرينيات... وأن الناس تحاول فعلاً تقبيل يده، ولكنه يخطف يده بسرعة... وشكرت له هذه العادة... ومر الموقف بسلام... وتوجه الموكب الأميري مباشرة من المطار إلى أحد قصور الضيافة في طنجة... وتوجهت أنا مع حاشية الأمير من الأردنيين إلى أحد الفنادق الكبرى، حيث كانت إقامتنا لثلاث ليال.

كانت طنجة تبعد عن أصيلة حوالي عشرين كيلو مترا... وكانت أصيلة قرية مغربية ساحرة، تقع على المحيط الأطلنطي... وكان عمدة القرية هو السيد **محمد بن عيسى**... وهو زميل دراسة من كلية آداب القاهرة، ومن مخضرمي منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة... وكان يهوى الصحافة والإعلام والعلاقات العامة... لذلك كان دائماً يعرض خدماته الجليلة على مراسل الأهرام في نيويورك، الشهير **ليفون كيشيشيان**، المصري ـ الأرمني الطيب، الذي كان يغطي أخبار منظمة الطلبة العرب بتفصيل يفوق تغطيته لمنظمة الأمم المتحدة... وكان **محمد بن عيسى** الطالب المغربي، الذي يدرس في مينيسوتا ـ مع **فوزي هيكل** و**أحمد صقر** و**محمود وهبه** و**عزت عبد الموجود** ـ والذي كان يواظب معهم على حضور مؤتمرات منظمة الطلبة العرب، ويخف لمساعدة **ليفون**... لدرجة أصبح **ليفون**، وقد تقدم به السن يعتمد عليه اعتماداً متزايداً، ويرسل له للحضور من منيوسوتا إلى نيويورك، حينما يكون هناك ضغط عمل ـ مثل اجتماعات الجمعية العامة، أو أثناء حرب يونيه ١٩٦٧... اشتغل **محمد بن**

عيسى بعد ذلك في عدة منظمات تابعة للأمم المتحدة، وانقطعت أخباره عني... إلى أن التقيت به في أحد مؤتمرات د.**خير الدين حسيب**... وهو الذي ذكرني بالأيام التي مضت وذكر أنه استقال من الأمم المتحدة منذ عدة سنوات، وعاد إلى قريته أصيلة... ونظم المهرجان مع مجموعة من رفاق طفولته وصباه. كان حاضراً في مهرجان أصيلة الثقافي هذا العام كوكبة من الأدباء الفنانين العرب والأفارقة، ومنهم الرئيس السنغالي السابق **ليوبولد سنجور**، وهو أبو الاستقلال، في السنغال وأول رئيس إفريقي من آباء الاستقلال، **يرفض تجديد الرئاسة**، حتى يعطي الفرصة لإرساء قواعد تداول السلطة سلمياً وديمقراطياً في بلاده... وهو ما كان، ولم تشهد السنغال لا انقلابات عسكرية، ولا حروباً أهلية، ولا مجاعات... وكانت في هذا كله **استثناءً إفريقياً مبهراً**... وبعد سنوات اقتدى الرئيس التانزاني برئيس السنغال الأديب الشاعر. التقيت في المهرجان أيضاً بالشاعر المصري **أحمد عبد المعطي حجازي** والأديب السوداني **الطيب صالح**، والشاعر **العراقي عبد الوهاب البياتي**، وآخرين.

كان المحور الفكري لمهرجان أصيلة في ذلك العام (١٩٨٥) هو "**الثقافة والتنمية**"... وطلب الأمير **حسن** مني مساعدته في إعداد كلمة يلقيها في حفل الافتتاح... واخترت له موضوعاً: "من تنمية الثقافة... إلى ثقافة التنمية"، والتي لاقت استحسانه، وكذلك استحسان المشاركين في المهرجان.

وضعت رحلة المغرب، والساعات الطويلة، والأنشطة المشتركة التي قضيتها مع الأمير **الحسن**، كثيراً من النقط على الحروف في إرساء قواعد العلاقة بيننا طوال السنوات التالية، والتي امتدت من سنتين (التزمت بهما منذ البداية) إلى خمس سنوات (ألح هو عليها في النهاية):

- رجاني الأمير ألا أعد، أو أتوعد أحداً بشيء وأنا في حالة انفعال.
- رجاني ألا أتورط في الشؤون الداخلية الأردنية، ووصفها بأنها مثل الرمال المتحركة... وأن أردنيين كثيرين سيحاولون جرّي إلى الشأن الأردني.
- حذرني من دسائس القصور... ونبهني إلى أن الكلمة الإنجليزية (Intrigue) لا تستخدم إلا مع مرادفها وقرينها، وهو "القصر". (Palace Intrigue)
- رجاني أن أصارحه وأكاشفه بكل ما يجدّ لي من أفكار ومقترحات وانتقادات، قبل أن أعلنها على الكافة..... ووعدني أن يفعل نفس الشيء... وتمنى أن نصبح أصدقاء.

وقد احترمت في الرجل صراحته وإخلاصه، والتزمت بكل ما رجاه وبكل ما نصح به خلال السنوات الخمس التالية. حدثت بيننا خلافات عدة مرات...

وأحياناً كان يقاطعني لعدة أسابيع... وكنت أفعل نفس الشيء. ولكني لم أسمع منه أبداً كلمة نابية أو إهانة... ظل الاحترام بيننا عميقاً ومتبادلاً... وحينما غدر به شقيقه الملك **حسين**، وأزاحه من ولاية العهد لمصلحة ابنه الأمير **عبد الله**... شعر الأمير حسن بحرج عميق... وأرسل لي وزوجتي **باربارا** لقضاء عدة أيام معه وزوجته الأميرة **ثروت** وبناته... ولبّينا الدعوة، وذهبنا إلى عمّان لكي نسمع ونواسيه في عام ١٩٩٩... أي بعد أن تركت الأردن بتسع سنوات. وأدركت وقتها ألم الوحدة لمن يفقد السلطة. ولكن هذه قصة أخرى سأحكيها في أوانها.

نشرة المنتدى

في الأيام الأخيرة من أغسطس كان **فهد الفانك**، قد أعد تصوراً مبدئياً للعدد صفر (زيرو) من النشرة المقترحة، والتي اتفقنا على أن نطلق عليها اسم "**المنتدى**"... وكان من رأيه أن تكون "**فصلية**"... وكان من رأيي أن تكون "**شهرية**"... كان هاجسه ألا يكون هناك ما يكفي من المواد الإخبارية عن نشاط المنتدى لإصدارها شهرياً... وكانت وجهة نظري أن يكون هناك ما يكفي من أخبار المنتدى، أو أعضائه، أو أخبار المراكز والهيئات الشقيقة في الوطن العربي... وفي كل الأحوال هناك دائماً مراجعات المؤتمرات والندوات والكتب... وحيث أنني كنت عائداً لتوي من مهرجان أصيلة، فقد كان لدي ما يملأ صفحات العدد الأول... التنازل الذي قبلته، هو أن نبدأ "المنتدى" بست عشر صفحة، أي ملزمة، ومن قطع الكوارتو (نفس قطع مجلة التايم والأيكونومست)... ولأنني كنت قد انتهيت أيضاً من صياغة تصوراتي لبرامج وأنشطة المنتدى ... فقد لزم أيضاً عليّ عرضها في العدد الأول، حتى قبل أن تقرها لجنة الإدارة، التي تنوب عن مجلس الأمناء بين دورات انعقاده... وتعمدت أن يشار إلى خطة العمل هذه كتصور أولي، وطلبت من أعضاء المنتدى وأصدقائه أن يعلنوا آراءهم فيها لكي تأخذها لجنة الإدارة في الحسبان قبل إقرار خطة العمل.

خرج العدد الأول عن المنتدى، وأرسل إلى أعضاء المنتدى السبعين في الأسبوع الأول من سبتمبر... واجتمعت لجنة الإدارة في الأسبوع الأخير من نفس الشهر ... وانقسمت اللجنة حول أسلوبي: السرعة والطموح وعدم انتظار لجنة الإدارة لإقرار المبادرات قبل تنفيذها وهو نقد كنت أتوقعه مثلما حدث قبل ثلاث سنوات فيما يتعلق بنشرة المنظمة العربية لحقوق الإنسان وكان ردي جاهزاً: اعتبروا العدد الذي في أيديكم عدداً تجريبياً... فإذا لم توافقوا على الفكرة من الأساس... فإننا سنتوقف، ونعتذر للأعضاء والأصدقاء بالتوقف تنفيذاً لقرار لجنة الإدارة... وشعر المعترضون أنني أضعهم في ركن (corner) أو مأزق

مع بقية الأعضاء... وهو شعور له ما يبرره، فقد كان ذلك فعلاً مقصدي... وقبل المعترضون الأمر الواقع على مضض... وبمرور الوقت كثر المتحمسون للنشرة... ومع بداية ١٩٨٩، اقترحوا مضاعفة عدد صفحاتها... وعدد المطبوع من نسخها، وتوزيعها على مزيد من الأصدقاء.

كل ألوان الطيف في المنتدى

كان مفهوم منتدى الفكر العربي، كما سبقت الإشارة، أن يكون محاكاة عربية "**لنادي روما**"، الذي جمع في عضويته بين رجال الأعمال ورجال القرار ورجال الأفكار. وكانت الفكرة أن هذه الفئات الثلاث هي التي يمكن أن تشكل مسيرة البشرية على نحو عقلاني متوازن... وكان المفهوم مقبولاً مني تماماً، ولذلك قبلت مهمة الأمين العام، ولكن التحدي أمامي كان التوازن بين هذه الفئات الثلاثة، فقد وجدت أن معظم الأعضاء من رجال السياسة ورجال الأعمال، وأقلهم من المفكرين والعلماء. كذلك لم يكن بين الأعضاء العاملين أي **نساء**، أو **يساريين** أو **إسلاميين**.

كان هناك اتفاق ضمني على ألا تتجاوز العضوية **مئة شخص**، مثل نادي روما، لتأكيد الانتقائية والألفة وتعظيم فرص العمل والمشاركة في أعمال وحوارات المنتدى. لذلك تعمدت أن أستكمل المئة بمفكرين أو نساء، ويساريين... ورشحت عدداً من هؤلاء للجنة الإدارة... أجازت معظمهم، ورفعت توصياتها بالموافقة لمجلس الأمناء. كانت أول سيدتين رشحتهما : السيدة **ليلى شرف** وزيرة الإعلام السابقة في الأردن، والتي كانت قد استقالت حينما ضيقت الحكومة على حرية الصحافة... ولذلك حظيت بمكانة خاصة لدى المثقفين العرب، والباحثة الاقتصادية الشيخة **سعاد الصبّاح**، الشاعرة والصديقة والأديبة الكويتية. وكان أول اليساريين الذين رشحتهم هم **د.سمير أمين** والأستاذ **لطفي الخولي** (مصر)، و**فاروق أبو عيسى** (السودان)، وكذلك كنت قد لاحظت ندرة الحضور المغاربي، باستثناء الأستاذ **الأخضر الإبراهيمي**، فرشحت عدداً لا بأس به منهم - **فاطمة الأحبابي، ومحمد عابد الجابري وعلي أومليل** (المغرب)، و**الطاهر لبيب** (تونس). وكنت بالفعل قد رشحت عدداً من النشطين في مركز دراسات الوحدة العربية، على رأسهم **خير الدين حسيب** (العراق)، و**غسان سلامة وإلياس سابا** (لبنان)، والسيد **يس** و**علي الدين هلال** (مصر). ومن الإسلاميين **د.أحمد كمال أبوالمجد** (مصر) ود.**أحمد صدقي الدجاني** (فلسطين)، ومن الأقباط **منى مكرم عبيد** (مصر)، ومن المسؤولين المصريين السابقين **د.عبد العزيز حجازي**.

أضافت هذه الشخصيات تنوعاً وجدية، وجعلت من لقاءات المنتدى في سنته الأولى أحداثاً ثقافية جاذبة للإعلام الأردني والعربي، وبشكل لم تتعوده العاصمة الأردنية من قبل. وقد أثلج ذلك صدر الأمير حسن، ومعظم أعضاء المنتدى. وإن كان وكالعادة أثار بعض الغيرة والحسد.

تمويل المنتدى: الداخل والخارج

حينما عرضت برامج النشاط المقترحة في خطة العمل، كانت ردود الفعل جميعاً ممتازة... ولكن من أين لك بالتمويل؟.

طلبت من مجلس الأمناء أن يطلق يدي في البحث عن تمويل من جهات عربية وأجنبية... وبعد مناقشات حامية، حصلت على الموافقة وكانت حجتي في السعي لتمويل خارجي هو لتمويل أحد البرامج الطموحة التي اقترحتها وهي العرب والعالم، والتي كانت تنطوي علي "حوار عربي - أوربي"، "حوار عربي - آسيوي"، "حوار عربي – إفريقي"، "حوار عربي – صيني"، "حوار عربي – سوفييتي"، "حوار عربي - ياباني"...

أما برامج الأبحاث، فقد كان أهمها مشروع حول "**تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين**"...

ونجحت في الحصول على تمويل لبرنامج الحوارات من **مؤسسة فورد**، ولمشروع التعليم من **د.سعاد الصباح**... وذلك في حدود مليون دولار لكل منهما خلال ثلاثة سنوات... وكان ذلك يمثل طفرة في حجم وأسلوب تمويل أنشطة المنتدى. وحينما اجتمعت الجمعية العمومية للمنتدى في أوائل مايو ١٩٨٩، كال لي الأعضاءُ المديح... إلى أن لاحظ بعضهم في التقرير المالي اسماً لمؤسسة فورد ضمن الجهات الممولة، فاعترضوا، لا على قبول التمويل، ولكن على ذكر اسم الجهة صراحة... وبعد مناقشة حامية اقترح الأستاذ **الأخضر الإبرهيمي**، وكان أحد نواب رئيس المنتدى، أن نكتفي في التقرير الذي سينشر على الملأ بعبارة "تمويل خارجي"... ورغم أن ذلك كان كفيلاً بوقف النقاش والانتقال لتقرير جدول الأعمال... إلا أنني تحفظت على الاقتراح، وصممت على إثبات هذا التحفظ كتابة في محضر الاجتماع.

كانت وجهة نظري التي عرضتها بشيء من الدرامية هي أننا في هذا المنتدى نحاول إرساء قيم وممارسات مستقبلية جديدة، وضمن ذلك قيم الشفافية والمحاسبية، فما دمنا قد قبلنا مبدأ التمويل من الخارج في اجتماع سابق، ونفذت الأمانة ذلك، فمن حق المانحين - سواء كانوا عرباً أو غير عرب - أن يُذكروا بالاسم، وحجم منحهم، والغرض الذي ذهبت أو ستذهب من أجله... فإذا كان

ثمة خجل أو حرج من ذلك، فلنعد النظر في القرار السابق، أو فلترجع المنح لأصحابها مع شكرهم... ورغم أنه كان نادراً، أن يجري تصويت على معظم القرارات... فقد طلب الأمير **حسن** الذي كان يرأس الاجتماع أن نجرى تصويتاً سريعاً على هذا الأمر، وقد كان، وحظيت العلانية بحوالي ثلثي الأصوات...!.

جائزة الكويت في العلوم الاجتماعية والاقتصادية

في عام ١٩٨٥رشحني **مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية لجائزة الكويت في العلوم الاجتماعية والاقتصادية...** وكانت أكبر جائزة عربية في هذا المجال إلى تاريخه... وسعدت بالترشيح، الذي جاء بمبادرة من مجلس خبراء المركز... وتضمن الأمر ضمن ما تطلب تجميع وإرسال ثلاث نسخ من كل إنتاجي العلمي... بواسطة، ومن خلال جهة الترشيح... وأذكر أن **د.علي الدين هلال**، وكان عضواً في مجلس خبراء المركز، لاحظ أن هناك ثلاثة أعمال لي لم تتضمنها قائمة إنتاجي العلمي... وكان ذلك لدهشتي، حيث كنت قد نسيتهم تماماً... فقد كانت من الأعمال المبكرة، وغير الهامة، كما لم تكن لدي نسخٌ منها... واتضح أن **علي الدين هلال** لديه نسخ منها... فعرض تصويرها... وكان **علي الدين هلال** يصف نفسه "بالإمبريقي الفج" (Vulgar Empiricist) من حيث قدرته التي لا تبارى في تذكر الأشياء، سواء الهامة أو المغرقة في التفاهة. ومن ذلك الحين، كلما احتجت عملاً من أعمالي التي نفدت من السوق، أتصل **بعلي الدين هلال** لسؤاله إن كانت عنده ... ولم يُخيّب ظني أبداً، كان جامعاً أميناً لكل أعمالي، وربما لكثير من أعمال زملائه الآخرين!

نسيت موضوع الترشيح، الذي كان في أوائل عام ١٩٨٥، وذلك في زحمة المشاغل والانتقال إلى عمان... ولكني فوجئت في ديسمبر ١٩٨٥، بإعلان فوزي بالجائزة، ودعوتي في ربيع ١٩٨٦ لاستلامها في حفل كبير من **أمير الكويت**... وكانت الجائزة عبارة عن شهادة وميدالية ذهبية، ومبلغ **خمسين ألف دينار كويتي** (أي حوالي ربع مليون دولار أمريكي، على ما أذكر بأسعار تلك الأيام).

وإلى جانب التكريم الهائل الذي لقيته في الكويت، فقد احتفظت بالقيمة المالية للجائزة في حساب خاص، لمشروع مستقبلي كان يداعب خيالي منذ عدة سنوات، ألا وهو إنشاء مركز بحثي تطبيقي للعلوم الاجتماعية، يحمل اسم المؤسس العربي لهذه العلوم، وهو **عبد الرحمن بن خلدون**.

حياتي في عمان

تركت أسرتي في القاهرة، على أن أتردد عليهم لعدة أيام كل أسبوعين... وقررت، والأمر كذلك، أن تكون إقامتي في أحد الفنادق القريبة من مقر المنتدى. وبدأت ذلك بجناح صغير (غرفة نوم واستقبال) في فندق ماريوت، الذي كان على بُعد خمس دقائق من المكتب... كنت أستيقظ في السادسة، وأمشي حول الفندق في ضواحي عمان الجميلة لمدة ساعة، ثم أعود وأستحم في حمام الفندق لحوالي نصف ساعة، لارتداء ملابسي، ثم أتناول الإفطار في مطعم الفندق، وأتصفح الجرائد وأنا أتناول القهوة... ثم أتوجه للمكتب ـ بين الثامنة والنصف والتاسعة... كان الموظفون يداومون من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر... كنت أظل في المكتب إلى الثالثة والنصف، وأتناول غداء خفيفاً في أحد كافيتريات مبنى مجمع بنك الإسكان، ثم أعود إلى المكتب للعمل إلى العاشرة مساءً.

كان عملي في الشهرين الأولين يوليو وأغسطس كله صباحاً ومساءً، مكرّساً لصياغة برامج المنتدى والمراسلات مع الأعضاء، والهيئات المتعاونة أو التي يمكن أن نتعاون معهم... ولكن ابتداء من منتصف سبتمبر بدأت أكرس ساعات العمل المسائية لكتاباتي الأخرى: استكمال مشروع استشراف المستقبل العربي، وكتاب الملل والنحل والأعراق، وكلاهما كان التزاماً مني لمركز دراسات الوحدة العربية.

كانت الاتصالات من عمّان بمصر وبقية الوطن العربي والعالم ميسورة للغاية، من مكتبي تليفونياً، وتلكسياً، ثم فاكسياً فيما بعد، فكنت على اتصال دائم بأسرتي وبمساعدتي **نعمت** في المنظمة العربية لحقوق الإنسان.

كان عدم وجود أسرتي معي يعفيني من قبول الدعوات العائلية الكثيرة... لذلك، كان من السهل على سكرتيرتي في المنتدى (**سهام مسعد**) الاعتذار، بدعوى سفرياتي أو ارتباطاتي الأخرى.

كان مناخ عمان جميلاً، جافاً، وهواؤها نظيفاً... وهو ما ساعدني على النوم العميق والعمل ساعات طويلة دون شعور بالإرهاق. ولم تكن عمان مثيرة ترويحياً، حيث كانت المدينة تنام مبكراً. فكنت أدخر الإثارة للأيام التي أقضيها في القاهرة... أما معظم وقتي في عمان فقد كان للعمل التنظيمي (المنتدى)، والفكري (الكتابة). **وقد أنتجت في السنوات الخمس التي قضيتها في عمّان ما لا يقل عن خمسة آلاف صفحة منشورة في كتب ودوريات، ومجلات وصحف، وهي تعادل كل ما أنتجته في العشرين سنة السابقة...!!**

عودة مصر للوطن العربي

إن ما قمت به من نشاط فكري في منتدى الفكر العربي، لم يكن غريباً أو جديداً تماماً. فمثله كنت قمت به في مركز دراسات الوحدة العربية والجامعة، والجهات الاستشارية التي استعانت بي. ولكن الجديد فعلاً كان **التأثير في صناعة القرار العربي** ـ وطنياً وقومياً، فمن ناحية كان ذلك هو أحد مقاصد المنتدى . **المبادرة وترشيد القرار**.

فقد أخذت على عاتقي مبكراً، أن أوظف موقعي في المنتدى، وموقع المنتدى في الفضاء العربي العام من أجل إعادة حد أدنى من التضامن والعمل العربي المشترك. وكان واضحاً لي أن ذلك صعب التحقيق ما دامت مصر خارج النظام الإقليمي العربي. وقد كان ذلك هو الحال منذ توقيع اتفاقية **كامب دافيد** (١٩٧٨)، وتعليق عضوية مصر في الجامعة العربية، ونقل هذه الأخيرة من مصر إلى تونس. وكانت الساحة العربية كلها ممزقة: حرب أهلية في لبنان (منذ ١٩٧٥)، وحرب في الخليج بين العراق وإيران (منذ ١٩٨٠)، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع والجولان وجنوب لبنان، وصراعات حدودية وأهلية في اليمن، وصراع أهلي ممتد في السودان والصومال، وصراع مغاربي حول الصحراء.

واقترحت على الأمير حسن **ورشة عمل مصرية . أردنية**، لتقدير الفرص المواتية لرأب بعض التصدعات القائمة في العلاقة بين مصر وبقية أقطار الأمة. وتحمس للإجابة والتأمت الورشة بالفعل، وشارك فيها من المصريين: السيد/ **محمود رياض**، والأستاذ/ **أحمد بهاء الدين**، وأ. **كامل زهيري**، و**السيد يس**، و**علي الدين هلال**، ود.**يحي الجمل**، ود.**لبيب شقير**، ود.**رفعت المحجوب**، ود. **محمود شريف**، ود.**حلمي الحديدي**. وكان معظم هؤلاء من أعضاء "**منتدى الفكر الديمقراطي**"، الذي لم يكتب له الظهور القانوني الرسمي للحياة، وشارك الأمير **حسن**، و**ليلى شرف**، ود.**جواد العناني**، ود.**طاهر كنعان**، ود.**عبد الهادي المجالي** من الأردن. وكان لقاءً مفيداً للغاية، حيث أسهم فيه كل المشاركين بعمق وصراحة وإخلاص، لم يكن واضحاً فيه الهوية الفطرية للمشارك... كان التركيز بعد الجلسة الأولى، لا على عودة مصر من عدمها، ولكن كيف ومتى ... وخلصنا إلى دور محوري تقوم به الأردن في هذا الصدد، بداية بالحصول على **موافقة عراقية**، حيث كانت قمة بغداد هي التي أخرجت مصر . أما وقد تغيرت الأحوال وأصبح العراق في حاجة إلى الدعم الأردني (ميناء العقبة) والمصري (العمالة والعتاد العسكري) في حربها مع إيران،

فقد كانت الفرصة قد أصبحت مواتية. فالسودان وعمان متضامنتان، وهما لم تقطعا العلاقات أصلاً، وكذلك كان رأي المشاركين أن المغرب واليمن سترحبان، وبقية دول مجلس التعاون الخليجي لن تعارض عودة مصر، ولن تتحمس لها علناً. وهكذا كان التقدير أن أغلبية عربية ستوافق على هذه العودة، وستعارضها فقط سوريا وليبيا ولبنان، وربما فلسطين وتونس والجزائر.

اتفق المشاركون على تنظيم لقاء متابعة، مفتوح لكل أعضاء المنتدى، ويلعب فيه الذين شاركوا في ورشة العمل الأولى دوراً قيادياً في الحصول على الموافقة على بيان يصدر عن المنتدى موجه إلى قيادات الأمة بهذا المعنى... وتحقق بالفعل ذلك، وفي مؤتمر قمة عربي في المغرب تمت الموافقة على عودة مصر، ثم في مؤتمر القمة الذي تبعه في عمان (١٩٨٧)، تمت دعوة مصر فعلاً، وشارك فيه الرئيس **محمد حسني مبارك**.

ولم أستطع أنا أن أكون حتى مراقباً أو متفرجاً في قمة عمان... فقد اعتذر لي الفندق أن كل غرفه وأجنحته محجوزة للمشاركين في القمة... ولم أغضب... وابتسمت لمبادرة ناجحة... حتى وإن لم أسعد بالمشاركة في حفل عرسها!

الانتفاضة... إحدى نتائج القمة؟

من المفارقات الساخرة، أنه بقدر ما كانت قمة عمان ناجحة في استعادة قدر معقول من التضامن العربي، وذلك بعودة مصر إلى الجامعة العربية... فإن هذه تجاهلت المسألة الفلسطينية، تجاهلاً شبه تام... ولم يكن هذا التجاهل مقصوداً، ولكنه في رأيي كان لسببين رئيسيين. أولهما، هيمنة مسألة عودة مصر إلى الصف العربي، ومسألة الحرب العراقية الإيرانية... والسبب الثاني هو قلة "**الحيلة**"، فلم يكن هناك الكثير الذي يمكن للقمة عمله، غير بيانات الشجب والتنديد بالاحتلال الإسرائيلي، وزيادة الدعم المادي لمنظمة التحرير الفلسطينية... وحتى هذه الأخيرة كانت محل ارتياب المانحين العرب الخليجيين الذين أصبحوا يتهامسون حول "**الفساد**" في أجهزة المنظمة في تونس... وكان هناك شعور بالضيق والإحباط بين الفلسطينيين في الضفتين لهذا التجاهل. والمهم، هو أنه بعد أيام من انفضاض قمة عمان، بدأت المظاهرات في مدن ومخيمات الضفة الغربية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلية.

لم تكن مثل هذه المظاهرات شيئاً جديداً، أو غير معتاد... ولكن الجديد فيها هو تزامنها مع نهاية القمة في عمان من ناحية، و**اشتراك أطفال المدارس فيها** من ناحية ثانية، وكان العام الدراسي قد بدأ للتو منذ أسابيع قليلة... ومن ناحية ثالثة **استخدام الأطفال للحجارة** (الزلط) ضد جنود الاحتلال ومن ناحية رابعة

الاهتمام الإعلامي العالمي بهذه الظاهرة الجديدة ـ أطفال في عمر الزهور، يواجهون بالحجارة في أيديهم الصغيرة وبأجسامهم النحيلة جنوداً إسرائيليين مدججين بالسلاح، محاولين ملاحقاتهم في الشوارع والحواري والأزقة... وربما تكون مُفارقة ودرامية المشهد، هي التي أغرت الإعلام الدولي بالتركيز على الظاهرة... وربما التعاطف الحقيقي لمندوبي هذا الإعلام مع قضية الفلسطينيين تحت الاحتلال... والذي كان قد مضى عليه مع ذلك الوقت عشرون عاماً.

توقع الناس في الأردن، حيث توجد أغلبية من أصول فلسطينية، أن تنتهي مظاهرات الأطفال هذه خلال عدة أيام... وأظن أن الإسرائيليين كان لديهم نفس التوقع.

وكنت منذ حضوري إلى الأردن، أكتب مقالاً أسبوعياً في الصحيفتين اليوميتين ـ "الدستور" و"الرأي " ـ وكان هو نفس المقال الذي يظهر في صحيفة "**الجمهورية**" **القاهرية**، أو "**الأهرام الاقتصادي**"... وكتبت في حينه سلسلة من المقالات أحلل فيها الجديد في تلك الظاهرة... وأهم ملاحظاتي هو أن هذا الجيل الفلسطيني الجديد الذي يتظاهر، ولد في ظل الاحتلال، وذاق مرارته وإذلاله لآبائهم، ولكنه لا يشارك هؤلاء الآباء خوفهم من جيش الاحتلال، أو دولة الاحتلال، كذلك لاحظت أن مشاركة الأطفال هي مُشاركة عنصر فلسطيني متكاثر فالفلسطينيون كانوا في ذلك الوقت ـ وربما إلى الآن ـ من أعلى شعوب الأرض في معدلات المواليد... وأخيراً لاحظت أن سلوك المحاكاة بين الأطفال جعل ظاهرة إضراباتهم تنتشر بسرعة من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى، ومن الضفة الغربية إلى قطاع غزة الأكثر بؤساً واكتظاظاً بالسكان.

وحينما خرج **إسحق رابين**، وزير الدفاع الإسرائيلي، في الأسبوع الثالث لمظاهرات الأطفال، توعد بدق عظامهم، وكانت مظاهرات الأطفال قد أخذت اسماً جديداً في وسائل الإعلام وهي "**انتفاضة الحجارة**"... والتي استمرت لأكثر من أربع سنوات، ومهدتِ الطريق لمدريد وأوسلو.

أمير جديد... مبادرة جديدة

في أوائل عام ١٩٨٧ كانت أنشطة منتدى الفكر العربي قد أصبحت ملء أسماع وأفواه الجماعة الثقافية العربية... وملء صفحات وموجات وسائل الإعلام العربية، وخاصة في المشرق والخليج... وكانت الدراسة التي كنت قد أعددتها عن "**تجسير الفجوة بين المثقف والأمير**" قد أصبحت مصدراً لسجالات حافلة... وأصبح الإقبال على أنشطة المنتدى أكثر من أن تتحمله ميزانيته المحدودة...

لذلك فتحنا الباب للتبرعات وللعضوية المنتسبة... ولحضور من يرغب لإحدى فعاليات المنتدى على نفقته الخاصة.

مع ذلك الوقت أيضاً كنت قد استقلت من موقعي كأمين عام **للمنظمة العربية لحقوق الإنسان**، وهو أمر لم يكن معتاداً في المنظمات العربية... أن يستقيل مسؤول بإرادته الحرة، دون أن يُفصل، أو يجبر على الاستقالة!، ورغم أن الذي حل محلي في هذا الموقع هو إنسان فاضل، وذو تاريخ وطني وقومي مشرف، وهو الأستاذ **محمد فايق**، إلا أن عدداً من أمناء المنظمة، ظلوا يعبرون في كل مجالسهم عن أسفهم لاستقالتي... وخوفهم أن تذبل المنظمة... وضمن ما كان يردده هؤلاء، وخاصة في منطقة الخليج هو "أن أي شيء وضع فيه سعد الدين إبراهيم يده سيتحول إلى ذهب"! ورغم المبالغة الشديدة في هذا القول، إلا أن أحد الأمراء السعوديين، وهو **طلال بن عبد العزيز**، سمع هذا القول، فأرسل لي مساعدته الليبية الحسناء **فريدة العلاقي**، من "**صندوق الخليج لدعم منظمات الأمم المتحدة**"، لدعوتي إلى مؤتمر في تونس عن مستقبل الأطفال العرب ... وألحت **د.فريدة** ... بل وعرضت انضمام الأمير **طلال** للمنتدى، واستعداده للتبرع بسخاء، إذا لبيت الدعوة لمؤتمر تونس... لم يكن لدي وقت لإعداد ورقة للمؤتمر... ومع ذلك استمرت في الإلحاح على مشاركتي، ولو بتعليقات عامة ختامية في الجلسة الأخيرة للمؤتمر، كانت **فريدة** متحمسة، ومقنعة، وجميلة، فقبلت.

وفي مؤتمر تونس، التقيت عدداً كبيراً من المهمومين والمختصين بشؤون التربية والطفولة، ومنهم الصديقان **حسن الإبراهيم** (الكويت) و**الطاهر لبيب** (تونس)، وأستاذي **د.حامد عمار** (مصر/ الأمم المتحدة)... وتحدثت ـ كما اتفقنا ـ في الجلسة الختامية، حيث ربطت بين **رعاية الطفولة ومستقبل التنمية في الوطن العربي**، وبالتالي ضرورة أن نتجاوز في تعاملنا مع هذه المسألة، الرعاية الصحية والغذائية – على أهميتها – إلى ما هو أبعد، وهي **التنمية العقلية والوجدانية والاجتماعية** لأطفالنا... وربطت بين هذا النوع من التنمية و**الإبداع**، و**الثورات "الجديدة لعالم القرن الحادي والعشرين"**...

لم يكن فيما قلته شيء خارق للعادة... وكنت قد اقتبست معظمه من دراساتنا في مشروع تعليم الأمة العربية للقرن الحادي والعشرين.

ولكن يبدو أن لغة خطابي كانت هي الجديدة على المشاركين، وخاصة على راعي المؤتمر وهو الأمير **طلال بن عبد العزيز**... فأرسل لي **د.فريدة**... ليدعوني لتناول الغداء معه... ثم بعد ذلك لتناول العشاء... ثم لتناول الفطور، قبل أن يغادر تونس بطائرته الخاصة إلى جنيف... بل وعرض الرجل أن

أصاحبه في رحلته إلى جنيف لعدة أيام لاستكمال الحديث... شكرته، واعتذرت له لارتباط عندي في عمان.

ذكرني اندفاع الأمير **طلال**، وتعلقه بكل ما أقوله، حتى لو كان خفيفاً، ذكرني في بدايات معرفتي بكل من الأمير **حسن بن طلال**، والأميرة **سعاد الصباح**، وخاصة أن مجرد التعامل مع هؤلاء الأمراء بتلقائية وندية، هو مسألة أولاً نادرة، وثانياً، محببة إلى قلوبهم... ويبدو أن ذلك هو نتيجة كثرة الزيف والنفاق والرياء، الذي يحيط بهؤلاء الأمراء من مساعديهم والمتعاملين معهم، من الخاصة والعامة على السواء.

بعد مؤتمر تونس، كان الأمير **طلال** يتصل بي مباشرة... أو من خلال **د.فريدة العلاقي** كل عدة أيام ... ثم طلب أن نجتمع في القاهرة، ودعا كلاً من **د.حسن الإبراهيم**، و**د.الطاهر لبيب** لنفس الاجتماع، وذلك للتداول في مبادرة جديدة لتأسيس "**منظمة عربية للطفولة والتنمية**" وحضرت الاجتماع الذي تزامن مع زيارتي الأسبوعية للقاهرة... وطلب الأمير طلال والمجموعة أن أدعوهم إلى منزلي لأكلة "حمام محشي"... وهو ما كان **حسن الإبراهيم** قد أشاع تفردنا وامتيازنا فيه... وأعدت طباختنا **حليمة** وليمة للضيوف... وتعرف الأمير **طلال** بالأسرة... وأصبح صديقاً يتردد علينا هو ومن يتصادف وجوده معه في القاهرة.

وبقدر ما كانت تلك تجربة جديدة ومبتكرة لزوجتي وأطفالي لكثرة ما يحضره الأمير معه في كل مرة من هدايا، إلا أن **باربارا** لم تكن مستريحة تماماً لهذا "**السخاء المادي**"، الذي لا نستطيع أن نرده بنفس القدر أو بنفس المستوى... حتى **د.فريدة** دخلت في نفس الممارسة، أي الإغراق بالهدايا على أفراد الأسرة... وبشكل بدأ يزعج **باربارا**، رغم تقديرها الشخصي وحبها لعالمة الاجتماع الليبية.

لم يكن ممكناً إبطاء اندفاع الأمير السعودي نحونا... كان يبدو مخلصاً لسعيه في خدمة الطفولة العربية، وكان يبدو مستعداً لتكريس جزء كبير من ثروته لهذا ولغيره من الأهداف الاجتماعية والثقافية النبيلة... ورغم أهمية مسألة الطفولة، إلا أنها لم تكن في قمة اهتماماتي في ذلك الوقت، وذلك بعكس صديقنا **د.حسن الإبراهيم**، مؤسس "**الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية**".

من ناحية أخرى، بدأت ألاحظ تبرم الأمير **حسن** بالوقت المتزايد الذي أبذله لكل من الأمير السعودي ولمسألة الطفولة... وفي النهاية لم يكن لدي من وسيلة لاحتواء اندفاعة **طلال** وتبرم **الحسن**، إلا بجعل الأخير شريكاً فاعلاً فيما يريده أو يحلم به الأول... ورغم عدم حماسهما لهذه الشراكة، إلا أنني أصررت عليها كشرط لاستمرار إسهامي في مبادرة الأمير السعودي... وفي النهاية أذعن الأميران... ومن ذلك إصراري على أن تكون كل الاجتماعات التمهيدية لتنفيذ

مشروع المنظمة العربية الجديدة في عمّان... وقد أسعد ذلك الأمير **الحسن** كثيراً، وأدخل الطمأنينة إلى قلبه...!.

فوجئت بزيارة عابرة لي في أحد رحلاتي إلى القاهرة من صديق الدراسة الأمير **بندر بن عبد الرحمن آل سعود**... وكان **بندر** يظهر ويختفي في حياتي كل عدة سنوات، وهو ابن عم الملك، وبالتالي ابن عم الأمير **طلال**، وكان يشغل في ذلك الوقت منصب وكيل وزارة الداخلية لشؤون المقاطعات في المملكة... جاء **بندر** ليحذرني من التعامل الكثيف مع ابن عمه **طلال**... وفي السياق، أعطاني خلفية مفصلة عن مشكلات **طلال** مع بقية أفراد الأسرة السعودية المالكة، من لجوئه إلى "**مصر الناصرية**" في أوائل الستينات هو وآخرين، وإطلاقهم لإذاعة موجهة من القاهرة تحت اسم "**الأمراء الأحرار**"، ومعادية للأسرة في عهد الملكين **سعود** ثم **فيصل**... ورغم أن ذلك كان منذ عشرين سنة، ومرت مياه كثيرة تحت الجسور، وغفرت الأسرة لهذا "الأمير العاق"، وسمحت له بالعودة إلى السعودية، إلا أنه ظل في "**القائمة الرمادية**" للأسرة المالكة، يتعاملون معه بأدب، ولكن بحذر. ونصحني **بندر** بنفس الشيء في معاملة مهذبة، ولكن حذرة مع ابن عمه **طلال!**

المجلس العربي للطفولة والتنمية

وافقت بعد إلحاح أن أقوم بتنظيم مؤتمر تأسيسي في عمان، يعلن في ختامه ولادة منظمة جديدة، تحت اسم "**المجلس العربي للطفولة والتنمية**"، وأن يكون "**منتدى الفكر العربي**" هو الهيئة الداعية والمضيفة.

وتكونت لجنة تحضيرية للمؤتمر، لصياغة لائحة نظام أساسي للمجلس، وجدول أعمال للمؤتمر، وأوراقه البحثية، والمرشحين لكتابة هذه الأوراق... وقائمة المدعوين للمؤتمر ولعضوية المجلس. وكانت اللجنة تضم (إلى جانبي) **د.حسن الإبراهيم**، و**د.سعاد الصباح** (الكويت)، و**د.فريدة العلاقي** (ليبيا)، و**د.الطاهر لبيب** (تونس)، و**د.حامد عمار** (مصر). وكان الأمير **طلال** يحضر اجتماعات اللجنة كلما استطاع، وفي كل الأحوال ظل على اتصال يومي بأعضائها... وكانت **فريدة العلاقي** صوته وشبحه وسفيرته في اللجنة.

ومن معرفتي بعمل اللجان والمؤتمرات... كان وجود مسودات مكتوبة لكل بنود الأجندة، يسهل النقاش والاتفاق... ومن خبرتي أيضاً عرفت أن معظم العرب، حتى المفكرين منهم، **يهوون الكلام أكثر من الكتابة**، وخاصة حينما يأتي الأمر لمشروعات إعلانات ولوائح وقواعد، وكنت قد تعلمت ذلك منذ سنوات التنظيمات الطلابية في الولايات المتحدة قبل عشرين عاماً. وكان

أسامه الباز معلماً في هذا الصدد... فقد كان يترك هواة الكلام يشبعون نهمهم شفوياً، ويختلي جانباً، ثم يفاجئ زملاءه بمسودة مكتوبة بخطه الجميل... ويدخل هواة الكلام عليها تعديلات هنا أو هناك، ولكن يبقى أكثر من تسعين في المئة من المكتوب... وقد فعلت ذلك ونحن نؤسس المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ومركز دراسات الوحدة العربية، ومنتدى الفكر العربي، لذلك حرصت قبل كل اجتماع من اجتماعات اللجنة التحضيرية أن يكون هناك نص مكتوب، يتم التداول على أساسه.

كانت النقاط التي أخذت جانباً كبيراً من النقاش، هي **مقر المجلس، وطريقة انتخاب مجلس الأمناء، ومهام وسلطات الرئيس، ونوابه، والأمين العام.** كنت أنا شخصياً من أنصار أن يكون المقر في عمّان، حيث اكتشفت سهولة العمل فيها، وحرص الأمير **الحسن** على ذلك، وبالتالي استعداد الحكومة الأردنية أن تمنح المجلس مزايا المؤسسات الدولية الإقليمية. كان الأمير **طلال** أكثر ميلاً إلى أن يكون المقر في القاهرة، وهو ما لم أتحمس له، وذلك لمعرفتي بالتعقيدات البيروقراطية. وكانت تجربة رفض الحكومة المصرية لتسجيل **المنظمة العربية لحقوق الإنسان،** ما زالت ماثلة أمامي... وكان ثلاثة من أعضاء اللجنة التحضيرية يعلمون ذلك تماماً بسبب عضويتهم في المنظمة العربية لحقوق الإنسان ـ وهم **حسن الإبراهيم،** و**سعاد الصباح،** و**د.الطاهر لبيب،** لم أتحمس للقاهرة، ولكني لم أعارض.

اتضح أن الأمير **طلال** كان في ذهنه إشراك السيدة **سوزان مبارك** في مشروع المجلس لمعرفته باهتمامها بالقضايا الاجتماعية... واختلى بي جانباً ليعبر عن هذه الرغبة. سألته إن كان قد فاتحها في الأمر، فاتضح أنه لا يعرفها شخصياً، ولم يقابلها أبداً إلى حينه. ومع ذلك فاجأني بأنه يعول عليّ لأن أقوم بإقناعها... ووجدت أنه علم من مصادره أن **سوزان مبارك** كانت تلميذتي... وأنها لن ترد لي طلباً... وخاصة حينما يتعلق الطلب بالأطفال العرب.... تضايقت قليلاً لهذا العبء الأدبي الإضافي، الذي لم أكن متأكداً من إمكانية تحقيقه... استأذنت على الفور من اجتماع اللجنة التحضيرية في قاعة اجتماعات المنتدى المجاورة لمكتبي وأجريت اتصالاً بالسيدة **سوزان مبارك** في منزلها بالقاهرة ـ ورد علي سكرتيرها الخاص العقيد **بدر،** الذي أوصلني بها... ولم أكن قد رأيتها أو تحدثت إليها منذ سنتين تقريباً... ورحبت كالعادة برقة ومودة... وحكيت لها ما نحن بصدده، وعما إذا كانت مستعدة للمشاركة... وذكرت أسماء بعض المؤسسين وعلى رأسهم **طلال،** و**الحسن،** والأميرة **بسمة،** و**د.سعاد الصباح**... سألت من غيري من مصر يشارك في هذه المبادرة، ذكرت

أسماء **حامد عمار وإسماعيل صبري عبد الله**، وسألتها إن كان لديها أسماء مصرية تقترح دعوتها، فاقترحت **د.آمال عثمان** (وزيرة الشؤون الاجتماعية)، و**د.ممدوح جبر** (وزير الصحة السابق)، و**د.ممدوح البلتاجي** رئيس هيئة الاستعلامات، و**د.سمير سرحان**، و**د.حسين كامل بهاء الدين** (مدير مستشفى أطفال أبو الريش) و**د.محمود الشريف** (أخصائي السرطان). وسعدت بهذه الترشيحات، أولاً لأن المبادرة كانت محل اهتمام، وثانياً لأنهم جميعاً باستثناء **د.آمال عثمان** من معارفي أو أصدقائي وكان بعضهم زملاء في مبادرة "**منتدى الفكر الديموقراطي**" في أوائل الثمانينات... واختتمنا المكالمة الطويلة بأنها سترد علي خلال يوم أو يومين على الأكثر: فأضفت من عندي "أن هذا العمل الأهلي الاجتماعي... سيكون متمماً لما تم هنا، منذ فترة، من عودة رسمية لمصر إلى الصف العربي... وأعجبتها هذه الملاحظة... فقالت بتلقائية "**هل تعلم أنني لم أزر أي بلد عربي إلى الآن؟**" قلت، إذن هذه هي المناسبة المثلى ... بعد ساعتين اتصلت **سوزان مبارك** تعلن الموافقة، وتطلب التفاصيل.

وحين أخبرت أعضاء اللجنة المصرية بموافقة **سوزان مبارك** على المشاركة في المجلس وحضور المؤتمر التأسيسي... واقترحت أسماء الأعضاء... والتفت **حسن الإبراهيم** للأمير **طلال**، قائلاً "هل صدقت أن كل ما يمسه **سعد الدين إبراهيم** يتحول ذهباً؟"!!.

وغيرت هذه المعلومة الجديدة جو المداولات في اللجنة التحضيرية... فانتهى الأعضاء من مناقشة النظام الأساسي على عجل... وانتقلوا لبند قائمة المدعوين... قلت أن عدد المدعوين يتحدد باعتبارات حجم قائمة المؤتمرات الدولية في عمان، وهو ثلاثمئة، والميزانية وهي غير معلومة، ومواصفات المشاركين في ضوء أهداف المجلس.

تكلم الأمير **طلال**، وشكرني مرة أخرى على اتصالي بسيدة مصر الأولى، وقال: في ضوء هذه الخطوة المباركة، فإنه سيتكفل بكل نفقات المؤتمر ـ سفراً، وإقامة، وسكرتارية.

وتبارى الحاضرون في ترشيح أسماء شخصيات عربية مرموقة من بلدانهم أو بلدان أخرى... ودعونا ثلاثمئة شخصية، لم يعتذر أو يتخلف منها أحد. كانت **سوزان مبارك** والملكة **نور حسين**، والأميرة **ثروت**، والأميرة **بسمة**، والشيخة **سعاد الصباح** هن نجمات المؤتمر التأسيسي من السيدات وكان الأمير **الحسن** (ولي العهد) والأمير **طلال بن عبد العزيز**، والرئيس السوداني السابق **سوار الذهب**، نجوم المؤتمر من الرجال. أما الوزراء الحاليون والسابقون، فحدث ولا حرج.

كان المؤتمر **مظاهرة إعلامية عربية غير مسبوقة على هذا النحو**... حتى مؤتمرات القمة العربية - ربما بسبب "رسميتها" والقيود الأمنية المحيطة بها - لم تكن بهذه الحيوية أو بهذا التفاؤل... فالطفولة هي المستقبل... وكان حاضر العرب كئيباً... فتطلّع الناس من خلال المؤتمر إلى المستقبل من خلال الطفولة.

كانت الجلسة الختامية بما كان يدور خلف الكواليس. في الليلة السابقة مُرهقاً لي. اجتمعت مع السيدة **سوزان** ... ونقلت لها رغبة معظم المشاركين في ترشيحها نائباً لرئيس المجلس، الذي سيرشح له الأمير **طلال**... هزت رأسها بالموافقة دون تعليق، ولكنها سألت عن أعضاء مجلس الأمناء الذين سيرشحون من مصر... قلت لها أنه طبقاً للنظام الأساسي لا يجوز أن يكون في المجلس أكثر من خمسة من أي قطر عربي واحد... المجلس كله خمسة وعشرون... المشكلة أن عشرة مصريين يريدون ترشيح أنفسهم... فإذا حدث ذلك فإن الأصوات ستتفتت بينهم، وقد لا ينجح منهم أحد لأن النظام الأساسي لا يحدد حصة لكل قطر عربي، ولكن فقط يحدد مسبقاً الحد الأقصى. سألت من هم المصريون الذين يريدون ترشيح أنفسهم... ذكرت لها أسماءهم... فقالت كلهم ناس كويسين... لماذا لا تجمعهم وتنسق بينهم بمساعدة صديقك **د.أسامه الباز؟**.

دعوت المرشحين المصريين العشرة لاجتماع بجناحي في الفندق في العاشرة مساءً، وشرح لهم **أسامه الباز** قواعد النظام الأساسي للمجلس، الذي ستجرى الانتخابات على أساسه، وقال بما أن السيدة الأولى ستكون مرشحة، فلا ينبغي، تأدباً واحتراماً، أن يزيد عدد المرشحين المصريين عن أربعة آخرين، إن لم يكن أقل... وتمنى أن ينسحب ستة من المرشحين، وفتح باب النقاش، وبما أنني كنت مضيف المؤتمر، ومضيف الاجتماع، فقد آثرت المتابعة في صمت... ومع كل ساعة تمضي، كنت أتوقع أن يبادر البعض بالانسحاب... وكنت أترك الاجتماع بين الحين والآخر لتصريف بعض الأمور التنظيمية الخاصة بالمؤتمر والمشاركين... فقد كان البعض ما زال يصل من بلاده حتى اليوم قبل الأخير للمؤتمر - مثل المشاركين من موريتانيا. وكنت بمجرد الخروج من الاجتماع يتبعني بعض المرشحين ليسألني عمن تريدهم السيدة الأولى معها من المصريين في مجلس الأمناء... وحينما كنت أقول الحقيقة، كما لمستها فيها، لم يكن معظمهم يصدق إجابتي... فيكرر السؤال بشكل غير مباشر أو يستحلفني، بحكم الصداقة القديمة أو الزمالة، أن أخبره بما يمكن أن أكون قد استشفيته منها!.

تجاوزت الساعة الثانية صباحاً، ولا أحد يريد أن يتنازل... وترك **أسامة** الاجتماع لكي ينام... وأعلنت أنا بدوري رغبتي في النوم... وقلت " ما دمتم لم تستطيعوا الاتفاق، فلنترك للمؤتمر مهمة الاختيار، ولا يهم أن يكون في مجلس الأمناء مصريون آخرون، ما دامت السيدة الأولى ستكون موجودة... ففيها الكفاية وزيادة". وسأل أحدهم، وهو وزير سابق، "ومن في رأيك منا نحن العشرة يصلح لكي يشد أزرها في مجلس الأمناء؟" واعتقد الرجل أنه بذلك يجبرني على البوح بما يمكن أن تكون السيدة الأولى قد أشارت أو لمحت لي به، فقلت في ضيق، بما أنكم جميعاً تصلحون لشد أزرها فلدي اقتراح، وهو أن نجري قرعة، نضع الأسماء العشرة في إناء، ونسحب منه أربعة أسماء... واستراح البعض للاقتراح، وقبله آخرون على مضض... وللتاريخ... من لم يكونوا وزراء سابقين في هذه المجموعة المصرية، أصبحوا وزراء لاحقين، باستثناء **د.سمير سرحان**، الذي ظل ينتظر، إلى أن وافته المنية.

وكشفت لي هذه التجربة **تهافت الشخصيات العامة المصرية على التمسح برموز السلطة... وبشكل يخلو من أي كرامة**... كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مثالاً حياً للشخصية الكاريكاتيرية التي أبدعها الكاتب الساخر **أحمد رجب** والرسام المبدع **مصطفى حسين**، وهي شخصية "**عبده مشتاق**"! فرغم الاتفاق على إجراء القرعة، إلا أن بعض وليس كل من لم تصبهم القرعة، أصروا على الترشيح في اليوم التالي... وتذكرت ممارسات الحزب الوطني في مصر... وكيف يرشح من لم يرشحهم الحزب أنفسهم كمستقلين... فإذا فازوا سارع الحزب بإعادة ضمهم لصفوفه.

خلاف هاشمي . سعودي . مصري

أثناء إقرار النظام الأساسي للمجلس، توقف المؤتمر طويلاً، حول المادة الخاصة بالمقر... وتحدث الأمير **طلال**، وبعد أن أشاد بالأردن ملكاً وشعباً لكرمه واستضافته للمؤتمر، وبعد أن خص بالشكر الأمير **الحسن** ولي العهد، ورئيس منتدى الفكر العربي، الذي نظم المؤتمر كأحسن ما يكون التنظيم، اقترح أن يكون مقر المجلس حيث يتركز معظم أطفال الأمة العربية، أي في مصر الشقيقة... وضجت القاعة بالتصفيق، على الأقل تصفيق المصريين، وقد كانوا حوالي ربع المشاركين... ولكي يحظى اقتراحه بالموافقة، اقترح **طلال** أن يكون هناك مكتب اتصال دائم للمجلس في كل من عمان وتونس... وتم قبول الاقتراح بأغلبية كبيرة.

ورغم أنني لم أرشح نفسي لمجلس الأمناء، إلا أن أغلبية ساحقة صوتت لي، وهو ما يعد مخالفاً للنظام الأساسي، وكان ترتيبي الثاني في عدد الأصوات بعد الأمير **طلال** وقبل **سوزان مبارك**، التي جاء ترتيبها الرابع، بينما جاء اللواء **سوار الذهب**، الثالث في عدد الأصوات، وجاء **د.ممدوح جبر** ضمن قائمة الفائزين الخمسة والعشرين... ولم يوفق بقية المصريين الآخرين الذي رشحوا أنفسهم، فقد كان عددهم كبيراً وتفتت الأصوات التي حصلوا عليها... ومع ذلك أصبح للمصريين ثلاثة أعضاء في مجلس الأمناء... ولو امتنعت أنا، كما حاولت لكان **سمير سرحان** هو المصري الثالث، حيث جاء ترتيبه السادس والعشرين في عدد الأصوات... وكان النظام الأساسي يقضي بأن يجتمع الأمناء المنتخبون، ويختاروا من بينهم رئيساً، ونواباً للرئيس، وأميناً عاماً، وأميناً للصندوق، ويكون هؤلاء هم هيئة المكتب، التي تنوب عن مجلس الأمناء بين دورات انعقاده، التي كانت ثلاث مرات سنوياً على الأقل، بينما كانت الجمعية العمومية تعقد مرة كل سنتين على الأقل.

تم اختتام المؤتمر بكلمات احتفالية متفائلة ... وانفض الجميع... وخلا مجلس الأمناء المنتخب إلى نفسه لكي يختار هيئة المكتب... وتعمدت أنا الاختفاء من قاعة المؤتمرات، بالتوجه إلى مقر المنتدى الذي ظللت غائباً عنه طوال أيام المؤتمر... اجتمع الأمناء، واختاروا كما كان متوقعاً الأمير **طلال** رئيساً، والسيدة **سوزان** واللواء **سوار الذهب**، نائبين للرئيس، و**د.سعاد الصباح** أمينة للصندوق... واختاروني في غيابي أميناً عاماً للمجلس... وأرسلوا يبحثون عني في كل مكان... إلى أن وجدوني... وقدمت احتجاجاً صادقا، واعتذاراً مخلصاً عن قبول عضوية مجلس الأمناء ـ حيث أنني لم أكن مرشحاً، ولم أقدم طلباً مكتوباً بذلك كما كان يقضي النظام الأساسي... وبالتالي فلا يحق للأمناء اختياري، ولا يحق لي قبول موقع الأمين العام. هذا من ناحية الشكل... أما من ناحية الموضوع، فإنني مُثقل بمهام الأمين العام لمنتدى الفكر العربي، والتزاماتي في الجامعة الأمريكية، حيث أن هذه الأخيرة لم توافق على منحي إجازة دراسية للسنة الثالثة، حتى مع رجاء الأمير **الحسن**... وأخيراً أن موضوع الطفولة مع أهميته القصوى، ليس مجال اهتمامي الأول أو اختصاصي في هذه المرحلة من حياتي... وإنني أعتبر تنظيم المؤتمر، وإقرار النظام الأساسي، وانتخاب مجلس الأمناء هو نهاية لما وعدت والتزمت به مع سمو الأمير **طلال** واللجنة التحضيرية...

لم تجد احتجاجاتي أو اعتذاراتي أو أعذاري أي قبول... كان هناك إصرار على أن أشغل هذا الموقع، ليس من الأمير **طلال** فحسب، ولكن من بقية

الأعضاء، الذين تحدثوا في الاجتماع... وكانت آخرهم السيدة **سوزان مبارك،** والتي عرضت أن تتوسط لدى رئيس الجامعة الأمريكية لمنحي إجازة دراسية لمدة عام إضافي... وبعد جدل طويل تعلقت بخيط العام الإضافي الذي اقترحته السيدة الأولى... فقلت، أنني مستعد لقبول هذا التكليف إلى أن تتم المرحلة التأسيسية للمجلس الجديد: اختيار مقر، وإعداد الأنظمة الداخلية، وصياغة برنامج عمل، وتعيين هيئة الأمانة العامة، وبعدها أترك هذا الموقع... وقال الأمناء بصوت واحد موافقون... ثم طلبت تسجيل طلب إضافي في محضر الاجتماع... وهو أنني سأقوم بمهمة الأمين العام متطوعاً، حيث أنني أتلقى بالفعل مكافأة مجزية من منتدى الفكر العربي، وما زلت ملتزماً بالعمل به ما تبقى من هذا العام، وكنا في شهر أبريل... أي للشهور الثماني الباقية... وحاول الأمير **طلال** أن يجد حلاً يضيف من خلاله مكافأة مالية... مثل بدل السفر والتمثيل، وليس كراتب، ولكني كنت قاطعاً... فوافق المجلس.

كان هناك سبب إضافي لتمنعي عن قبول موقع أمين عام المجلس العربي للطفولة والتنمية، ولم أذكره في الاجتماع. كان ذلك هو تصاعد التوتر المكبوت بين الأميرين **الحسن** و**طلال**... ووصل هذا التوتر المكتوم إلى الانفجار، حينما أقر الاجتماع التأسيسي جعل القاهرة مقراً للمجلس... لم يكن الأمير **الحسن** في قاعة الاجتماع في ذلك الوقت... ولكن كان هناك من ينقل إليه الوقائع أولاً بأول... وجاء من يستدعيني من قاعة الاجتماع لأخذ مكالمة هاتفية من سمو ولي العهد (**سعد بن حسن**) كما كان يلقبه مساعدوه والأردنيون عموماً. وفي اللحظة التي نطقت فيها "نعم" انفجر بركان غضب الأمير، كما لم أخبره من قبل، ومنذ معرفتي به قبل ستة سنوات... وأذهلني هذا الانفجار عن أن أرد على الأمير الغاضب الذي اتهمني بالتآمر مع **طلال** (هكذا بدون لقب) ضد الأردن... وأن فطرتي وشرقيتي المصرية تواطأت مع السعوديين مرة أخرى ضد الهاشميين... وكأنه طُعن في ظهره... وأننا أحرجناه أمام جلالة الملك **حسين،** الذي أخبره أن المجلس سيتخذ من عمان مقراً... وأنني تنكرت لجميل الأردن... الذي بذل جهوداً جبارة لعودة مصر إلى الصف العربي... و... و... و... " كنت أستمع ولا أدري ماذا أقول للأمير المكلوم... كل هذا بسبب موضوع المقر؟ بين الذهول وعدم التصديق عقدت لساني إلى أن أفرغ الأمير كل شحنات غضبه... ولاحظ الرجل طول صمتي... خاصة أنه فرغ من معظم ما كان يريد التعبير عنه... فتساءل غاضباً: "أليس لديك ما تقوله ؟"... قلت له "ليس لدي ما أقوله غير التعهد بالتخلص من شرقيتي المصرية، والكف عن التآمر مع السعوديين ضد الهاشميين، وأرجو أن يوفقني الله في ذلك!".

لم يعلق الأمير على الفور ... ثوان من الصمت... ويبدو أن الرجل لم يكن يدري هل كنت جاداً أم ساخراً... فتساءل بالإنجليزية "ماذا أعني تحديداً؟ " what do you mean exactly " أعدت ما قلته، وبلا أي زيادات تمكنه من الجزم بما إذا كنت جاداً أو ساخراً... وأحسست فجأة أنني استعدت التحكم في الموقف... فسألني "وماذا بعد ؟"، قلت بنبرة هادئة "أنني أفكر جدياً في مقاطعة كل الأمراء والأميرات العرب والعربيات"، استعاد أسلوبه الاحترافي، "وما ذنب الأميرات ؟"، قلت "أنهن أيضاً غيورات... بل وأشد غيرة من الأمراء العرب...". قال "هل هذا ما تظنه بي... أنا أغار من **طلال**؟" أجبته "أنا لم أقل ذلك يا سمو الأمير... أنت الذي قلت"، فختم المحادثة العجيبة بقوله "إن محادثتنا الهاتفية تدهورت بسرعة إلى الحضيض... مع السلامة"، وأنهى المُكالمة في غضب!

حينما عدت إلى القاعة، لاحظ الأمير **طلال** أن وجهي ليس طيباً... وتساءل بإشارة من يديه مفادها "ماذا بك...؟" فابتسمت ابتسامة باهتة ... وتغير وجهه... ولا بد أنه ظل يضرب أخماساً في أسداس إلى أول استراحة... فجذبني من يدي، وعلامات القلق على وجهه، وسأل "هناك شيء حدث... ما هو يا دكتور؟" قلت "هل تذكر خلافي معك حول المادة الخاصة بمقر المجلس ؟" قال "نعم... ولكننا حسمناها بطريقة ديمقراطية... ألست داعية الديموقراطية رقم واحد في العالم العربي؟ فلماذا ظل ذلك يضايقك؟ قلت له "إن الأمير **الحسن** يظن أن السعوديين والمصريين، تآمروا معاً ضد الأردن... وأنني تواطأت مع سموك فيما يتعلق بهذه المسألة". قال الأمير السعودي "فعلاً ياما في الحبس مظاليم". إنني سأذهب للأمير **الحسن** فوراً لأخبره بالحقيقة... واختفى **طلال** فعلاً لحوالي الساعة ... تلقيت في أثنائها مكالمة ثانية من **الحسن**، يعتذر لي فيها عما بدر منه... وسمعت صوت **طلال** يقول "**أنا المسؤول إنها بدويتي... أنا بدوي مندفع!**".

في مساء نفس اليوم تناول ثلاثتنا العشاء سوياً على مائدة الأمير **طلال**... وعلى طريقة الرؤساء العرب تباوسنا، وكأن شيئاً لم يكن! ولكن التجربة كانت مليئة بالدروس.

رومنسيات على هامش المؤتمر

رغم الازدحام والانشغال، والتنافس والصراع حول قضايا موضوعية ومسائل فنية، والتسابق الظاهر والخفي حول عضوية مجلس الأمناء والأجندة المستقبلية للمجلس العربي للطفولة والتنمية... إلا أن ذلك لم يمنع احتدام معارك نسائية

أنثوية رومانسية على مستوى أو مستويات أخرى... وتشابكت وتداخلت عدة أطراف كويتية ومغربية ولبنانية وليبية... كن جميعاً جميلات، ذكيات، متحدثات لبقات بالنهار في قاعة المؤتمر، وعابثات متوحشات في غرف وأجنحة الفندق بالليل... كان هناك على الأقل خمس إناث يتحلقن حول ثلاثة رجال من نجوم المؤتمر... منهم الشاعر **نزار قباني**، رحمه الله، والعبد لله، ولأن بعضهن كن متزوجات وأكثر تحفظاً، ولكن ليس أقل رغبة... فقد كن يتعمدن ألا يتركن اللقاء في أي غرفة أو جناح إلا بعد أن تترك الأقل تحفظاً، حدث ذلك في الليلة الأولى، ولكن مع الليلة الثالثة أصبحن جميعاً أكثر تحرراً فكن يشربن ويرقصن... وتطلب كل منهن أن يساعدها أحد الزملاء في الوصول إلى غرفتها أو جناحها.

ولكن الذي ضاعف هذا المشهد تعقيداً أن بعضهن اندمجن اندماجاً غير محمود العواقب مع نهاية المؤتمر. واستمرت ذيول ذلك مع بعضهن وبعضهم لعدة شهور، أو عدة سنوات بعد المؤتمر وهكذا لم يكن المؤتمر "**طفولياً بريئاً**" على طول الخط... ولم يكن كله لوجه الله تماماً... لقد تخللته بعض "**المدنسات**"... وهكذا طبائع البشر، والنزوات الإنسانية، حتى بين أكثر الناس صدقاً في النوايا، وتفانياً في خدمة المصالح العامة!.

حينما ودعنا آخر ضيوف المؤتمر... خلوت إلى نفسي لمدة أربع وعشرين ساعة، أستجم فيها... وأتأمل تجربة هذه المغامرة... كان المجلس هو أحد النجاحات التي أشار لها الكثيرون بانبهار... وكان ذلك يعتبر الإنجاز الثاني للمنتدى في ظل قيادتي، بعد إنجاز عودة مصر... ولم يكن لدي أي وهم في مقومات ومدخلات كل إنجاز... لقد كانت العناصر كلها موجودة، والأرض حبلى... وكل ما فعلته من خلال المنتدى هو ما تفعله "القابلة"، التي تقوم بعملية التوليد!.

بناء المجلس العربي للطفولة

بعد أسبوع من انفضاض المؤتمر التأسيسي، تركت عمّان إلى القاهرة، وفي ذهني البحث عن مقر جديد للمجلس الجديد، واختيار مساعد أو مساعدة ليكون ضابط اتصال ويداً يمنى لي في القاهرة... واتجه نظري بطبيعة الحال إلى مساعدتي الرقيقة الجميلة **نعمت**. فقد كانت صاحبة خبرة في إنشاء مقري كل من مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة، ثم المنظمة العربية لحقوق الإنسان... كان لديها الكفاءة والذوق الرفيع، والنزاهة، والتفاني... وكانت عملية البحث عن مكان، ثم تجهيزه، ثم تأثيثه، ثم اختيار العاملين فيه، أشبه بإعداد منزل أو عش

للزوجية... وكان ذلك متعة مشتركة متسامية تعويضية لما كان واضحاً أننا لن نستطيع تحقيقه في الواقع.

ولكن **نعمت** اعتذرت، وبشكل قاطع لا يقبل التفاوض أو المراجعة... كانت في أعماقها لا تحمل كثير احترام للأمراء أو الأميرات العربيات... وكانت تعتبر معظم ما يقومون به من باب "الوجاهة" و "التظاهر" أكثر منه "أيماناً واقتناعاً"... في البداية كنت أعتبر هذا غيرة أنوثية من **سعاد الصباح**... ولكن الأمر تكرر، وبعنف تجاه الأمير **طلال**... ورشحت هي صديقتها، وخليفتها كمساعدة سابقة لي، والمساعدة الحالية للأستاذ **محمد حسنين هيكل**، **مايسة الجمل**. وبالفعل قبلت **مايسة** هذه المهمة كمتطوعة... وكانت تحضر اجتماعات المكتب التنفيذي، الذي يضم الرئيس ونائبه والأمين العام وأمين الصندوق، ومن يوجد من مجلس الأمناء في البلد الذي يوجد فيه الاجتماع.

وبعد معاينة عدة مواقع، استقر الرأي على فيلا مهجورة في ميدان المساحة بالدقي، وقرب شارع رشدان، الذي يوجد به مركز دراسات الوحدة العربية، الذي كانت **نعمت** قد ساعدتني في إنشائه وتجهيزه في أوائل الثمانينات، والذي تولى إدارته بعدي **د.نادر فرجاني**، عالم الإحصاء القدير. كان المبنى هو المقر السابق لمنظمة العمل العربية، أحد المنظمات المتخصصة... وظل المبنى خالياً مهملاً، دون صيانة، لحوالي السنوات العشر الأخيرة... نقبت **مايسة** إلى أن عرفت أن هناك حارساً قانونياً على ممتلكات وأموال الجامعة العربية في القاهرة، وكان والدها **د.يحي الجمل** ـ محامياً للجامعة العربية، ينوب عن أمانتها العامة التي انتقلت إلى تونس، تجاه الحكومة المصرية، والحارس الذي عينته هذه الأخيرة... وحينما رأى الأمير **طلال** المبنى تحمس له رغم حالة الإهمال التي كان عليها، ووافق مع **مايسة** على الفور على إجراءات صيانة وتعديلات بسيطة، وطلاء من الخارج، يجعل منه، ومن الميدان الفسيح الذي يطل عليه موقعاً من الدرجة الأولى، وأعطينا **لمايسة** إشارة البدء، بعد أن سهلت لنا رئاسة الجمهورية اتفاقاً مكتوباً مع الحارس القانوني يتيح لنا استخدام المبنى لخمس سنوات، قابلة للتجديد، أو إلى أن تعود منظمة العمل العربية إلى القاهرة.

في خلال ثلاثة شهور كان للمجلس العربي للطفولة، مقر مبهر، ورغم أن المسطح القابل للاستخدام كمكاتب وغرف اجتماعات لم يتجاوز خمسمئة متر مربع، إلا أن الفيلا ذات الطوابق الثلاثة كانت جميلة معمارياً من ذلك الطراز الذي شيد في العشرينات، وكانت تحيط بها حديقة كبيرة، حوالي ألف متر مربع، تصلح لحفلات الاستقبال ، واستعانت **مايسة** بخبرة والدتها (إبنة أحد باشوات ما قبل ثورة يوليو) هاوية الديكور، وذات الذوق الرفيع... لذلك حينما عقد الأمناء

أول اجتماع لهم بالمقر الجديد، لم يصدقوا سرعة وجمال الإنجاز... وردد **حسن الإبراهيم** عبارته الأثيرة للأمير وللأمناء "ألم أقل لكم أن **سعد الدين** إذا وضع يده في شئ، تحول إلى ذهباً! ؟"... ولكني حرصت على أن أنسب الفضل لذويه... فأشدت بمجهود ومبادرات وذوق **مايسة الجمل** الرفيع... وتنبهت لها السيدة **سوزان مبارك!**.

كذلك انبهر الأمناء بمشروعات اللوائح والأنظمة التي أعددناها للمجلس... وببرنامج النشاط المقترح، والذي كان عماده في السنة الأولى تشجيع ومساعدة الأقطار العربية على استحداث مجالس وطنية (قطرية) للطفولة، وتشجيع قيام جمعيات أهلية لرعاية وتنمية الطفولة في كل بلد، بحيث يتكامل الشق الحكومي ـ المجلس الوطني ـ مع الشق الأهلي. وأعددنا تصورات مبدئية لهيكل المجلس الوطني المقترح، والذي يضم كل وزراء الخدمات (الصحة، والتعليم، والشؤون الاجتماعية، والشباب)، ويرأسه رئيس الوزراء، أو رئيس الجمهورية، أو السيدة الأولى في كل بلد، وأن يضم كل مجلس وطني أيضاً عدداً من الشخصيات العامة المعنية بشؤون الطفولة، ومنها بالطبع قيادات العمل الاجتماعي الأهلي.

أما الشق الأهلي في برنامج النشاط المقترح، فقد كان هو الأكثر تفصيلاً وإثارة. أولاً، لأنه جزء لا يتجزأ من إنعاش ودعم المجتمع المدني، وبشكل لا تشعر معه الحكومات أو أجهزتها الأمنية بالتهديد... فمن ذا الذي سيربط بين جمعيات لرعاية الطفولة وأي هدف سياسي؟ ولكني كنت أنطلق بين معلومة شائعة في العلوم الاجتماعية هي أن من يبادرون وينضمون بإرادتهم الحرة في أي مجال، يتعودون ويتمرسون على نفس الشيء في مجالات أخرى.

حازت مسودة المسودات بالقبول والموافقة مع تعديلات هنا وهناك... تم إدخالها على الصياغة النهائية، وأرسلت للأمناء، ولأعضاء الجمعية التأسيسية لمزيد من ردود الفعل. ولم تَرُق الخطوة الأخيرة للأمير **طلال**... الذي كان أميناً للاقتصاد برأي هيئة المكتب، على أساس أنها تنوب عن الأمناء، وعن الجمعية العمومية، وهو أمر صحيح قانونياً... ولكن فلسفتي في العمل كانت تتلخص في كوننا بصدد خلق وتفعيل حركة المجتمع المدني، وأساسها تنظيم المشاركة كلما كان ذلك ممكناً.

مر علي في القاهرة للمرة الثانية في خلال شهور قليلة الأمير بندر، ابن عم الأمير **طلال**... ولم يغب عني أن تلك لا يمكن أن تكون مصادفة محضة. وصارحت الأمير بندر الصديق وزميل الدراسة... واعترف بدوره أنها ليست مصادفة، وأن هناك قلقاً في الأسرة "المملكة" بسبب الحجم المتزايد الذي طرأ على الأمير **طلال** في الشهور الأخيرة... والذي يعزونه إلى دوري الذي يعطيه

شرعية بين المثقفين العرب. استغربت لهذا الكلام، الذي ينطوي على مبالغات من ناحية، وهواجس عائلية سعودية لا دخل لي فيها من ناحية أخرى. ولطمأنة صديقي زميل الدراسة، قلت لبندر أن التزامي للأمير **طلال** ولأمناء المجلس العربي للطفولة والتنمية أوشك على الانتهاء خلال عدة أسابيع في كل الأحوال... وبدت علامات الارتياح على وجه الأمير بندر، كما لو كنت قد أعطيته ما يمكن أن يعتبره نجاحاً لمهمته التحذيرية في القاهرة! وكما لو أراد أن يرد الجميل، سألني بشئ من الدهاء "كم مضى على معرفتك بالأمير **طلال؟**، أجبت أنها تجاوزت السنة وقاربت السنتين... سأل هل حدثك طلال عن طفولته؟ هل حدثك عن أطفاله... وأنتما تعملان معاً في حقل الطفولة؟. وكانت الحقيقة أن ذلك لم يحدث... وسألت بندر لماذا هذه الإيحاءات؟ ماذا تقصد بها؟ واكتفى هو بسؤال "لماذا لا تحاول أن تعرف من **طلال** مباشرة؟".

لم أسأل الأمير **طلال**... ولكني سألت مساعدته الوفية **د.فريدة**... إحمر وجهها... وحاولت تغيير الموضوع... وتركتها دون ضغط أو إلحاح إلى فرصة أخرى... وجاءت الفرصة... وعلمت منها أنه على علاقة سيئة جداً مع أطفاله... وأنهم لا يتحدثون معه... وبنته الكبرى خرجت عن طوعه وتزوجت أمريكي، وتعيش في الولايات المتحدة. أما إبنه "الوليد" فقد انحاز لأمه المطلقة، واستقل تماماً في عمله، وأصبح رجل أعمال ناجح، تجاوزت ثروته ثروة أبيه الأمير **طلال**!.

علمت أيضاً أن **طلال** كان الإبن الوحيد لأصغر وأجمل زوجات، الملك **عبد العزيز**... ولأنها كانت محظية فقد أغدق عليها الملك ذهباً كثيراً، ورثه **طلال** عن والدته فيما بعد، فأصبح أكثر اخوته ثراء... باختصار، أجمع ما توفر لدي من معلومات أن **طلال** كان الطفل المدلل، لأنه وحيد أمه، ومن أبيه لأنه أبن الزوجة المحظية... وهذا ما يفسر تعيين **طلال** وزيراً في الحكومة، في حياة أبيه، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره وكان بذلك أصغر وزير في تاريخ المملكة العربية السعودية، وربما في التاريخ العربي الحديث كله... وهو الأمر الذي لم يتكرر بعد وفاة أبيه الملك **عبد العزيز**... وظن **طلال** أن اخوته (غير الأشقاء) يحقدون عليه، ويتآمرون ضده ـ بسبب ثرائه، وطوله وعرضه، ووسامته، ولأنه كان الإبن الأثير لدى والده... وحين زاد شعوره بالاضطهاد من إخوته، فر من السعودية، ولجأ إلى مصر، وعدد صغير من الأمراء الشباب الذين شعروا مثله بالاضطهاد، وأطلقوا على أنفسهم اسم "الأمراء الأحرار"، تشبهاً "بالضباط الأحرار". رحب بهم **عبد الناصر**، واستخدمهم في حربه الباردة ضد الأسرة السعودية المالكة ـ من أواخر الخمسينات إلى هزيمة ١٩٦٧.

لم تغير هذه المعلومات الكاشفة من تقديري لما كان الأمير **طلال** يحاول أن يفعله من أجل الأطفال العرب... ولكن هذه المعلومات ساعدتني على تفسير بعض سلوكيات الأمير: مثل حساسيته الشديدة للنقد، وولعه الجنوني بالإعلام والدعاية، وغيرته الشديدة من تسليط الأضواء على غيره، وخاصة من الأمراء، مثل الأمير الحسن و**د.سعاد الصباح**. كما امتدت هذه الغيرة إلى علاقتي بهما.

لذلك ما أن انتهيت من إعداد ما وعدت به المجلس العربي للطفولة والتنمية، قدمت استقالتي... وحاول الرجل مباشرة، ومن خلال السيدة الأولى أن يثنيني عن الاستقالة، بعروض مالية مذهلة (عشرين ألف دولار شهرياً بدلاً من الستة آلاف التي كانت راتبي في ذلك الوقت، سواء من الجامعة أو من المنتدى). وكنت أشعر بالإهانة لنفسي من ناحية والإشفاق على الأمير المدلل من ناحية أخرى. وظل الرجل لا يتحدث معي لعدة سنوات... لقد اعتبر استقالتي، كما لو كانت هجراً أو طلاقاً له، وتفضيل مني **للحسن** أو **سعاد** عليه. ولكنه كان شهر عسل قصير تعلمت منه الكثير عن الأسر المالكة العربية!.

حياة الأسرة خلال سنوات عمان

في سنتي الأولى في عمان كنت أعود إلى القاهرة كل أسبوعين، لثلاثة أيام... كان ضغط العمل، وإرساء قواعد وتقاليد للمنتدى تستحوذ على قسط كبير من الطاقة والوقت. ومع انتظام المسيرة، وتدفق النشاط، بدأت أتردد على القاهرة بوتيرة أسبوعية... وساعد على ذلك اتفاقي مع الخطوط الجوية الملكية الأردنية على تخفيض ثمن بطاقات سفري إلى أي مكان في العالم إلى النصف... واتفاقي مع الفندق على عدم احتساب الليالي التي لا أبيت فيها في جناحي، رغم بقاء ملابسي وأغراضي فيه، حتى أثناء غيابي عن عمان. وكان سعر نصف بطاقة السفر إلى القاهرة يعادل تكلفة الليالي الثلاثة لإقامتي في الفندق.

كانت زوجتي تعمل في مؤسسة فورد بالقاهرة كمختصة برامج تنمية المرأة ومحاربة الفقر... كما كانت تقوم بالتدريس بعض الوقت في الجامعة الأمريكية، وذلك بعد حصولها على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة أنديانا عام ١٩٨٠... وكان عملها مشبعاً وممتعاً... وقد استحدثت فيه عدة تجارب لفتت الانتباه في فرع المؤسسة في القاهرة، كما في المقر الرئيسي في نيويورك. من ذلك تشجيع أصحاب المصانع على تكليف من يرغبن من النساء على القيام بالأعمال الوسيطة والثقيلة، بعد فترة تدريب تتولى فيها مؤسسة فورد دفع أجورهن، وكذلك تعويضاً سخياً لأصحاب المصانع مقابل برامج التدريب... ولكنها اشترطت على أصحاب المصانع دفع نفس الأجور على نفس العمل

للنساء، بعد ذلك... ورغم تردد وشك بعض أصحاب المصانع في التجربة، إلا أن النتيجة كانت نجاحاً مبهراً. كانت ملاحظة **بركة (باربارا)** أن النساء المصريات من الطبقات العاملة والفقيرة يقمن بأعباء منزلية ثقيلة طول الوقت... وبالتالي لن يكون القيام بأعمال مماثلة في مصنع وبتعويض مالي سخي، أمراً فوق طاقة معظمهن... وكان من أسباب نجاح التجربة ندرة العمالة الصناعية بسبب ارتفاع معدلات الهجرة إلى البلدان النفطية في أوائل الثمانينات، بدأت التجربة في صناعة الأخشاب والأثاث، ثم امتدت منها إلى صناعات أخرى.

كذلك من المبادرات اللافتة للاهتمام هي إقناع عدد من البنوك المصرية لإقراض الفقراء، بدون ضمانات... غير كلمة الشرف. واعتبر بعض مديري البنوك الاقتراح ضرباً من جنون سيدة أمريكية (لاسعة)، ولم يكن الأمر كذلك، فقد كانت هناك تجربة **راندا** في بنجلاديش، هي تجربة بنك الشعب أو بنك الفقراء ـ بنك جرامين، الذي لم يكن أحد في مصر قد سمع بها إلى ذلك الوقت (١٩٨٩)... من القلائل الذين تعاطفوا مع الفكرة **د.أحمد الجويلي** الذي كان محافظاً لدمياط في ذلك الوقت، فضم صوته لصوتها في إقناع أحد بنوك التنمية في محافظة دمياط للانخراط في التجربة، وكذلك أحد بنوك التنمية في محافظة المنيا ونظمت **بركة** رحلة ميدانية للعاملين في إدارات الائتمان في خمسة بنوك مصرية إلى بنجلاديش لمشاهدة كيفية عمل بنك جرامين على الطبيعة... وفي بنجلاديش قطع ثلاثة من موظفي هذه البنوك الرحلة وعادوا إلى القاهرة نتيجة ما لمسوه من فقر وتخلف في بنجلاديش، ولكن الآخرين ثابروا، ربما مجاملة أو خجلاً، من هذه السيدة الأمريكية المتحمسة والمعجبة بتجربة بنك جرامين، وبمؤسسة الدكتور **محمد يونس**. ونفذ بنكان من البنوك المصرية الخمسة تجربة مماثلة لبنك جرامين، وهو الإقراض بكلمة شرف للمقترضين الفقراء، وكانت النتائج بين فقراء مصر أكثر إبهاراً عنها في بنجلاديش، فبينما كانت معدلات سداد القروض في هذه الأخيرة ٩٢:٩٤ في المئة، فإذا بها تصل في المنيا إلى ٩٨ في المئة وفي دمياط إلى ٩٦ في المئة واتضح أن الفقراء أكثر حرصاً على سداد القروض من الطبقتين المتوسطة، العليا، التي لم تتجاوز معدلات سدادهم ٩٥ في المئة.

كنت أتابع مبادرات **بركة** بفخر وحماس... وتلاشت هواجسي حول المسيرة الدراسية **لراندا** و**أمير**، فقد كانت **بركة** غير سعيدة بمدرسة **أمير** في كلية النصر بالمعادي، القريبة من المنزل، فبرغم عراقة المدرسة، منذ نشأتها تحت اسم فيكتوريا كوليج، إلا أنها تدهورت تدريجيا بعد تأميمها منذ عام ١٩٥٦. وبدأت تجاري المدارس المصرية في الحفظ والاستظهار، وأهملت التفكير والابتكار. لم

يكن ذلك يزعجني أنا كثيراً، حيث كان جيدا في رأيي أن ينمو في بيئة مصرية خاصة، على أن نعوضه نحن في المنزل وفي المعسكرات الصيفية عما ينقصه في نظام التعليم المصري. وحاولت أنا و**د.جلال أمين** وزوجته **آن**، وكان أولادهم أيضاً في نفس المدرسة، أن نشجع مديرة المدرسة على تطوير أي أنشطة غير الصيفية (Extra activation) خاصة وأن بالمدرسة ملاعب شاسعة وحمام سباحة، ومسرح... وكانت كل هذه المرافق مهملة، وغير مستخدمة بالمرة. وقاومت من ناحيتي نقل **أمير** إلى المدرسة الأمريكية المجاورة، لأنها لم تكن تدرس اللغة العربية، ولكن القشة التي قصمت ظهر البعير، هي تأجير كلية النصر لملاعبها للكلية الأمريكية، التي لم تكفها ملاعبها. وهكذا كان **أمير** محروماً هو وزملائه المصريين من ممارسة الرياضة في مدرسته، بينما يستمتع بها تلاميذ المدرسة الأمريكية، وقدمنا احتجاجاً، أنا وعدد من الآباء للمديرة **عائشة فؤاد**، وكالعادة وعدت خيراً حيث ادعت أن التأجير هو لمدة عام دراسي واحد، إلى أن يرمم الأمريكان ملاعب كلية النصر، ثم بعد ذلك تفتحها لتلاميذ كلية النصر... ولكني وعدد من الآباء لم نسترح لمنطق "ميس **فؤاد**"، كما كان الجميع يناديها... ووجدت **بركة** مدرسة أخرى تجمع بين تعليم اللغة العربية والدين والتاريخ من ناحية، والمناهج التعليمية المبتكرة من ناحية ثانية، والأنشطة غير الصيفية من ناحية ثالثة. وكانت تلك هي مدرسة "الألسن" في البدرشين بالجيزة، قرب الأهرامات، وزرت المدرسة مع **بركة وأمير**، وأعجبنا نحن الثلاثة بها. كانت المشكلة الوحيدة هي المسافة، ورحلة الأتوبيس التي تستغرق ساعة ذهاباً، وساعة أخرى إياباً، وخلال شهور من انتظام **أمير** في مدرسة الألسن تفتحت شخصيته بشكل ملفت للنظر... واندمج في العديد من الأنشطة غير الصيفية (الهوايات)... وحينما رأته الأسرة يؤدي أحد أدوار مسرحية "البقر توست" الإنجليزية، وكان جده وجدته في زيارتنا، اقتنع الجميع بصواب تحويله من كلية النصر إلى مدرسة الألسن. كانت هذه الأخيرة مدرسة خاصة، ولكنها ذات إدارة مصرية متفتحة استعانت بمدرسي لغات من الخارج... وهو ما كان ممكناً في كلية النصر، حيث كان المجلس البريطاني والسفارة الفرنسية تعرض إحضار مدرسين، من بلديهما ودفع مرتباتهم لخدمة تعليمية. ولكن "ميس **فؤاد**" كانت تقاوم كل تغيير أو تطوير. وأيقنت للمرة الألف أن مشكلة مصر في التعليم، كما في الاقتصاد، كما في السياحة هي - مشكلة إدارة وقيادة.

أما **راندا** فكنا مطمئنون على نوعية تعليمها في المدرسة الألمانية بباب اللوق... ولم يكن قد بقى لها إلا سنتان دراسيتان، قبل إتمام التعليم الثانوي، والالتحاق بالجامعة... ولكن حتى **راندا** لمست التغيير الشاسع في شخصية **أمير**

بعد انتقاله إلى مدرسة الألسن... فبدأت تلح بدورها أن تفعل نفس الشيء، وهو الأمر الذي لم أتحمس له في البداية... فاتهمتني **بركة** أنني أصبحت مثل "ميس **فؤاد**" ـ أقاوم التغيير والتطوير وفي النهاية أذعنت... وكانت النتيجة مبهرة. أصبحت **راندا** أكثر إقبالاً وسعادة بالدراسة في الألسن... واتضح أن المدرسة الألمانية، التي تديرها الراهبات الألمانيات، لا تعرف "البهجة"، ولا تشجع الانطلاق والمبادرة، رغم الجدية والمثابرة في المناهج الدراسية.

ورغم أنني كعضو هيئة تدريس في الجامعة الأمريكية من حق أولادي أن يلتحقوا بها، بصرف النظر عن معدلات درجاتهم في شهادة الثانوية العامة، إلا أنني و**بركة** حجبنا عنهما هذه المعلومة، كانت **راندا** تريد أن تدرس في الجامعة الأمريكية (اقتصاد أو علوم سياسية) وفي جامعة القاهرة (حقوق). وكانت قد عرفت بهذه الإمكانية من ابن أحد أصدقائنا وهو **بهاء أحمد بهاء الدين**. وقد شجعتها على ذلك، ولكن بعد تذكيرها بالحد الأدنى من الدرجات الذي تقبله الجامعة الأمريكية، وهو ٨٥ في المئة... واجتهدت بالفعل، وحصلت على ما يوازي ٩٥ في المئة في شهادة المعادلة الثانوية... واحتاج الأمر أن تؤدي بعض امتحانات هذه الشهادة في الأردن... وحيث أنني كنت أستعد للعودة النهائية لمصر، فقد كنت أرسل معها في كل رحلة بعض كتبي الخاصة... وفي أحد المرات تشكك موظفو الجمارك المصريين فيما تحمله هذه الفتاة من كتب، بعضها ذي عناوين سياسية مثيرة في ذلك الوقت، مثل "الصحوة الإسلامية"، "الإسلاميون والديموقراطية"، "اليساريون العرب والديموقراطية"... وعبثاً حاولت، وكانت وحدها، إقناعهم إن هذه كتب والدها، وأن اسم المؤلف على غلاف بعضها، فيعاد فحص جواز سفرها المصري، ليكشف أنها من مواليد بيروت... وكانت هذه الأخيرة من المدن المشبوهة في مطارات القاهرة ومصر في ذلك الوقت... فأبلغ موظف الجمارك، مباحث أمن الدولة في المطار... وصعّد هذا الأخير الموقف إلى أن وصل إلى مدير أمن المطار، الذي كان في ذلك الوقت هو اللواء **رضا عبد العزيز**، الذي تصادف أنه كان من قرائي... فسوى المشكلة التي اختلقها موظف متحمس ولكن أمّي ثقافياً! وكان ذلك أحد المواقف المبكرة، التي تسببت فيها اسمي أو كتبي لمشكلات لأفراد أسرتي.

أتمت **راندا** الالتحاق بكل من الجامعة الأمريكية، دون مشاكل، وجامعة القاهرة مع بعض المشاكل الطريفة، فكالعادة، كان لا بد لها أن تمر بمكتب التنسيق، وتسجل رغباتها تنازلياً، ورغم أنها سجلت كلية الحقوق كرغبة أولى، وكلية الاقتصاد كرغبة ثانية، إلا أن مكتب التنسيق ألحقها بكلية الاقتصاد... اعتقاداً أنها بمجموع درجاتها المتميز (٩٦%) لا يمكن أن تكون قد فضلت كلية

الحقوق، التي تقبل أي مجموع، على كلية الاقتصاد، التي كان يطلق عليها أحدى "كليات القمة"، والتي لا تقبل إلا أصحاب المجموع العالي (فوق ٩٠%). وعبثاً حاولت إقناعهم بأن هذه رغبتها... ولم يصدقها المسؤولون في جامعة القاهرة إلا بحضور ولي أمرها، وإقراره بأن تلك هي رغبتها فعلاً... وهو ما كان، رغم حرصي على أن يفعل أبنائي كل شيء بأنفسهم دون تدخُلي أو ظهوري في الصورة... وتصادف مرور **د.مفيد شهاب**، رئيس الجامعة، وأنا في طريقي لكلية الحقوق، فاستوقفني، وهو أستاذ سابق بالكلية للاستفسار عن سبب قدومي، ولما أخبرته، انفجر ضاحكاً للموقف، وترحم على أيام العز في كلية الحقوق، التي ظلت إلى أوائل الخمسينات تسمى "كلية الوزراء"! أصر **د.مفيد شهاب** على دعوتي لفنجان قهوة في مكتبه، وكان سعيداً بقرار **راندا** أن تدخل كلية الحقوق، وطلب منها ألا تتردد في التوجه لمكتبه شخصياً إذا صادفتها أي مشكلة في الكلية أو الجامعة.

ولكن هذه الخبرة المبكرة، إلى جانب الهرج والمرج والأعداد الكثيرة في كلية الحقوق، قضت على حماس **راندا** للدراسة في جامعة القاهرة... وثابرت على الدراسة فقط لكي لا تبدو أمامي، وقد انهزمت أو خيبت ظني فيها... وعلى العكس كان إقبالها واستمتاعها بالدراسة في الجامعة الأمريكية، حيث الأعداد قليلة، وحيث الانضباط والنظام... وقد أنجزت الدراسة في الجامعتين، أحدهما بالكاد (الحقوق) والأخرى بالاستمتاع (الأمريكية)... ولكن دراستها غير المتمعنة للحقوق، أثبتت جدواها بعد ثماني سنوات من تخرجها، حينما قبض علي وقدمت للمحاكمة عام ٢٠٠٠، في قضية مركز ابن خلدون التي سيأتي ذكرها في موضع قادم من هذه السيرة.

كانت **بركة** بحكم عملها في مؤسسة فورد مسؤولة عن بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بما في ذلك الأردن وفلسطين، وهو ما سمح لها أن تتردد علي في عمان عدة مرات سنوياً، وفي مناسبات عيد الميلاد ورأس السنة كانت تأتي هي والأولاد، وحتى والديها، اللذين كانا يحرصان منذ عودتنا إلى المنطقة عام ١٩٧٥، أن يقضيا هذه العطلة معنا وقد قضينا سوياً أحد هذه العطل في عمّان، حيث أعدت لهما إدارة الفندق، ولنا مأدبة عيد ميلاد أسطورية، لم يروا مثلها في حياتهما، وظلا يتغنيان بها في أمريكا لعدة سنوات تالية... وطفنا بهما كل معالم الأردن السياحية، وأهمها على الإطلاق منطقة "بترا أو البتراء" ، وهي مدينة منحوتة في الصخور، وتعد من عجائب الدنيا... كذلك رتبنا لهما رحلة إلى الأراضي المقدسة عبر نهر الأردن، دون أن نصحبهما... فلم أكن بعد قد تغلبت

نفسياً على عقبة زيارة إسرائيل، أو المرور بمراكز تفتيش واحتلال في الأراضي العربية.

حينما كانت الأسرة تأتي لزيارتي في عمان كان الأمير **الحسن** وكثير من الأصدقاء الأردنيين يتسابقون على الاحتفاء بهم ودعوتهم إلى منازلهم... وتعرفت **راندا وأمير** بأقران أردنيين وفلسطينيين عديدين... لذلك كانا يتطلعان دائماً لرحلات عمان.

امتدت سنوات عمان إلى خمس سنوات بدلاً من سنتين... وتزامن ذلك مع المرحلة العمرية ١٢. ١٧ سنة بالنسبة **لراندا**، وهي مرحلة مراهقة حرجة ولم أكن متأكداً من تأثير بعدي عنها، وإن كانت كل المؤشرات لم تعطني أي أضواء حمراء أو حتى برتقالية. وبالطبع يمكن أن يكون ذلك لأني أصبت بعمى الألوان... كانت **بركة** مع ذلك تحرص على أن تتبهني إلى ما ينبغي أن أنتبه إليه كأب. من ذلك أنها بدأت اهتماماً رومانسياً بشاب يكبرها بثلاث سنوات إسمه **عباس**... ولكنها سرعان ما تجاوزته من حيث نضجها العقلي والوجداني... ثم بدأت اهتماماً رومانسياً آخر بشاب إسمه **نبيل**، كان يكبرها بعشر سنوات، ويعمل مهندساً ورجل أعمال... وقابلته **بركة** وحماتي **إلين** وصهري **والتر**، ولاقى قبولاً منهم... وجعلني ذلك أطمئن بعض الشيء لجدية العلاقة، ولكني تعمدت ألا أراه إلا بعد أن تنتهي **راندا** من دراستها الجامعية... كنت أشعر دائماً أن **راندا** ذكية وجميلة، ولكن تنقصها المثابرة، وقوة الإرادة... وكانت تعرف أن ذلك رأيي فيها... وكان ذلك من ناحية يؤلمها، وكان من ناحية أخرى حافزاً لها، وتحدياً دائماً لإثبات العكس. وظل هذا التوتر في علاقتنا إلى عدة سنوات، أو بالأحرى إلى أن تزوجت وأصبحت أما وزوجة ممتازة.

أما **أمير** فلا أتذكر أي مطبات تذكر في سنوات مراهقته المبكرة أو المتأخرة، كان كمعظم أنماط الطفل الثاني أكثر اعتماداً على نفسه، وأكثر مرحاً، وخاصة بعد التحاقه بمدرسة الألسن.

مجلس التعاون العربي

شهد النصف الثاني من عام ١٩٨٨ تطورين هامين كان لهما تأثيرٌ كبير على الأردن بصفة خاصة وعلى الوطن العربي والشرق الأوسط بصفة عامة. كان التطور الأول هو نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية، بعد ثماني سنوات من الدماء والدمار... انتهت الحرب تقريباً بما يشبه الانتصار العراقي... فقد قبلت إيران مقترحاً بوقف إطلاق النار، دون شروط، والانسحاب من أي أراضي عراقية تكون قد احتلتها أثناء الحرب، وهو ما سبق أن رفضته، حيث كانت تصر على أن يدفع لها العراق تعويضات عما لحقها من دمار. لذلك كان قبول إيران وقف إطلاق النار مفاجأة سارة للجميع. صحيح أن الإمام **روح الله الخوميني،** الزعيم الروحي للثورة الإيرانية، قال لشعبه وهو في معرض قبول وقف إطلاق النار، أن هذا القرار كان بمثابة "شرب كأس من العلقم"... ولكنه وبلاده مضطران لذلك...

كان الشعب الأردني في أغلبيته الساحقة مؤيداً للعراق في حربه مع إيران... وكان هذا التأييد مزيجاً من مشاعر قومية عروبية حقيقية من ناحية، ومن المصالح المادية من ناحية أخرى. وقد تجلت هذا الأخيرة في أنه في السنوات الخمسة الأخيرة من الحرب، لم يكن لدى العراق منفذاً بحرياً يعتمد عليه في تجارته مع الخارج. فيمنائه-الوحيد، وهو البصرة على شط العرب كان على مرمى حجر من المدفعية الإيرانية، والتي لم تتوانَ بدورها عن تعطيل الميناء وتدمير أرصفته البحرية، بل ومعظم أحياء المدينة أيضاً. ولم يعد أمام العراقيين إلا استخدام موانئ دول الجوار ـ وهي تركيا وسورية والأردن. وكانت العلاقات بين جناحي حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكمين في بغداد ودمشق في أسوأ حالاتها، لدرجة قطع العلاقات بين البلدين العربيين، والتي يرفع كل منهما شعار الوحدة العربية. أكثر أو أسوأ من ذلك. كانت سورية هي البلد العربي الوحيد الذي جاهر بتأييده لإيران ضد العراق، واعتباره هذه الأخيرة البلد المعتدي في حرب الخليج. ولذلك لم تكن سوريا في وضع يسمح بتعويض العراق عن قفل أو تعطيل مينائه الوحيد. أما تركيا فقد كانت تكره النظامين المتصارعين في طهران وبغداد، لذلك آثرت الوقوف على الحياد، واكتفت بالسماح للنفط العراقي أن ينقل بالأنابيب عبر أراضيها، للتصدير إلى أوربا. بقي الأردن وميناءه العقبة، الذي

أصبح شريان الحياة الرئيسي للعراق مع العالم الخارجي. وكان الأردن كدولة، ورجال أعمال وعمال تستفيد إستفادات جمة من هذه الخدمة للعراق. وكان وقف الحرب يعني تخفيض الاعتماد على الأردن إن آجلاً أو عاجلاً - أي بعد إعادة تعمير وتشكيل ميناء البصرة. وكانت هذه حالة كلاسيكية لخسارة بلد من السلام بين بلدين آخرين!.

كنت في بلدة "أصيلة" بالمغرب، حينما وصلنا خبر وقف القتال. وكان السيد **محمد بن عيسى**، وزير الثقافة المغربي هو الذي نقل إلي الخبر فور حدوثه. وسعدت جداً، لأنني كنت أحد العرب القلائل الذين لم يؤيدوا العراق في مغامرته العبثية ضد جارته إيران. وكنت قد كتبت مقالاً بهذا المعنى في دورية **السياسة الدولية**، التي تصدر عن "الأهرام"، بعد انفجار الحرب بشهر واحد... وتوقعت وقتها أن الحرب ستطول، بعكس حسابات وتوقعات **صدام حسين**. واسترجعت في هذا المقال مضمون لقائي مع **صدام حسين** في يوليو ١٩٧٥، وكيف لم أنتبه وقتها لنواياه العدوانية ضد كل جيرانه.

عدت من أصيلة إلى مصر، ثم الأردن... استعداداً لموسم منتدى الفكر العربي الذي يبدأ عادة في سبتمبر... كانت الانتفاضة الفلسطينية ما زالت مُتأججة... وكتبت سلسلة من المقالات حول، ما أسميته بنهاية أربعين عاماً من "التيه" أو الضياع الفلسطيني (١٩٤٨ـ١٩٨٨)، أسلم فيه الفلسطينيين القياد لأنظمة عربية. لا تستطيع الدفاع عن أقطارها، فكيف لها بإنقاذ فلسطين وشعبها... وكان ذلك بداية الضياع الحقيقي، وهو أشبه بسنوات "التيه الأربعيني" الذي جربه بنو إسرائيل في سيناء، قبل أن يصلوا إلى "أرض الميعاد"... لقد كانت الانتفاضة في رأيي هي بداية النهاية لسنوات التيه الفلسطينية، وذكرت في المقال أنه على الأنظمة العربية أن ترفع يدها، وتترك الفلسطينيين، يديرون قضيتهم بأنفسهم. وفقط يُقدموا لهم ما تيسر من الدعم المادي والمعنوي. ولأن هذه المقالات كانت تنشر في مصر والأردن وبلدان عربية أخرى، فقد عاتبني الأمير **حسن** ظناً منه أنني أشير إلى الأردن، الذي كان أكثر الأنظمة العربية التصاقاً بالقضية الفلسطينية. وطبعاً فسرت له أنني لم أقصد الأردن وحدها، ولكن كل الأنظمة العربية التي تاجرت بقضية فلسطين، دون أن تحرر شبراً واحداً من أرضها... وكان الأمير يهز رأسه موافقاً رغم أنه بدأ الحديث مُعاتباً. أكثر من ذلك اعترف لي، بما كنت أعرفه فعلاً، وهو أن النظام الهاشمي لا شعبية له بين الفلسطينيين في الضفة والقطاع، وأن نسبة التأييد للهاشميين لا تتجاوز ١٥ في المئة في الوقت الحاضر... وكانت كذلك

منذ عشرينات القرن العشرين، لم تزد أو تنخفض عن ذلك كثيراً طوال الستين سنة الفارطة!.

المهم لموضوعنا، هو أن مؤتمراً عربياً للقمة عقد في الجزائر، في خريف ذلك العام... وكان أحد قراراته الحاسمة هو إعلان "دولة فلسطينية"، وتسمية منظمة التحرير كممثل حقيقي وأوحد للشعب الفلسطيني ـ في الضفة والقطاع والشتات. وقد كان هذا القرار تعبيراً عن التقدير والتضامن والإعجاب بالانتفاضة الفلسطينية.

وحينما عاد **الملك حسين** من قمة الجزائر، اجتمع بشقيقه ولي العهد، ثم بأركان نظامه، اجتماعاً طويلاً، لم أدرِ في حينه ما انطوى عليه. ولكن بعد ظهر اليوم التالي، استدعاني الأمير **الحسن** لمرافقته في سيارته اللاند روفر إلى مباراة في لعبة البولو، وأخبرته أنني لا أمارس اللعبة، ولا حتى أفهم قواعدها... ضحك وأخبرني أن أحضر للمشاهدة وتعلم شيء جديد، وتشجيع فريقه ضد الفريق المنافس... كان معظم أفراد الفريقين من الضباط الباكستانيين الذين يعملون في القوات المسلحة الأردنية... وتابعت المباراة بنصف حماس... وانتصر فريق الأمير، الذي بدا مزهواً كالأطفال... في طريق الذهاب والإياب من ملعب البولو، أخبرني الأمير "أن جلالة الملك عاد من الجزائر مكتئباً، لا فقط بسبب قرار القمة حول الممثل الحقيقي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهو منظمة التحرير، ولكن أيضاً بسبب المعاملة التهميشية التي لقيها في الجزائر، وهو ما لم يحدث في أي قمة عربية سابقة!".

ولم أكن أحسب، بكل صراحة، أن قرار القمة بشأن توكيل منظمة التحرير أن تصبح الممثل الشرعي والوحيد سيؤلم الملك **حسين** وشقيقه الأمير **الحسن** لهذه الدرجة... وقلت للأمير ذلك... فنظر إلي بتفحص وعتاب، وقال ما معناه "لعلك فعلاً لا تصدق أن الهاشميين وحدويون... إن شرعيتنا كأسرة مالكة تنبع من الثورة العربية الكبرى، التي قادها جدي الأكبر الشريف **حسين**، أمير مكة، والتي رفعت شعار "الوحدة العربية"... والتي بناء عليها، ذهب أحدنا ليكون ملكاً على سورية، ثم ليكون ملكاً على العراق، وآخر ليكون ملكاً هنا في الأردن... إن وحدة الضفتين ـ أي شرق وغرب الأردن ـ هي كل ما تبقى لنا كهاشميين لتبرير شرعيتنا، بعد أن أجبرنا الفرنسيون أن نترك دمشق ١٩٢٠، وبعد سقوط عرشنا في بغداد عام ١٩٥٨...".

تأثرت بلهجة وكلمات الأمير... وسألته، وما العمل؟ قال الأمير بسرعة: هذا ما أريد مساعدتك فيه!.

مجلس التعاون المشرقي

أوصلني الأمير **حسن** إلى فندق ماريوت، حيث كانت إقامتي... استرحت قليلاً، ثم نزلت إلى حمام السباحة لمدة ساعة، ثم عدت إلى غرفتي، حيث ارتديت ملابس خفيفة، وخرجت إلى مكتبي في المنتدى... وطوال هذا الوقت كنت أفكر فيما قاله الأمير، وما طلب مساعدتي فيه... وتفتق ذهني عن مشروع "جديد"... لم يكن جديداً تماماً... فقد كنت قد فكرت فيه، وكتبت عنه في خاتمة كتابي، "**اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة**"، عام ١٩٨٠، والذي وجد له تنفيذا جزئياً عام ١٩٨١، بواسطة عرب الخليج... وأقصد الوحدات أو الاتحادات أو الكونفيدراليات العربية.

سجلت الفكرة على الورق تحت عنوان "**مجلس التعاون المشرقي**" وهو تنظيم إقليمي يضم مصر والعراق، في سوق اقتصادية مشتركة، مثلما بدأ الأوربيون عام ١٩٥٧. واقترحت أن نبدأ تجربة مجلس التعاون المشرقي بالبلدان الثلاثة (مصر – العراق الأردن)، نتيجة ما كان قد تحقق بينها بالفعل من سوق عمالة واحدة أثناء سنوات حرب الخليج، التي توقفت منذ أسابيع... فكان المشروع المقترح يضمن استمرار وتكثيف هذا التعاون، وتوسيعه لكي يشمل حركة رؤوس الأموال والسلع والخدمات، والتنسيق السياسي. وأعددت مجموعة من الجداول حول إمكانيات البلدان الثلاثة مجتمعة، وكيف تطورت بالفعل في السنوات الأخيرة، وتحديداً منذ قمة عمّان الأولى، وكيف يمكن أن تتطور إلى عام ٢٠٠٠، ثم إلى عام ٢٠١٠ و٢٠٢٠. وساعدني على إعداد هذه الجداول مسودات مشروع "استشراف مستقبل الوطن العربي"، الذي كنت أشرف عليه لمركز دراسات الوحدة العربية، وطبعاً، ما كان يمكن أن أفكر في المشروع على هذا النحو إلا لأن مصر قد عادت إلى الصف العربي منذ عام.

اتصلت بالأمير **الحسن** في اليوم التالي... وعرضت عليه الفكرة كأحد حلول تعويض الأردن عن إحساسه (الحقيقي أو الوهمي) بالتهميش، وإعطاء الملك **حسين** شخصياً دوراً وحدوياً جديداً بنفس الرسالة التاريخية للهاشميين... وطلب الأمير أن أذهب إلى مكتبه في القصور الملكية على الفور... وهو ما حدث... وكانت المفاجأة إنه اصطحبني من يدي عبر الساحة والحدائق التي تفصل مكتبه عن الديوان الملكي... حيث قابلنا الملك **حسين** الذي كان الأمير قد أعطاه نبذة مختصرة عن المشروع، كما لخصته له تليفونيا.

كان الملك **حسين** شخصية ودودة مع كل من يقابله... ورغم أن ضحكته عاليه النبرات، وفي ذلك يشبه الشقيق الأصغر، إلا أنه حينما يتحدث كان صوته

همساً رقيقاً، وكأنه فتاة عذراء خجولة. وبعد أن رحب وسأل عن "الأهل" (وكأنه يعرفهم)، وبعد أن احتسينا الشاي المسكر في الأكواب الذهبية الصغيرة، قال "أخبرني سمو الأمير أن لديك مشروعاً للتعاون الإقليمي بيننا وبين الأخوة في مصر والعراق... فهل لنا أن نسمع التفاصيل؟" فشرحت له التفاصيل، وناولته وسمو الأمير الخطوة الأولى للمشروع مكتوبة... وأردفت أنه "لو راقت لجلالته الفكرة، فيمكن إعداد التفاصيل، وأساليب العرض على قيادة البلدين الآخرين خلال أسبوع"... كان الملك ينظر إلى مسودة المشروع التي تقع في حوالي عشر صفحات... وبعد دقيقتين، رأيت ابتسامة عريضة على وجه الملك، ثم قال متسائلاً، "لماذا أسبوع ... أنا أرى أن المشروع يكاد يكون جاهزاً للعرض على فخامة الرئيس **مبارك** والرفيق **صدام**... لماذا لا تضع اللمسات الأخيرة خلال يوم أو يومين؟".

خرجت من القصور الملكية إلى مكتبي في المنتدى، واستدعيت **د.فهد الفانك** كبير الباحثين... عرضت عليه الفكرة، دون أن أذكر مقابلتي مع الملك وولي العهد ... ولكنه لم يتحمس، بل أعلن أنها مهمة صعبة، إن لم تكن مستحيلة التحقيق، لأن إسرائيل والغرب والسعودية، سيعترضون عليها... فداعبته كالعادة، بأنه كسول ومتشائم، ومن "**حزب القاعدين**"... رد عن نفسه التهمة، وأعلن استعداده لعمل ما أكلفه به... فطلبت منه أن يعد مجموعة من الجداول الإضافية، وأن يسجل كل المصاعب والعقبات والاعتراضات المتوقعة للمشروع. فتساءل بخبث "هل يمكن أن أقوم بهذا الجزء أولاً، عله يقنعك بإعفائي من إعداد الجداول!؟".

في أثناء حديثي مع **فهد الفانك**، تلقيت مكالمة من الأمير **الحسن**، يخبرني فيها أن جلالة الملك قد تهاتف فعلاً مع صاحب الفخامة المصري والرفيق العراقي، وأعطى كل منهما فكرة... وحدد موعد زيارتين متتاليتين في أوائل الأسبوع التالي... لم أصدق السرعة التي تتم بها الأمور... فبعد أن فرغ الأمير من الحديث ووضعت سماعة التليفون، نظر إلي **فهد الفانك** الذي كان لماحاً للغاية، وتساءل "ماذا الآن؟"، قلت له "صار، يا **فهد**، صار"... وكان بصفته من أقرب الأردنيين للعراق، والمتحمسين لحربه مع إيران، والمترددين على بغداد، ويفهم اللهجة العراقية جيداً، وكانت كلمة "**صار**" تقال عندما يريد المتحدث أن يوحي لمن يطلب منه طلباً بأن طلبه قد أجيب، أو هو قيد التنفيذ... تساءل مرة ثانية... ماذا بالله عليك؟ أخبرته أن جلالة الملك في انتظار المقترح مكتوباً في خلال ساعات، ليتوجه به بعد غد للرئيس **مبارك**، وبعد بعد غد للرفيق **صدام!** وحينما تأكد **فهد الفانك** من ذلك شمّر عن ساعديه، وعبأنا المكتب طوال الإثنى

عشر ساعة التالية، ثم استدعينا **د.جواد عناني**، عضو المنتدى من الاقتصاديين العرب النابهين، للإطلاع على مسودة المشروع المفصّل، وإبداء الرأي فيه بالإضافة أو الحذف أو التعديل.

وفي ظهر اليوم التالي كنا قد فرغنا من إعداد وثيقة من خمسة عشر صفحة، بجداولها وخرائطها، وجدولها الزمني المقترح للتنفيذ. واتصلت بالأمير **الحسن**، وذهبت له بوثيقة "**مجلس التعاون المشرقي**".

كنت قد تعلمت من خبرتي في التعامل مع صُناع القرار العرب أن تسلسل الخطاب الخاص، هو عكس تسلسل الخطاب العام. من ذلك أن الأول يبدأ بمبررات المصلحة الشخصية لصانع القرار (أي ماذا في القرار من فائدة شخصية له، أولاً؟)، ثم بعد ذلك دواعي المصلحة الوطنية (القطرية)، ثم بعد ذلك دواعي أو إدعاءات المصلحة "القومية" (العربية)، وأخيراً - إذا كان ولا بد - إدعاء خدمة الإنسانية جمعاء! ... وعكس ذلك الخطاب العلني العام عند إعلان القرار أو السياسة الجديدة: المصلحة القومية، ثم المصلحة الوطنية، وربما مصلحة العهد أو القطاع، مع عدم ذكر المصلحة الشخصية المباشرة إطلاقاً - مع أنها بالطبع المحرك الأول لصانع القرار!

لذلك حرصت على أن أُعد ملخصاً خاصاً بالملك **حسين** وحده، لاستخدامه في عرض أو تسويق المشروع مع رئيسي مصر والعراق. ولكن الفوائد القطرية لكل من البلدان الثلاثة كانت واضحة جلية، وكان تحقيقها في حد ذاته من شأنه أن يدعم مركز كل رئيس، ويزيد من شعبيته. كان المشروع يفيد مصر من حيث مشكلة البطالة، وزيادة حجم أعمال شركات المُقاولات التي ستحتاجه العراق لإعادة إعمار ما دمرته الحرب، ودعم الصناعات المصرية الحديثة. وكان المشروع يفيد الأردن في استمراره الممر الرئيسي لتجارة الترانزيت، مع اقتراح بناء أنبوبة للنفط من العراق إلى العقبة، وكان يفيد العراق في الحصول على عمالة مصرية رخيصة وسلع وخدمات مصرية رخيصة، ومجال حيوي يمتد إلى الحدود الليبية غرباً، والسودان جنوباً... ويعوضه في موازين القوة مع إيران شرقاً، وتركيا شمالاً، ويحسن من فرصة أيديولوجياً مع غريمه السوري حافظ الأسد، الذي يزايد عليه "كقومي عربي".

عرض أحد ملاحق المشروع للصعوبات، وللأطراف العربية (السعودية وسوريا) والإقليمية (إسرائيل وإيران) التي قد تقاومه، وكيفية التعامل مع ذلك... لم نتوقع مقاومة دولية تذكر، بسبب العلاقات الوطيدة لمصر والأردن بالغرب، وللعراق بالإتحاد السوفيتي. واقترح المشروع أيضاً عدة بدائل تنظيمية، تتراوح بين

التنسيق التطوعي غير الملزم، إلى شيء قريب من الفيدرالية، مع استحداث أمانة عامة لهذا الكيان الجديد.

كنت سعيداً للغاية بإيقاع تطورات مشروع مجلس التعاون المشرقي... واعتبرته أحد إنجازاتي الهامة في المنتدى... خاصة بعد حصول الملك **حسين** على الموافقة المبدئية من كل من **حسني مبارك وصدام حسين**... "رغم عدم الإعلان الرسمي عن المشروع. إلا أن كثيراً من أعضاء المنتدى والسلك الدبلوماسي العربي والأجنبي في عمان تسرّب إليهم، وبدأوا يتحدثون عنه، وفي أحد زياراتي للقاهرة طلب الأستاذ **محمد حسنين هيكل**، الكاتب المعروف، أن يراني لأحدثه عما سمعه عن المشروع، فأعطيته نسخة من الوثيقة التي كنا قد أعددناها وسلمناها للملك.

اليمن تدخل على الخط

وزارنا في تلك الأثناء في المنتدى السيد/ **عبد الرحمن الإرياني**، نائب رئيس الوزراء اليمني في ذلك الوقت، والذي كان عضواً بالمنتدى... وسألني عما سمعه من المسؤولين في السفارة اليمنية عن مشروع مجلس التعاون المشرقي، فأعطيته فكرة مختصرة... وفاجأني بالسؤال عن التفاصيل... وفي نهاية ساعة ونصف من الحديث، قال لي أنه على موعد مع جلالة الملك، وسيطلب منه أن تدخل اليمن عضواً في المجلس المقترح، وسألني رأيي. وللأمانة، لم أجد أن اليمن ستضيف كثيراً للمشروع. فهو ليس متصلاً أو قريباً جغرافياً للبلدان الثلاث المقترحة. وليس لديه ما يقدمه لها أو يستفيد منها، غير الدعم المعنوي والدبلوماسي. قال الرجل الصغير حجماً، والذكي عقلاً، "وهل هذا قليل؟ لقد طلبنا من الأشقاء في مجلس التعاون الخليجي أن ننضم إليهم، ولو كمنتسبين، ولكنهم اعتذروا اعتذارات واهية، نعلم نحن في اليمن أنها ليست حقيقية. إن السبب الحقيقي أننا فقراء وجمهوريين!. كنت أهز رأيي تعاطفاً، دون أن أؤيد أو أتحفظ أو أعارض.

في اليوم التالي لمقابلة **عبد الرحمن الإرياني** استدعاني الأمير **حسن**، وذهبنا لرؤية "**سيدنا**" كما كان يطلق الأردنيون على الملك. بادرني الملك بالسؤال **ماذا يضيف اليمن لمشروع المجلس؟** قلت بعفوية "**ستتحول المعارضة السعودية الصامتة إلى ذعر علني...**"، فعلق الملك **حسين** بنفس العفوية، وبالإنجليزية " All the better" ـ أي هذا أفضل وأفضل. وبدا من النظرات المتبادلة بين الشقيقين، أن الملك تنبه إلى أنني "غير هاشمي"، و"غير إردني"،

ومن ثم لا يجوز لياقة أن يكشف بهذه الصراحة لغريب مثلي عن مكنون مشاعره نحو السعودية!

طعنة أخرى من الدولة المصرية

وافق الجميع، مع تغيير اسم المشروع من مجلس التعاون المشرقي إلى "مجلس التعاون العربي"، وبموافقة البلدان الثلاثة الأولى على انضمام اليمن... وتحسباً لتحسن العلاقات العراقية ـ السورية، وانضمام سوريا ولبنان إلى المجلس... **وأعلن رسمياً في الإسكندرية عن ميلاد المجلس بحضور رؤساء ثلاث جمهوريات وملك.**

وسارعت بلدان المغرب العربي: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب إلى إعلان مجلس مشابه، أطلقوا عليه اسم الإتحاد المغاربي... وطلب سفراء هذه الدول في عمّان الوثائق والدراسات التي كان منتدى الفكر العربي قد أعدها في هذا الصدد... وكنت أكثر الناس سعادة بهذه التطورات، تحقيقاً لأحلامي العربية الوحدوية ـ حيث أصبحنا بصدد ثلاثة مجالس إقليمية في الخليج، والمشرق، والمغرب. ولم يبق خارج المجالس الإقليمية سوى السودان، والصومال، وجيبوتي، واليمن الجنوبي، وموريتانيا.

وعلى المستوى الشعبي كانت هناك فرحة مُتحفظة، لخبرات الماضي الفاشلة... ولكن كان هناك بالفعل مبررات للأمل. فحرب الخليج قد انتهت، والشعب الفلسطيني يعيش انتفاضة مجيدة، والحرب الأهلية في لبنان قاربت على الانتهاء، ومصر قد عادت للصف العربي.

استدعاني الأمير **الحسن** إلى مكتبه، وكان وجهه مكفهراً. فسألته خيراً، قال بصوت غاضب "**ماذا بينك وبين الأجهزة المصرية؟**" أجبته "كل خير..." وتذكرت الواقعة التي كان قد أخبرني بها في أول عهد المنتدى ـ تقرير أمني مصري سلبي في حقي. فأردفت "إلا باستثناء أحد الأجهزة الأمنية... ربما... ولكن لماذا تسأل هذا السؤال الآن يا سمو الأمير؟". قال الرجل بنبرة ألم وأسى لا تخطئها الأذن أو البصر:

"لقد رشحك الأردن أميناً عاماً لمجلس التعاون العربي، وتحمس العراق لذلك لأنهم يعرفون دورك... ولكن الذي اعترض وبشراسة هو الجانب المصري... فلماذا؟" أحسست بسكين حاد في ظهري... ولكني تظاهرت بغير ذلك... وقلت للأمير "ليس لدي إجابة... ولكني لم أطلب أن أكون أميناً عاماً للمجلس... فأنا بالفعل أمين عام للمنتدى وللمجلس العربي للطفولة... ولدي ما يكفي من المهام

والمسؤوليات...". ومع ذلك ظل الألم يعتصرني لعدة أيام... وأدركت أن في الرئاسة المصرية أو على مقربة منها من يريد بي سوءاً!.

الأيام الأخيرة للإتحاد السوفيتي

كان برنامج حوارات العرب والعالم أحد أهم أنشطة المنتدى، وأكثرها نجاحاً وإثارة. وقد تضمن البرنامج، الذي ظلت تموله **مؤسسة فورد**، حوارات عربية مع الأوربيين (من أحزاب الأحرار، والديموقراطيين المسيحيين)، والأمريكيين (مجلس الشؤون الخارجية في كل من نيويورك وواشنطن)، والصينيين (الحزب الشيوعي والأكاديمية الصينية)، واليابانيين (مؤسسة نارا)، والسوفيت. وكان اليابانيون هم الأصعب في الاتفاق على شروط وترتيبات الحوار، حيث أخذ التفاوض معهم حوالي ثلاث سنوات. ولكن بمجرد البدء، أصبحوا مثل الساعة لا يتوقفون.

وكان الأسهل هم السوفيت (الحزب وأكاديمية العلوم)، وقد عقدنا مع السوفيت أربعة حوارات - إثنان منهما في العالم العربي (عمّان والقاهرة)، وإثنان في موسكو. وكانت موضوعات الحوار مع مختلف مناطق العالم تتضمن القضايا التي تهم العرب وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، وحرب الخليج، والتنمية، والعلاقات الثقافية. ولو تركت للسوفيت العنان لعقدوا هذه الحوارات شهرياً، وليس سنوياً، والسبب في ذلك "التفاؤل" الذي حركه **جورباتشوت** في مواطنيه. تطلع إلى السفر، وإلى البحث عن فرص عمل، وتطلع استهلاكي، وإلى عقد صفقات في أي شيء، ولكل شيء ابتداء من الجنس وانتهاء بالسلاح.

ولكني لم أنتبه إلى كل هذه التطلعات إلا في السنة الأخيرة، حينما بدأ قريني عن الجانب السوفيتي، الرفيق **الكسندر كيسيليف**، يلمح، ثم يصرح، ثم يطلب، ثم يلح، ثم يستجدي!.

أتاحت لي تلك الحوارات فرصاً نادرة للتعرف على التجربة السوفيتية من الداخل، ولأكون شاهد عيان على المرحلة الأخيرة، مرحلة احتضارها.

كان الرئيس **أنور السادات** في لقائي معه في أغسطس ١٩٨١، قد حمل على الاتحاد السوفيتي، وعلى بيروقراطيته العفنة وعلى فساد النظام كله. ولكني لم آخذ هذه الملاحظات وقتها مأخذ الجد. كنت وما زلت إلى وقت الحوارات، أحمل للاتحاد السوفيتي احتراماً كبيراً، رغم كل مآخذي عليه، وأهمها غياب الحريات المدنية والسياسية. كنت قد درست الثورة البلشفية، وتجربة التحول الاشتراكي... وكنت أقوم بتدريسها لطلابي. وكان جزء من احترامي راجعاً إلى ولعي بالأدب الروسي العظيم، الذي نهلت منه الكثير في صباي وشبابي، وكذلك موسيقى **ريمسكي كورساكوف** التي صاحبتني في أثناء دراستي العليا،

وفي لحظات مغامراتي الرومانسية في الولايات المتحدة. وأخيراً كان لدي، مثل أي مصري عربي، إحساس بالامتنان لتضامن الاتحاد السوفيتي معنا في قضايانا ومحننا وهزائمنا المعاصرة.

استضاف منتدى الفكر العربي الحوار الأول في عمان جولة جديدة من الحوار (العربي – السوفيتي) وبسلامة نية، دعوت كل القيادات الماركسية العربية للمشاركة في هذه الجولة. فمن مصر مثلاً دعوت الأساتذة **خالد محي الدين وإسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي ولطفي الخولي وأحمد حمروش ومحمد سيد أحمد**. وكذلك أقرانهم من السودان ولبنان والعراق، حينما كان ذلك ممكناً، وكانوا خارج السجون... وكالعادة كان الأمير **الحسن** يفتح اللقاء الرسمي لجلسات الحوار، ويشارك في بعضها كلما أمكنه ذلك. كما كان يحرص على استضافة المتحاورين للغداء "أو العشاء، أو حتى الفطور في القصر الملكي. وكان ذلك من أكثر المفارقات والطرائف . أي أن يدعي ماركسيون من المدافعين عن الطبقات الكادحة إلى قصور العائلات الملكية التي يطالبون لا فقط بإسقاطها، ولكن أيضاً بسحقها في ثورة دموية حمراء.

وكان **د.يعقوب زيادين** رئيس الحزب الشيوعي الأردني المنحل، والملاحق أمنياً، هو أحد المدعوين للمشاركة في الحوار... وكنت قد دعوت مكتب الأمير أن يتدخل وسيطاً مع الأجهزة الأمنية الأردنية أن ترفع يدها عنه، إن لم يكن بصفة دائمة، فعلى الأقل لعدة شهور. وقد كان... وشارك الرجل في الحوار. وعندما ذهبنا إلى القصر الملكي، وفي طابور الاستقبال، حينما جاء دوره، قدم نفسه **يعقوب زيادين** شيوعي أردني، فرد عليه المضيف بسرعة "وأنا **الحسن بن طلال،** أمير أردني" وانفجر الجميع ضاحكين. وربما كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي يدخل فيها شيوعي أردني القصور الملكية. وظل الرجل يذكر لي بالإعزاز هذا الموقف لسنوات عديدة تالية. لقد اعتبرها هو قمة في الشجاعة من جانبي!.

كانت هذه الحوارات هي المناسبة الأولى لزيارة الاتحاد السوفيتي. فرغم حرصي على ذلك منذ سنوات طويلة سابقة، إلا أن الفرصة لم تكن أبداً مواتية من قبل. أذكر أن آخر مرة حاولت فيها ذلك كانت في ربيع ١٩٧٣، ثم ولدت ابنتي **راندا** على غير توقع، قبيل الموعد المقرر للرحلة بأسبوعين.

لم تكن هناك رحلات مباشرة بين عمان وموسكو. لذلك كان علينا أن نطير من القاهرة، أو دمشق، أو بيروت. وكانت القاهرة، ومصر للطيران هي الأنسب والأرخص. وكانت الرحلة تستغرق فقط أربع ساعات، وكنت أظن أنها تستغرق ساعات أكثر. ولكن يبدو أن هذا التصور كان مرتبطاً "بالمسافة النسبية".

(Psychological Distance) أكثر منه بالمسافة المادية... فقد كنت، ربما مثل كثيرين غيري، نتصور أن عالم "ما وراء الستار الحديدي" لا بد أن يكون بعيداً!.

كنا في مارس ١٩٨٩، ومع ذلك كانت موسكو ما تزال مغطاة بالثلوج... وبدا مطار موسكو، عادياً متواضعاً، مثله في ذلك مثل مطار القاهرة القديم. ومع ذلك كان استقبالنا حاراً، والحفاوة بنا زائدة... لدرجة أدهشتني، إلى أن علمت أنه هكذا النظام في موسكو، إما استقبالات رسمية موغلة في بهرجتها، أو عادية متواضعة يتعرض فيها الزائر لطوابير انتظار، شأنه شأن أي مواطن سوفيتي عادي. وبما أن الوفد العربي كان يضم عدداً من أمناء الأحزاب الشيوعية العربية، فإن هؤلاء يعاملون، طبقاً للبروتوكول السوفيتي معاملة "رؤساء الوزراء"!.

وبدا ذلك واضحاً في بيوت الضيافة التي خصصت لأعضاء الوفد. وكان يطلق على كل من هذه البيوت اسم "داشا" (Dasha) وكانت تتراوح في حجمها وفخامتها وطاقم الضيافة، من المستوى الفاخر (A) لرؤساء الدول إلى المستوى (B) لرؤساء الوزراء أو أمناء الأحزاب الشيوعية، إلى المستوى (C) للوزراء أو من في مستواهم، وأخيراً المستوى (D) لوكلاء الوزارات أو مديري العموم ومن في مستواهم.

كل هذا لم أفهمه أنا في البداية، ولكن كان يفهمه جيداً **اليساريون العرب**، الذين ترددوا على موسكو مراراً من قبل. فقد عوملت أنا كأمين عام منتدى الفكر العربي ورئيس الوفد، كما لو كنت أمين أحد الأحزاب الشيوعية العربية. فوضعت في "داشا" من المرتبة (B)، وكانت بالنسبة لي قصراً منيعاً، بها قاعتين للاستقبال، وثلاثة صالونات، وغرفتي طعام، وثلاث غرف نوم، بكل منها حمام، كامل هذا عدا الحمامات الملحقة بقاعات الاستقبال والصالونات. وكانت حوائط الداشا محلاة بلوحات زينة لكبار الفنانين الروس. كذلك كان يتدلى من الأسقف نجف كيرستال فخم، وتتراوح أحجامها من قاعات الاستقبال (الأضخم) إلى غرف النوم (الأصغر). أما طاقم الضيافة فكان يتكون من ربة منزل (مديرة الداشا)، وطباخ، وثلاث سفرجية، وعاملي نظافة. كانت المائدة عامرة بمأكولات خفيفة، وزجاجات الفودكا، ومشروبات غازية أخرى. وكان هناك مرافقة خارجية (ليست من طاقم الداشا)، تقوم بالترجمة، وتقيم بالداشا طوال مدة إقامة الزوار لتقوم بالترجمة للطاقم وتلبية طلبات الضيوف الأخرى. وهي التي شرحت لي نظام الإقامة وتجولت معي ومع المديرة في بيت الضيافة، ثم في الحديقة المحيطة... وكان الجو ما يزال بارداً... فأسرعت بالعودة، حيث كانت المدفئة

موقدة، وموسيقى كورساكوف تصدح، وسألت عمن سيقيم معي من الزملاء... وقيل لي أن هذا البيت مخصص لي وحدي! قلت للمرافقة... أنني لا أحتاج كل هذه الغرف، وأن تخبر الرفيق **ألكسي** بذلك...هزت رأسها مستغربة... وقالت "سأفعل...". وبعد دقائق حضر الرفيق **ألكسي** بنفسه... وأخبرني أن **لطفي الخولي، وأحمد حمروش**، محتجين على وضعهما في دشا واحدة رتبة (D)، ورغم أن معهما **محمد سيد أحمد**، إلا أن هذا الأخير لم يحتج، وهو منكب على إعداد ورقته التي سيلقيها في اليوم التالي... ذهبت مع **ألكسي** لحل مشكلة **لطفي الخولي وأحمد حمروش**... وعاتبتهما على احتجاجهما، حيث بيت ضيافتهما قريب جداً من بيت ضيافتي. وفهمت منهما أن ذلك ليس سبب الاحتجاج... ولكن رمزية إنزالهما في المستوى (D)، وهو مستوى وكلاء الوزارات ومديري العموم... ولما استغربت هذا السلوك من قطبين ماركسيين، قالا ما معناه أننا إذا لم نفعل ذلك فإن المعاملة لبقية الرحلة ستكون أسوأ بروتوكولياً... لذلك هما يريدان حسم الأمور ووضع النقاط على الحروف منذ البداية!.

مكثت في الاتحاد السوفيتي حوالي عشرة أيام، كان منها ثلاثة أيام للحوار الرسمي بين ممثلي المنتدى والرفاق السوفيت... وكانت الأيام الأخرى لأحاديث غير رسمية مع روس، وعرب يعيشون في الاتحاد السوفيتي منذ سنوات طويلة.

من هؤلاء الصحفي **عبد الملك خليل**، مندوب الأهرام في موسكو، طوال العشرين سنة الأخيرة... ومن تعليقاته الطريفة أنني لن أجد شيوعياً أو ماركسياً حقيقياً بين من أصادفهم أو يدعون ذلك من الروس، وأنه لم يبق ماركسيون حقيقيون إلا خارج الاتحاد السوفيتي والبلدان الشيوعية، أي في بلدان العالم الثالث التي لم يحكمها الماركسيون بعد... فهؤلاء ما زالوا على مثاليتهم أو أوهامهم... وبمجرد مجيئهم ومعيشتهم هنا (أي في موسكو) فإنهم يبرؤون من هذه المثالية أو الأوهام... وهو أحدهم!.

ولكن الإخبارية الحقيقية لي كانت المرافقة التي عينتها السلطات السوفيتية لي واسمها "**تاتاشا**". كان عمرها، كما قالت ٣٣ سنة، وحاصلة على الدكتوراه في الفلسفة، وتجيد عدة لغات، ومتزوجة من أحد علماء الطبيعة النووية، الذي يكبرها بسبع سنوات... لاحظت أن "**تاتاشا**"، خلال الأسبوع الأول كانت متحفظة، وتؤدي واجبها بضمير حي، مع شيء من الخجل... جاءت إلى مائدة الإفطار يوماً متأخرة حوالي عشرة دقائق... وبالغت في الاعتذار عن التأخير، وأكاد أرى في عينيها الدموع تترقرق... وبذلت بعض الجهد في تهدئتها... وأنني لم أحتج شيئاً لتقوم بأدائه أو ترجمته ذلك الصباح على أية حال... قالت أنها لم تكن مهمومة بذلك فهي تدرك أنني يمكن أن أغفر لها... ولكن بقية الطاقم في

الداشا، سيبلغون السلطات عن هذا التأخير، وربما تفقد عملها كمرافقة لهذا السبب. سألت "وهل إلى هذا الحد التزام الناس بمواعيد العمل في الاتحاد السوفيتي... قالت... فقط حينما يريد الرفاق بأحدهم سوءاً، حقداً أو رغبة في الحلول محله... وهل هذه الوظيفة كمُرافقة ومُترجمة تعتبر من الأعمال التي يمكن أن يحقد عليها الرفاق... قالت" طبعاً... فأنا أحصل على ما يوازي مئة دولار شهرياً!"

"وما الذي أخرك هذا الصباح، وأنت تقيمين هنا في الداشا؟". ترقرقت الدموع في عيون **ناتاشا** الجميلة مرة أخرى... وسألت إن كنت مصراً على إجابة للسؤال... قلت "لا...لا... ليس السؤال مهماً" مسحت دمعة... وقالت سأجيب على كل حال، فهذا جزء مما علمنا إياه مؤخراً الرفيق **جورباتشوف**، وهو "المصارحة" (جلاسنوست)"، إن لدي فستانين فقط، ولا بد أن أغسل أحدهما كل ليلة، وأدعه يجف، وأقوم بكيه في الصباح... قبل أن آتي للمائدة... وقد كانت رفيقة أخرى تستخدم المكواة في عنبر المساعدين". ربت على كتف **ناتاشا**. ومن هذه اللحظة... بدأت تفتح قلبها، وتحدثني عن كل شيء بصراحة في الاتحاد السوفيتي، أو حياتها الخاصة، فعلمت أن زوجها، عالم الطبيعة النووية في جامعة موسكو يتقاضى ما يوازي مئة وخمسين دولاراً شهرياً... وأنهما يسكنان في شقة صغيرة مكونة من غرفة نوم وغرفة استقبال... وأنهما أجلا الإنجاب إلى أن يستطيعا الانتقال إلى شقة أوسع... ""وهل كان حالكما دائما بهذا الضيق في المعيشة"؟ قالت **ناتاشا** "لا كنا نحصل على نفس الدخل تقريباً منذ خمس سنوات، حينما تزوجنا... وكان يكفينا، ونوفر منه الربع تقريباً... وكنا نعتبر من المحظوظين... أما بعد إعادة البناء (البيروسترويكا) فقد أصبحنا في عداد الطبقة الوسطى الفقيرة... وأصبح المحظوظين الآن هم أصحاب المشروعات الحرة، حتى لو كانت صغيرة... حتى لو لم يكن أصحابها من ذوي شهادات الدكتوراه مثلي أنا وزوجي!"... هل معنى ذلك أنكما تفضلان عهد ما قبل **جورباتشوف**... سارعت وقالت "لا...لا... الآن لدينا هامشاً أكبر من الحرية".

قال أحد المتحدثين السوفيت في لقاء اليوم السابق لحديثي من **ناتاشا** "أن الاتحاد السوفيتي هو دولة أعظم، فقط من حيث قوته العسكرية... ولكنه دولة من العالم الثالث في مستوى معيشته وحضارته... إنكم في مصر تعيشون أفضل منا مرتين... وفي الأردن، التي زرتها العام الماضي تعيشون أفضل منا عدة مرات".

في اليوم الأخير، وقبل المغادرة مباشرة، قبلت **ناتاشا**، وتركت لها مظروفاً فيه مئة دولار.

العشاء الأخير مع الرفيق خالد

عدت إلى موسكو في حوار رابع وأخير في ربيع ١٩٩٠. وكانت تجربة مفعمة بالأسى والمفارقات.

في نهاية الحوار الثالث لفت الرفيق **ألكسي** انتباهي إلى كثرة "الماركسيين" في الجانب العربي... فسألته إن كانت هذه ملاحظة إيجابية أو شكوى قال "بصراحة، يا **سعد الدين**، أنها شكوى... أننا نعرف هؤلاء الماركسيين العرب جيداً... فنحن نتعامل معهم منذ عهد **نيكيتا خروشوف** وليس هناك ما نتعلمه منهم أو يتعلموه هم من هذه الحوارات... فرفقا بنا... كفانا ماركسيون عرب... وقد رأيت بنفسك مشاجراتهم الصبيانية على الداشا التي يقيمون بها... نريد في الحوار القادم مزيداً من رجال الأعمال العرب، وخاصة بين **بلدان النفط الخليجية**... ولا مانع من ماركسي عربي محترم واحد، مثل **د.فؤاد مرسي**...".

وظلت ملاحظة الرفيق السوفيتي ترن في أذني، كما حديث **عبد الملك خليل**، كما حديث **ناتاشا**، كما حديث الأستاذ الذي قال أن الاتحاد السوفيتي مجتمع عالم ثالث في كل شيء آخر غير القوة العسكرية. لذلك تعمدت، أو بالأحرى حاولت، أن يضم الوفد العربي أكبر عدد ممكن من رجال الأعمال ونجحت إلى حد ما. فكان معنا على سبيل المثال **د.عبد العزيز حجازي** و**د.علي لطفي** رئيسا وزراء مصريين سابقين، و**د.حازم الببلاوي** رئيس بنك تنمية الصادرات، و**د.جواد عناني** و**د.طاهر كنعان** من رجال الأعمال الأردنيين. ولكني دعوت أيضاً **د.فؤاد مرسي**، أحد الماركسيين العرب الذي كان ما يزال يحظى باحترام السوفيت، ربما لأنه زاهد يحترم نفسه، ولا يتكالب على المزايا المادية في موسكو. وكان معنا أيضاً صديقي السيد **يس**، الذي رشحته لخلافتي في المنتدى، و**علي الدين هلال**.

ركبنا الطائرة من القاهرة... وكانت خالية إلا من أعضاء وفدنا (حوالي ثلاثين)، وثلاثة أو أربعة آخرين، بينهم راكب يبدو خليجياً. كان معظم أعضاء الوفد في الدرجة السياحية، باستثناء **د.عبد العزيز حجازي** و**د.علي لطفي** التي قامت مصر للطيران نفسها برفع بطاقتي سفرهما إلى الدرجة الأولى. وحينما رأى أ. **حمروش** ذلك ألح على مسؤول مصر للطيران أن يفعلوا له نفس الشيء.

لاحظت أن **د.فؤاد مرسي** كان يجلس في صف من المقاعد بمفرده، ينظر من نافذة الطائرة، شارداً... بينما كان كل أعضاء الوفد يتسامرون ويهرجون، مثل رحلات المدارس. بعد فترة أقبلت على **د.فؤاد مرسي**، واستأذنت أن أجلس بجانبه، فقال "تفضل"، سألت "لماذا تجلس وحدك؟ وفيم تفكر، منذ أقلعنا من

القاهرة منذ ساعتين؟" نظر لي الرجل من تحت نظارته السميكة، التي أخفت علي قراءة تعبيراته الحقيقية... وقال "هذه هي المرة السادسة التي أزور فيها الاتحاد السوفيتي... ولكني أشعر، علي غير العادة، بقلب ثقيل"... سألته، "ولماذا... هذه المرة بالذات؟" قال الرجل بصوت يختلط فيه الأسى، بالمرارة، بالتألم "إنه الرفيق، صديقكم **جورباتشوف** الذي كشف المستور... ويقول لنا أن الأمر كله كان كذبة كبرى... أن الثورة والاشتراكية كانت كذبة كبرى!" سألته "وهل تصدق ما ينسب إلى **جورباتشوف؟**" قال "لم أعد متأكداً من شئ... لا أدري ماذا أصدق أو لا أصدق هذه الأيام!".

انبريت للدفاع عن الثورة والتجربة الاشتراكية، التي نقلت المجتمع الروسي من عداد العالم الرابع إلى أن يصبح قوة أعظم، على الأقل عسكرياً وفضائياً... وإن مشكلة الإتحاد السوفيتي أنه لم يجدد ثورته أو تجربته، حينما كان ذلك ممكناً، ليواصل منافسته مع الولايات المتحدة". سأل الرجل بشغف "ومتى كان ذلك ممكناً؟" قلت "منذ عشرين عاماً، أثناء عهد **خروتشوف** في الستينيات... مثلما جدّد **روزفلت** شباب الرأسمالية، في الثلاثينيات... وحين تكالبت القوى المحافظة في الحزب الشيوعي، وعزلت **خورتشوف**، وأجهضت محاولة التجديد، كان ذلك إيذاناً بمزيد من تخلف الاتحاد السوفيتي في سباق مع غريمته الرأسمالية، الولايات المتحدة...". سألني الرجل فجأة "**من أنت؟**"... بهتني السؤال، فلم أجب... قال "عفواً... أنا أعرف أنك **سعد الدين إبراهيم** أستاذ الاجتماع بالجامعة الأمريكية، الذي يقولون عنه أنه أمريكي... كيف تتحدث عن الإتحاد السوفيتي بهذا العمق، وبهذا التعاطف؟" قلت له وقد استرحت قليلاً، "لأن أهم صفة من الصفات التي ذكرتها عني يا دكتور **فؤاد**، هي أنني "عالم اجتماع"... وما ذكرته هو حصيلة معرفتي عن الثورات!".

اختطاف بن لادن

تركت **د.فؤاد مرسي**، الذي كان زملاؤه في الحركة الشيوعية المصرية يطلقون عليه إسماً حركياً هو "الرفيق **خالد**"، لأتفقد بقية الزملاء من أعضاء الوفد، وخاصة في الدرجة الأولى في مقدمة الطائرة... وقضيت عدة دقائق أتحدث مع **د.عبد العزيز حجازي** و**د.علي لطفي**... وبينما أنا عائد للدرجة السياحية، صادفت المسافر الذي كان يبدو أنه من الخليج، وسألني ما إذا كنت **د.سعد الدين إبراهيم**، فأجبته بنعم، فقام واقفاً وصافحني وعرفني كأحد قرائي المعجبين لمقالي الأسبوعي في مجلة الأهرام الاقتصادي... شكرته، وسألته عن اسمه فقال "أنا **طارق بن لادن**"... فسألته على الفور هل هو من أسرة **بن لادن**،

أصحاب الأعمال السعوديين... فقال بشيء من الفرح الطفولي، "نعم...نعم... هل سمعت بنا؟" (وكنت قد سمعت بهم فعلاً من مساعدتي **نعمت جنينة**، حيث تقدم أحدهم بطلب يدها بعد طلاقها الأول. وسألته أين هو متوجه؟ وفهمت منه أنه في طريقه إلى موسكو، ومنها إلى كازاخستان، حيث سيفتح مسجداً جديداً، تبرعت الأسرة ببنائه لمسلمي تلك الجمهورية السوفيتية... ولمعت في ذهني فكرة خاطفة... قلت له:

"يا سيد **طارق**... أنت ببناء ذلك المسجد تقصد خدمة الإسلام والعرب والمسلمين، في هذا البلد الكبير الذي بدأ ينفتح على العالم في ظل قيادة **جورباتشوف**... وانت في نفس الوقت رجل أعمال عربي ناجح ومعروف... ويقول الحديث الشريف، "ثلاثة أرباع الرزق في التجارة"... فلماذا لا تنضم إلينا في حوارنا الذي يبدأ غداً في موسكو، عن آفاق التعاون الاقتصادي بين العالم العربي والاتحاد السوفيتي؟".

وفوجئ **طارق بن لادن** بهذا الاقتراح الذي يأتيه من شخص تعرف عليه منذ دقيقتين... وطلبت منه أن أجلس بجانبه، حيث كان المقعد خالياً لأشرح له الموضوع... وكان أعضاء الوفد من ركاب الدرجة الأولى (**حجازي لطفي، حمروش**، يسترقون السمع، في شيء من المتعة والذهول... وعندما وافق **طارق بن لادن** على الفكرة... سحبته من يده لكي أقدمه إلى بقية زملائي من أعضاء الوفد! في الدرجة الأولى، أولاً، ثم في الدرجة السياحية... وحينما وصلت إلى الرفيق **خالد** (**د.فؤاد مرسي**)، سلم على **بن لادن**، ثم استدار نحوي، وقال مازحاً، "هذا حادث اختطاف" قالها بالإنجليزية" (This is the Jacking) ... وضحك **بن لادن** من أعماقه، وهو لا يصدق وقائع الدقائق الخمس الأخيرة... واتضح أنه يعرف معظم أعضاء الوفد بالاسم من متابعته لأخبارهم، أو لأنه كان يقرأ لهم...

والحقيقة أن أعضاء الوفد احتفوا به... وقد كانوا جميعاً يعرفون كم حاولت دعوة بعض رجال الأعمال من البلدان النفطية دون جدوى... كانت فكرة ذهاب أحدهم إلى الاتحاد السوفيتي في نهاية الثمانينيات ما تزال فكرة غريبة، إن لم تكن "شاذة"... من ذلك أنه باستثناء الكويت، لم تكن أي من بلدان **مجلس التعاون الخليجي**، قد بدأت علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي بعد... لذلك سعدوا جميعاً بهذا "الاختطاف"، كما سعدت أنا.

جلست مرة أخرى قرب نهاية الرحلة مع الرفيق **خالد**، ثم مع **طارق بن لادن**، الذي كان ما يزال غير متأكد من دوره، أو ما يمكن أن يسهم به في الحوار. فسألته ماذا درس في حياته... وعلمت أن معه درجة ماجستير في إدارة

الأعمال(MBA) من جامعة ميتشجان، وسألته ماذا يحتاج من الإتحاد السوفيتي لتنشئ فرعاً لشركتكم فيه؟ (المقاولات، والبنوك، والتجارة)... قال أن عليهم أن "يغيروا قوانينهم إلى قوانين السوق، كما فعلت مصر في السنوات الخمسة عشرة الأخيرة". قلت له هذا هو ما نقوله بالضبط... سنعطيك عشرين دقيقة في جلسة غداً بعد الظهر، لكي تشارك بأفكارك مع **د.عبد العزيز حجازي**، أبو الانفتاح الاقتصادي في مصر، و**د.علي لطفي** الذي أدار هذا الانفتاح لفترة... وعليك أن تعد ملاحظاتك مكتوبة الليلة بعد العشاء، أو غداً صباحاً... وأخيراً، أن تنزل معنا بفندق الكوزموبوليتان الذي سننزل فيه، وتنزل مع الوفد في أحد الداشات... كان الرجل (حوالي أربعين سنة) يسمع ويهز رأسه موافقاً، كما لو كان طالباً عندي في الجامعة، يتلقى تعليمات أستاذه!

العشاء الأخير
الأضواء تنحسر عن الرفيق خالد

حينما وصلنا إلى مطار موسكو، وفتح باب الطائرة... أسرعت إلى النزول، لكي أنبه الجانب السوفيتي إلى انضمام رجل الأعمال السعودي إلى الوفد العربي في الساعات الأخيرة قبل مغادرتنا العالم العربي، وبسبب ذلك لم يسعفني الوقت لإعلامهم مُبكراً بهذه الإضافة، فتهلل وجه الرفيق **ألكسي**... وهو يقول "حسناً... حسناً... حسناً... الآن ضمنا نجاح الحوار..." وبدأ يصيح بأعلى صوت لمندوبي الإعلام، بخبر وصول أول رجل أعمال سعودي إلى الاتحاد السوفيتي!.

وتسابقت الكاميرات إلى سلم الطائرة... ولأن **بن لادن** كام مميزاً بلباسه السعودي التقليدي، "وحطته وعقاله"، فضلاً عن أنه كان فارعاً (يشبه الأمير **سعود الفيصل** وزير خارجية السعودية)، فقد كان من السهل التركيز عليه، وتسابق الصحفيون السوفيت لتوجيه أسئلة له حول خططه الاستثمارية في بلادهم... وأول المشروعات التي سيبدأ بها... وعما إذا كان مفوضاً من حكومته لجس النبض في بدء علاقات دبلوماسية بين البلدين... ولا أظن أنه **طارق بن لادن**، أو أي من أفراد أسرته، قد حظي بمثل هذا الاهتمام الإعلامي من قبل... ولم يسمع العالم باسم "**بن لادن**" إلا بعد ذلك بعشر سنوات، حينما تورط أخوه الأصغر "**أسامة بن لادن**" في أحداث تفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام (١٩٩٨)، ثم في مُحاولة تفجير برجي مركز التجارة العالمي (نيويورك) والبنتاجون (واشنطن) في ٢٠٠١/٩/١١.

في خضم هذا الاهتمام الإعلامي **بطارق بن لادن**، نسي المستقبلون السوفيت بقية أعضاء الوفد... ولاحظت أن "الرفيق **خالد** كان آخر من هبط من

الطائرة... وآخر من أُفسِح له الطريق إلى قاعة كبار الزوار... هذا هو مؤسس الحزب الشيوعي المصري، الذي كان في أوقات سابقة يُقابل ويستقبل مثل رؤساء الحكومات... نعم لقد تغير الزمن... وأوشك العلم الأحمر، أن ينزل من سماوات موسكو.

حرصت أن أجلس أثناء العشاء على مائدة واحدة مع الرفيق **خالد فؤاد مرسي**، والزميل **سيد يس**، الذي كان أحد تلاميذ **د.فؤاد مرسي** في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية في الخمسينيات... كان الرجل في مزاج انسحابي حزين... وحاولت أنا و**سيد يس** أن نداعبه وندخل بعض البهجة على قلبه... وكان يستريح لتلميذه **سيد يس**، فتركتهما معاً في العاشرة مساء... وكان هذا هو عشائي الأخير مع الرفيق **خالد**، حيث انشغلت عنه بقية أيام الحوار... عدنا للقاهرة، وبعدها بثلاثة أشهر تقريباً، توفى **د.فؤاد** في حادث سيارة مأساوي في طريق مصر الإسكندرية الصحراوي وقد وقع الحادث بعد غزو العراق للكويت، وانقسام حزب التجمع الذي كان هو أحد مؤسسيه بسبب صعوبة الموقف السياسي الذي سيأخذه الحزب. ويقال إن هذا الانقسام. إلى جانب انقسام العالم العربي كله، إلى جانب الانفتاح الاقتصادي في مصر، وانهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي... كان أكثر من أن يتحمله الرفيق **خالد**، بكل مثاليته وطهارته الثورية... فمات في اللحظة التي مات فيها، قضاءً وقدراً، أو بإرادته الحرة "انتحاراً"... لقد ذهب السر معه، فقد كان وحده في السيارة، وفي وضح النهار. ورغم علاقتي القصيرة مع الرفيق **خالد**، واختلافنا الأيديولوجي، إلا أنني كنت مُغرماً بالرجل، لصلابته ووفائه لمبادئه، وتواضعه الجم. لذلك كتبت مقالاً أنعيه فيه، في صحيفة حزب التجمع اليساري، "الأهالي"، وبنفس عنوان هذه الفقرة "**العشاء الأخير**".

تركز الحوار العربي السوفيتي الرابع على آليات التحرير الاقتصادي، والانتقال به من "اقتصاد الأوامر" Command Economy إلى "اقتصاديات السوق" ... (Market Economy) ومن المفارقات أن الرفاق السوفيت كانوا ينظرون إلى مصر كنموذج يحتذي به في هذا الصدد... لذلك، صال وجال كل من **د.عبد العزيز حجازي**، و**د.علي لطفي** ، و**د.حازم الببلاوي**، في إعطاء السوفيت الدروس والعبر... واستمع السوفيت بشغف وأدب.

ولكن حينما تكلم **طارق بن لادن**، انطلقت الكاميرات مرة أخرى، كما حدث في اليوم السابق في المطار... وانهالت عليه الأسئلة مرة أخرى... ولأن الرجل كان يميل إلى الحياء... فقد تنفس الصعداء حينما انتهت الجلسة... وودعني وداعاً حاراً... وتواعدنا أن نظل على اتصال، وتبادل البطاقات، وانطلق هو إلى

المطار، ليلحق برحلة داخلية إلى كازخستان، حيث ينتظره جمع غفير، من المسلمين على رأسهم مفتي الاتحاد السوفيتي، لافتتاح مسجد **بن لادن** الكبير.

انتفاضة خبز، وتحول ديموقراطي في الأردن

في ربيع ١٩٨٩، ألغت الحكومة الأردنية دعمها لعدد من السلع الأساسية للتخفيف عن كاهل الموازنة العامة، بعد أن توقف الدعم العربي، الذي كان قد تقرر في قمة بغداد (١٩٧٩) لدعم دول "الصمود والتصدي" عام ١٩٧٩، وحتى لا تُستدرج هذه الدول إلى طريق كامب دافيد، الذي سلكته مصر، وأدى إلى إغضاب العرب، فجمدوا عضويتها في الجامعة العربية. وكانت الأردن، وسوريا، ومنظمة التحرير هي المستفيدة من هذا الدعم، والذي تقرر لمدة عشر سنوات، وتحملته الدول النفطية الغنية... ومع وصول الدعم إلى نهايته، كان على الأردن أن تعيد تنظيم بيتها الاقتصادي من الداخل... وضمن ذلك التنظيم ألغت الحكومة دعمها لعدد من السلع، منها مشتقات البترول، ذات الأهمية لأصحاب الناقلات، وخاصة على الطرق السريعة والطويلة. وبمجرد إعلان الخبر، شهدت منطقة "**معان**"، جنوب الأردن، احتجاجات واسعة، سرعان ما تحولت إلى اضطرابات، اضطرت معها قوات الأمن للتدخل، وإطلاق النار، وسقط عدد من القتلى والجرحى، وهو الأمر الذي زاد الموقف تعقيداً، واتسعت الاضطرابات من "معان" إلى مناطق أخرى في شرق وجنوب المملكة.

لم يكن الملك **حسين** في البلاد وقت وقوع الاضطرابات. وتولى ولي العهد إدارة الأزمة في أيامها الأولى، ولكن مع استمرارها واتساعها، قطع الملك رحلته وعاد إلى البلاد، حيث لمس خطورتها على كيان العرش نفسه. لقد كان المعتاد إن حدثت أي اضطرابات في الأردن، أن تكون في المخيمات الفلسطينية، ومُدن: عمّان، والزرقا، وإربد في شمال المملكة. أما معان، والسلط، والكرك، والعقبة في الشرق والجنوب فقد كان سكانها من البدو، والقبائل الأردنية القحة، شديدة الولاء للعرش الأردني عموماً، وللملك **حسين** خصوصاً... بل أن "حرس البادية" هو الذي كان يلجأ إليه النظام الأردني الحاكم في السيطرة على المخيمات الفلسطينية. لذلك كان انفجار الموقف في مناطق الولاء التقليدي للعرش الهاشمي، شيئاً جديداً، وخطيراً من وجهة نظر الأسرة المالكة، وهو ما استدعى قطع الملك لرحلته في الخارج والعودة للأردن.

تصادف غيابي أنا أيضاً في تلك الفترة، نتيجة حادث انزلاق أدى إلى كسر في ساقي اليمنى، ووضعه في الجبس، والخلود للراحة في القاهرة. ولكني بالطبع، كنت أتابع الأحداث في الأردن... وكان الأمير يعرف أنني في مرحلة

نقاهة... لذلك كانت مفاجأة أن يتصل بي هاتفياً، ويطلب حضوري إلى عمان على وجه السرعة، وإن تطلب الأمر فسيرسل لي طائرة خاصة. تحاملت على نفسي، ووجدت رحلة في مساء نفس اليوم إلى عمان. وفي المطار وجدت سيارة من القصور الملكية ومرافقين، أخذوني فوراً، إلى مبنى "القيادة"، وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مقر قيادة القوات المسلحة الأردنية. وكان مشهد البوابات الإلكترونية يذكرني بالأفلام الأمريكية... وحينما دخلت إلى ملحق القاعة الداخلية، انتظرت عدة دقائق، قبل أن يدخل علي الأمير، مرتدياً زيه العسكري الميداني... وعلى وجهه علامات الجدية... وبعد التحية والاعتذار لاستدعائي على عجل... قال أن "سيدنا"، (يقصد الملك **حسين**)، في قاعة الاجتماعات بالداخل، وقد تشاور طوال اليوم مع قيادات البلد، حول ما حدث في معان... ولكنه يريد أن يسمع لوجهة نظر خارجية، مهتمة بسلامة الأردن، دون أن تكون جزءاً من دوامته الداخلية... فأرجو أن تكون قد فكرت، وبلورت رؤية يمكننا أن نستفيد منها!.

وطبعاً كنت قد فعلت ما يطلبه الأمير... فمنذ بداية انتفاضة معان، ثم منذ اتصاله بي في القاهرة وأنا أفكر في الموضوع.

حينما اصطحبني إلى الداخل، قام الملك **حسين** وحياني بمودته المعهودة... ورآني بالطبع أتكئ على عكاز، وساقي ما زالت في الجبس... فبدا وجهه متألماً لحالي، وقدم اعتذاراً مشابهاً لاعتذار لأمير لاستدعائي... وقال مع ذلك أنه على يقين أنني أقدر حساسية الموقف... فأجبته وأنا متأثر، بدوري، من أدبه الجم "أنني أقدر الظروف تماماً"، وأن الأردن هو بلدي الثاني بعد هذه السنوات التي قضيتها في رحابه، وبين أهله... وأنني في خدمة هذا البلد الغالي...". سألني الملك مباشرة، هل لدي اجتهادات حول الموقف؟ سألت جلالته بدوري، هل كانت هناك ضرورة ملحة لإلغاء الدعم؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فلابد من إشراك الناس في القرار... وسأل كيف؟ بعد عدة محاولات، سأل "هل تقصد الديموقراطية؟"... فقلت نعم... وانفجر الملك وولي العهد ضحكاً... واتضح أنهما كانا يضحكان على محاولاتي في اقتراح أن الديموقراطية هي الحل دون أن أستخدم الكلمة التي تسبب للحكام حساسية! وحينما اطمأن قلبي بأنهما لا يعارضان من حيث المبدأ، قمت بعرض حيثيات البديل الديموقراطي، والرد على المخاوف المثارة حوله... وفي هذا السياق تحدثت عن شرعية النظام، مُقارنة بجيرانه في سورية والعراق، وانعدام المحاولات الانقلابية ضده خلال العشرين عاماً الماضية... وكان الملك ينصت باهتمام شديد، وهو يسمع لمراقب خارجي يصف التجربة الأردنية بموضوعية.

كـان مصـدر المخـاوف هـو نجـاح الإسـلاميين فـي الحصـول علـى أغلبيـة برلمانية، في حالة إجراء انتخابات حرة نزيهة، وإلى درجة أقل، خوف مماثل من تحالف يساري، يضم البعثيين والناصريين والقوميين العرب والماركسيين. وكان ردي على الهاجس الأول، وهو حقيقي، أن الإسلاميين الأردنيين، سواء كانوا إخوانا مسلمين أو حزب تحرير إسلامي ليسوا انقلابيين، ولا يعادون النظام الملكي الهاشمي، الذي عاملهم معاملة إنسانية، بينما كانوا مضطهدين أو ملاحقين في دول عربية أخرى... مثل مصر وسوريا والعراق، ثم إنهم في تقديري لن يستطيعوا الحصول على أغلبية مقاعد، مقارنة بأي تكتل حزبي واحد، ولكن ليس الأغلبية، بمعنى أن تحالفا أو تآلفا من كل القوى الأخرى يظل له الأغلبية. وفي كل الأحوال حتى في حالة حصول الإسلاميين على أغلبية المقاعد، فهي مخاطرة تستحق الخوض، مادام الدستور يسمح للملك بحل البرلمان... هذا إذا تجاوز الإسلاميون حدوداً غير مقبولة. وفي حالة تزمتهم اجتماعياً، فإن الناس هم الذين سيضجون بالشكوى... وملاحظتي الشخصية على أداء نوابهم الذين انتخبوا في مصر أو الكويت أنه كان أداء مسؤولاً ومعقولاً.

أما الهاجس المتعلق بتحالف يساري راديكالي فهو مبالغ فيه بعد أن قوضت مصداقيته، الأنظمة التي حكمت في العراق وسوريا وليبيا واليمن الجنوبي. وهز الملك رأسه، موافقاً.

شجعتني استجابة الملك لما أبديته من "اجتهادات"، على اقتراح بعض الضوابط ؟؟؟ لتبديد أو التخفيف من الهواجس تجاه الإسلاميين وفصائل اليسار والقوميين من ماركسيين وناصريين. وكانت أهم تلك الضوابط، هو الدعوة إلى حوار وطني شامل، ينتهي بصياغة "ميثاق وطني" أو "عقد اجتماعي"، يشمل آليات الالتزام بالتعددية، ويتحاشى استبداد الأغلبية أياً كان لونها الأيديولوجي. كما ينص هذا الميثاق أو العقد على الثوابت الأردنية، وفي مقدمتها احترام وحماية النظام الملكي والدستور وتحمس الملك **حسين** للفكرة، وطلب من ولي العهد دراستها وبلورتها، توطئة لتنفيذها.

حينما انصرفت من هذا اللقاء الملكي أحسست براحة عميقة... وشكرني ولي العهد... وقبل أن أستأذنه لمغادرة الأردن والعودة إلى القاهرة لاستكمال فترة النقاهة، بادرني بتكرار ما طلبه الملك منه... فقلت مداعباً "هذا ما طلبه سيدنا من سيدي، فما دخلي أنا بين شقيقين"، قال "هذا ما يطلبه رئيس المنتدى من أمين عام المنتدى"! ولم يكن هناك، على ما بدا فكاكاً من إعداد ورقة تفصيلية لبلورة ما تم الاتفاق عليه. وكالعادة جمعت العاملين في الأمانة العامة مع بعض أعضاء المنتدى الأردنيين . الذين أذكر منهم **ليلى شرف وجواد العناني وطاهر**

كنعان ـ للتداول، ولكن دون أن أخبرهم باللقاء الملكي، تاركاً ذلك لجلالته ولولي عهده إذا رغبا.

وتم صياغة ورقة عمل، قدمتها للأمير **الحسن**، وغادرت الأردن إلى القاهرة لعدة أيام... وتصورت أن ما جاء في ورقة العمل المذكورة إذا نفذ، فإن الأمر سيستغرق عدة شهور، وربما سنة على الأقل. ولكن لدهشتي السارة، أعلن الملك **حسين** مبادرة التحول التدريجي للديموقراطية خلال أيام... ثم بدأ الحوار، ثم عقد مؤتمر وطني، وتمت صياغة ميثاق وطني... خلال أسابيع قليلة... وأعلن عن عقد انتخابات نيابية حرة في الخريف... وتمت هذه الانتخابات فعلاً.

وكان هذا هو الإنجاز الرابع الكبير أثناء عملي في المنتدى.

ماذا نفعل مع مجنون العراق؟

كان إنجازي مجلس التعاون العربي والتحول الديموقراطي في الأردن في العامين الآخرين لعملي في المنتدى... وكنت في الواقع أُلملم أوراقي وأمتعتي وكتبي استعداداً لأقفال ملفاتي في الأردن، مع شعوري العميق أنني قد قمت بمعظم، إن لم يكن بكل، ما يمكنني عمله. وكانت مصر قد رشحت، وأقرت الدول الثلاثة الأخرى أميناً عاماً مصرياً، هو **د.حلمي نمّر**، رئيس جامعة القاهرة السابق، وعميد المحاسبين المصريين، وعضو مجلس الشعب المصري. وكان رجلاً فاضلاً، لم أكن أعرفه شخصياً من قبل... ولكنه جاء إلى المنتدى للتعرف بي. وكان شقيق رئيس جهاز المخابرات في مصر. ولا أدري إذا كان شقيقه قد أبلغه أن الدول العربية الأخرى كانت قد طرحت اسمي كمرشح لنفس الموقع أم لا. واستقبلته بحفاوة وعرضت عليه أي مساعدة قد يحتاجها في عمله الجديد أو في استقراره المعيشي في عمان، حيث تقرر أن تكون مقر الأمانة العامة. كان الرجل بسيطاً ومتواضعاً للغاية... واتضح لي من الحديث معه أن صفة "التواضع" تمتد إلى معلوماته وخبراته العربية. فباستثناء عدة سنوات قضاها كأستاذ للمحاسبة في جامعة الكويت في أوائل السبعينات، فإنه لم يزر أو يعيش في أي بلد عربي آخر. وكانت هذه، مثلاً أول زيارة يقوم بها إلى الأردن... ولم يكن قد زار العراق أو اليمن بعد. ولم يكن لديه اهتمامات عربية سابقة... واعترف لي الرجل بذلك، وطلب ما يمكن أن يقرأه من منشورات المنتدى، وكذلك أي مواد عن العراق واليمن... واستغربت بعد أن أعطيت الرجل ما تيسر من كتاباتي ومطبوعات المنتدى ما الذي كان في ذهن الرئيس **مبارك** بالضبط حينما وافق على ترشيح **د.حلمي نمّر** ؟ وخلصت إلى أن التفسير الوحيد هو أنه شقيق

رئيس المخابرات المصرية، وأن اقتراب مصر من مجلس التعاون العربي سيغلب عليه النزعة التكنوقراطية المخابراتية.

كان الأمير **الحسن** قد قابل د.**حلمي نمّر** وكان يعلم أنه جاء ليقابلني، لذلك سارع بالاتصال ليعرف انطباعي عن الرجل وقد حاولت أن أكون مهذباً... ولكن الأمير كان مباشراً وصريحاً، وقال "الله يكون في عوننا على ما تفعله بنا الشقيقة الكبرى"... واستمر يشكو لعدة دقائق، كما لو كنت أنا المسؤول عن اختيار الأمين العام لمجلس التعاون العربي.

كان للدكتور **حلمي نمّر** نائب عراقي، في منصب الأمين العام المساعد، وقد قابلته بعد ذلك بعدة أيام في مناسبة عامة، وتحدثت معه لعدة دقائق. وكان واضحاً أن الرجل كادر بعثي متمرّس، وأنه سيفترس رجلنا الطيب، إذا وقعت أي مواجهة.

حزنت لهذه البوادر غير المشجعة... وحزنت أكثر حينما عقدت دورة للرؤساء في بغداد، وأهدى الرفيق **صدام** لكل رئيس تحرير صحيفة صاحب رئيسه، سيارة مرسيدس، فعادوا إلى بلادهم كل يُسبّح بحمد الرئيس القائد.

ولكن الذي أزعج الملك والأمير، كان بعد ذلك بعدة أسابيع، حينما أصدر الرفيق **صدام** تصريحاً عنترياً، يهدد فيه إسرائيل باستخدام "سلاح التدمير الشامل الكيماوي المزدوج، القادر على إحراق نصف إسرائيل...". ولم يكن ثمة ما يدعو إلى مثل هذا التصريح، الذي استخدمته إسرائيل دعائياً ضد العراق وضد العرب، واستعادت به زمام المبادرة في الحرب الدعائية، التي كانت كفة الفلسطينيين فيها هي الراجحة مع استمرار انتفاضة أطفال الحجارة.

واتصل بي الأمير **الحسن** ليشكو من "غباء هذا المجنون العراقي...". ولم أكن قد سمعت في السنوات التي عرفت فيها الأمير لغة بهذه القسوة في وصف أي عربي من قبل سواء كان رئيساً أو مرؤوساً. وأضاف الأمير أن من ينوي استخدام أي سلاح، ناهيك عن مثل هذا السلاح، لا يملأ الدنيا ضجيجاً قبل استخدامه... ولكنه يفاجئ العدو باستخدامه! وحاولنا عبثاً إيجاد تفسير عقلاني لتصريح **صدام**. وكانت خطورة مثل هذه العنتريات أن صاحبها دخل مع الأردن، ومصر، واليمن في مشروع تنسيقي مشترك هو مجلس التعاون العربي. هذا في الوقت الذي نرتبط فيه مع إسرائيل بمعاهدة سلام، وفي الوقت الذي تهاون فيه الأردن إسرائيل لإبقاء حدودها الطويلة مع الدولة العبرية هادئة، وعدم إعطائها أي مبرر للاستفزاز أو العدوان.

غزو الكويت

كانت مخاوف الأمير **الحسن** من جنون **صدام** نابعة لا فقط من تصريحاته المستفزة على لإسرائيل، ولكن أيضاً لأنه أجج مشاعر الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وفي الأردن على السواء. فأكثر من نصف سكان الأردن من أصول فلسطينية... وتخترقهم المخابرات والدعاية العراقية من بداية حرب الخليج.

وواقع الأمر أن المخابرات والدعاية العراقية كانت قد نجحت أيضاً في اختراق الشرق أردنيين. وكان نادراً أن يجد أي مراقب أي نقد للعراق أو **لصدام حسين** في الصحافة الأردنية.

سيتضح بعد ذلك أن **صدام حسين** كان بتصريحاته النارية الجوفاء ضد إسرائيل، التي لم يكن قد أطلق عليها رصاصة واحدة في العشرين سنة التي حكم فيها العراق، كان في الواقع يخطط لشيء آخر، وهو ضمان التأييد الفلسطيني الشعبي في الأردن والأراضي المحتلة ولبنان والخليج، في مغامراته القادمة.

وكانت مغامرة مجنون العراق التالية هي غزو الكويت، جارته العربية الصغيرة المسالمة في الجنوب.

ففي الساعات الأولى من اليوم الثاني من أغسطس، اجتاحت الدبابات والمدرعات العراقية الحدود في طريقها إلى العاصمة الكويتية. وخلال ست ساعات كانت قوات الغزو العراقية قد سيطرت على الكويت، وقتل من قتل من الكويتيين الذين حاولوا المقاومة، بمن فيهم أحد أفراد الأسرة المالكة. ولكن معظم أفراد الأسرة المالكة، بمن فيه أمير البلاد، الشيخ **جابر الصباح**، فروا من الكويت، عبر الحدود السعودية.

وتغير الوطن العربي، كما لم يتغير إلى الأسوأ، منذ نكبة فلسطين، قبل ٤٢ عاماً. فقد انقسم العالم العربي حول هذا الحدث الكارثي، كما لم ينقسم من قبل في تاريخه المعاصر.

ويصادف أنني تركت عمّان، الليلة السابقة للغزو، بعد أن سلمت مسؤولياتي لأمين عام جديد، هو الأستاذ السيد **يس**، وقامت الدنيا ولم تقعد... وكانت محنة لي ولكل العرب.

كانت هناك مقدمات للغزو... فمنذ ربيع ١٩٩٠ والعراق يتحرش بالكويت... ويدعي أنها تجور على حقوقه النفطية في المناطق الحدودية بين البلدين، ويطالب بتعويضات بالمليارات. وكانت هذه التحرشات والمطالبات مصدر استياء كويتي شديد، على المستويين الرسمي والشعبي، فقد وقف الكويت مع العراق مسانداً، خلال حربه مع إيران... وكانت هذه المساندة مادية ومعنوية، ومن كل مستويات المجتمع الكويتي.

ولأنني كنت ضد الموقف العراقي العدواني في حرب الخليج، فقد كان لي مناقشات خلافية شديدة مع أصدقائي الكويتيين بسبب هذا الاندفاع في تأييد **صدام**... وكان في مقدمة من اختلفت معهم في هذا الصدد الدكتورة **سعاد الصباح**، التي دأبت على زيارة العراق، والمشاركة بقصائد نارية في مهرجانه الشعري، المعروف باسم "ملتقى بغداد"... وكان **صدام حسين** من جانبه يحرص على لقائها في كل زيارة تقوم بها للعراق... ووصل الأمر في قمة تأييدها للعراق في حربه الظالمة ضد إيران أنها في سنوات الحرب الأخيرة كانت تتبرع بملايين الدولارات للمجهود الحربي العراقي، إما مباشرة، أو بشراء معدات وتجهيزات كان يحتاجها الجيش العراقي، وشحنها عن طريق الأردن... ووصل خلافنا حول هذا الأمر في أحد المرات إلى اتهامي بالغيرة عليها من **صدام**...! ويومها اندهشت، وابتسمت... وسألتها مشدوهاً، وهل هناك مبرر لمثل هذه الغيرة؟ فقامت، واقتربت مني وقبلتني، كما لو كانت تطمئني، وتؤكد لي حبها... كان المشهد غريباً... وفيه شيء من الطفولية... واستمرت هي تشرح لي سبب تعلقها بالعراق... حيث قضت طفولتها في شط العرب، وكان والدها، وهو من أطراف الأسرة المالكة الكويتية، مغضوباً عليه، أو غاضباً من الأسرة... وكعادة تلك السنين أختار منفى اختيارياً في جنوب العراق... وتعرضت **سعاد** لانتقادات من الصحافة الكويتية بسبب اندفاعها المبالغ فيه تأييداً للعراق، حتى بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية... وكان يشاركني في نفس النقد صديقها الشاعر **نزار قباني**... فاتهمته هو الآخر بالغيرة من علاقتها **بصدام حسين**!.

سُعاد في بغداد ليلة الغزو

كان طبيعياً أن يصيبني الغضب لما فعله **صدام** بالكويت وبالوطن العربي كله، وأن يصيبني القلق على أصدقائي الكويتيين، وفي مقدمتهم **د.سعاد الصباح** وعائلتها، الذين كنت أعرفهم فرداً فرداً ـ الزوج، **الشيخ عبد الله**، والولدين: **محمد ومبارك**، والبنتين: **أُمنية وشيماء**. وكنت أعلم أنهم يقضون الصيف بين لندن وبيتهم الريفي، اتصلت بهم فور سماعي الأخبار... رد علي الشيخ بلهجة لم أفهمها... وكان الرجل مريضاً، ويصعب عليه الحديث، ولكن فهمت منه أن **د.سعاد** ليست موجودة الآن في المنزل، طلبت أن أتحدث مع الابن الأكبر **محمد**، الذي كان وقتها في السابعة عشرة من عمره... قال "عمو... الماما مسافرة خارج لندن، وتعود اليوم أو غداً... ولكننا جميعاً بخير".

في تلك الفترة كانت العلاقة بيني و**د.سعاد** قد توطدت للغاية... للدرجة التي كنت أعرف منها كل تحركاتها وسفرياتها مقدماً... وكانت لدي أرقام تليفوناتها

في الكويت، وجنيف، وباريس، ولندن، والقاهرة فاتصلت بهذه الأرقام جميعاً، ولم أجدها... وبعد يومين من القلق، اتصلت هي بي من لندن، وكانت بالطبع غاضبة، وحزينة، ومكتئبة... بسبب ما حدث، وحاولت رفع روحها المعنوية، ووعدتها بأنني وكل المؤمنين بالحقوق الإنسانية وحقوق الشعوب لن ندخر جهداً، حتى تزول الغمة، وتعود الكويت لأصحابها... وسألت "هل تعتقد ذلك فعلاً ؟" وأعدت تأكيد أن العالم لن يسمح **لصدام** أن يبتلع الكويت. وأننا في مصر كونا مجموعة عمل لمتابعة الموقف، وحث الحكومة المصرية، على إدانة الغزو، والدعوة إلى قمة عربية طارئة لاحتواء هذه النكبة... سألت من هي المجموعة... وأخبرتها أنها تضم **د.أحمد كمال أبو المجد**، و**د.علي الدين هلال**، و**د.عمر محي الدين**، و**د.إبراهيم سعد الدين**، و**د.إبراهيم صقر**، واللواء **أحمد فخر**، واللواء **أحمد عبد الحليم**... وانتعش صوتها فجأة... وبدأت تسأل عن التفاصيل، وعما إذا كنت أستطيع إرسال ما توصلنا إليه بالفاكس... وتلاشى من صوتها نبرة الحزن والاستكانة التي لمستها في بداية المكالمة.

ومع إحساسي أنها استعادت توازنها وطبيعتها، سألتها أين كانت في اليومين الماضيين؟ توقفت عن الحديث لحظات، ثم قالت حينما أراك سأخبرك! شككت لوهلة أنها ربما كانت في موعد رومانسي ولا تريد أن تخبرني على التليفون... فلم ألح عليها.

ولكن حينما رأيتها في لندن بعد أسبوعين، اختلت بي جانباً، واقترحت أن نخرج وحدنا لأنها تريد أن تحدثني في أمر خاص، جداً، قالت: "أنت تعلم كم أنت عزيز علي... وآمل أن أكون أنا أيضاً عزيزة عليك بنفس الدرجة، وأنك ستحفظ سري... لقد سألتني أين كنت، حينما اتصلت صباح الغزو بمنزلنا في لندن، وبكل الأماكن التي أتردد عليها... ولم تجدني. هل تعلم أين كنت... كنت في بغداد... أراك مشدوهاً، ومعك كل الحق... لقد اتصل بي **صدام** قبل الغزو بيومين، يطلب مني أن أحضر إلى بغداد فوراً، دون أن أخبر أحداً... ذهبت في اليوم التالي... وأخبرت الأسرة أنني سأتغيب يومين أو ثلاثة عند صديقة على الشاطئ لأنتهي من اللمسات الأخيرة لأحد دواويني الشعرية... استقبلني كبير أمناء القصر الجمهوري في المطار، ومنه إلى أحد قصور **صدام**، حيث استقبلني طاقم الضيافة، إلى حيث سأقيم... وقدموا لي بعض المشروبات... وفهمت أن الرفيق **صدام** سيلحق بي للعشاء... كانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء... في منتصف الليل وصل الرفيق، وأدخلت إلى قاعة الطعام... ولم يكن وقت العشاء هذا متأخراً طبقاً للعادات العراقية في فصل الصيف... كانت قاعة الطعام تطل على نهر دجلة، وكان الطبق الرئيسي هو "السمك المسقوف"، الذي

اشتهرت به بغداد في الصيف... وكان ترحيب الرفيق **صدام** بي ترحيباً حاراً أكثر من المعتاد... وساورتني الشكوك أن يكون سيساومني على نفسي في هذا القصر، ونحن وحدنا، وبين حراسته، وفي بلده، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل... وبعدما تناولنا الطبق الرئيسي... نظر **صدام** في ساعة يده... وقال أن الشيخ **عبد الله المبارك** زوجك، كان الأولى بحكم الكويت... ولكن الأسرة بخسته حقه، كما بخست العراق نفطه... والليلة لدينا الفرصة لإحقاق الحق، **عبد الله المبارك** يعود إليه عرش الكويت، والعراق يعود إليه نصف نفط الكويت. فماذا تقولين يا **سعاد**؟ وقبل أن أنطق بكلمة، تلقى **صدام** مكالمة هاتفية... بعدها نظر إلي مبتسماً وقال لقد وصلت قواتنا إلى مشارف العاصمة... طول هذا الوقت وأنا مذهولة لما يحدث... وكيف لي أن أخرج من العراق سالمة... قلت **لصدام** لا بد أن أعود فوراً إلى لندن لأخبر زوجي بهذا العرض السخي... على أمل أن يقبل فنعود إلى الكويت فوراً... لم أنم طول الليل... وفي الصباح الباكر طلبت أن تسمح السلطات العراقية لطائرتي الخاصة بالإقلاع، وهو ما تم فعلاً في حوالي العاشرة صباحاً... وبعد أن حدثني **صدام** مرة ثانية لتأكيد سرعة ما أشار به، وإلا فإن لديه بدائل كويتية أخرى للتعاون وأعطاني إثنى عشر ساعة للرد عليه... وغادرت القصر... وكنت أتنفس الصعداء كلما اقتربت من مطار بغداد... وفي المطار تلقيت مكالمة أخرى وأخيرة من **صدام**: إذا كان زوجك الشيخ **عبد الله** قد تقدمت به السن أو اعتلت صحته فليفكر هو وأنت في ولدكم **محمد**، الذي يمكن يحكم فوراً، ألم يبلغ الثامنة عشرة بعد ؟ شكرته، وأكدت له أن كل اقتراحاته ستتم مناقشتها فوراً مع الأسرة بمجرد وصولي إلى لندن... وأقلعت الطائرة... وخرجنا من الأجواء العراقية... وبدأت قراءة الصحف العراقية التي جمعها طاقم الطائرة من المطار... واستمعت للإذاعات العالمية... واقشعر جسدي وانخرطت في بكاء على وطني الذبيح وطول الرحلة، وأنا بين السماء والأرض كنت أشعر بأن كابوساً يطبق على أنفاسي، وأتمنى أن أستيقظ من هذا الكابوس... كانت الجرائد على مقربة مني... تتحدث عن تحرير المحافظة السادسة عشر، التي هي الكويت، وعودتها إلى أحضان أمها العراق بعد طول انفصال... كنت أتذكر مناقشاتك المحتدة معي عن طبائع الاستبداد، وعن أطماع **صدام** التي ليس لها حدود... وكم كنت صادقاً في حدسك، وكم كنت أنا واهمة أو مخمورة... وطبعاً حكيت للشيخ **عبد الله ومحمد** كل ما حدث... وأحسست بغضب مكتوم في صدريهما... ونبهاني على ألا أبوح لأحد بما حدث... وإلا كانت فضيحة بجلاجل... وكيف سيفترسني أهل الكويت، خاصة وهم كانوا مشحونين ضدي قبل الغزو... وقد تعاهد ثلاثتنا أن يبقى السر، سر

رحلتي إلى بغداد بيننا... ولكني شعرت، حتى وأنا في الطائرة، بأنك لا بد أن تعرف الحقيقة... وأنا على يقين أنك ستحفظ سري".

استمعت إلى الصديقة المكلومة... ولم يكن لدي ما يمكن أن أقوله في هذا الموقف، غير أنني وجدت يدي تمتد إلى يدها ليتعانقا في صمت لعدة دقائق.

آخر لقاء بسعدون حمادي

استجاب الرئيس **مبارك** لتوصيات لجنة العمل، التي اجتمعت ورفعت تقريرها إلى الرئيس من خلال **د.أحمد كمال أبو المجد**... وألقى الرئيس خطاباً إلى الشعب والأمة، استعرض فيه الأحداث المحمومة للتوسط بين العراق والكويت، وكيف تلقى وعوداً عراقية صارمة بأن العراق لن تفعل شيئاً يؤدي إلى تدهور الموقف ما دامت الكويت لا تستفزهم... ووعدت الكويت الا تفعل شيئاً يمكن تفسيره من قريب أو بعيد بأنه استفزاز... أكثر من ذلك اتفق الطرفان على إرسال مندوب رفيع المستوى لاجتماع في جدة لمواصلة خطوات التهدئة... وقال الرئيس **مبارك** ما معناه أن أحد الطرفين قد حنث بوعده، وكان ما كان وهو أمر خطير ولا يمكن السكوت عليه عربياً، حتى لا تفتح الباب لتدويل هذه الأزمة عالمياً، لذلك فهو يدعو لمؤتمر قمة عاجل في القاهرة يوم ٨/١٠ لتصفية هذه الأزمة عربياً.

في هذه الأثناء، وقبل موعد القمة بثلاثة أيام، اتصل بي الدكتور **سعدون حمادي**، رئيس المجلس الوطني العراقي (البرلمان)، وكان في القاهرة لحضور إحدى اجتماعات منظمة المؤتمر الإسلامي، التي كانت مقررة سلفاً. وكانت تجمعني بالرجل صداقة تعود إلى عام ١٩٦٦، أيام كنت رئيساً لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وكنت قد دعوت كل رؤساء المنظمة السابقين لي (كنت أنا الرئيس رقم ١٥)، وهو أحدهم (الرئيس الثالث). ومنذ ذلك الوقت ونحن نتراسل ونتزاور، أتصل به إذا كنت في بغداد، ويتصل بي حينما يأتي إلى القاهرة. وذهبت لرؤيته حيث كان يقيم في فندق سميراميس (المملوك لشركة كويتية)... رحب بي... وطلب لي شاياً ورأيت أن أدخل في الموضوع مباشرة، فسألت ما هذا الذي فعله صدام بالكويت ؟ فرد الرجل بهدوء مصطنع "لا شيء أكثر من استرداد المحافظة رقم ١٦، وقد تم ذلك بسرعة وهدوء، وانتهى الأمر في ستة ساعات قلت وهل تعتقدون أن العالم سيسكت على ما فعلتموه؟ أجاب بأن "هناك الآن أمر واقع جديد، سيتعود العالم على التعايش معه من أجل مصالحه". سألته هل أنتم قادرون على خوض حرب جديدة، ستكون أمريكا طرفاً فيها؟ أجاب بكل ثقة "نعم، ونحن على استعداد للتضحية بستة مليون

عراقي، وهو العدد الذي زاد في ظل حكم البعث للعراق" راجعته فيما سمعته "هل أنتم جادون في التضحية بستة مليون عراقي فعلاً؟ ولماذا يا دكتور **سعدون؟**" أجاب الرجل بكل جدية "نعم... من أجل الكرامة". شعرت بغصة في قلبي... قمت، واستأذنت في الرحيل... ولم يكن الشاي قد وصل بعد... وظل الرجل يرجوني أن أمكث قليلاً، ولو لتناول الشاي. ولكني حقيقة كنت أشعر بغثيان شديد... فأصررت على الرحيل، ومددت يدي مودعاً الرجل... ولم أره بعد ذلك!.

لجنة التضامن مع الشعب الكويتي

أخذت المبادرة بموافقة فريق العمل الذي اجتمع يوم ٨/٤ أن يكون الفريق هو نواة لجنة مصرية للتضامن مع الشعب الكويتي من وفي غضون أيام كان عدد المشاركين في اللجنة قد تجاوز المئة. وبدأنا مجموعة من الأنشطة العامة، ندوات، ورش عمل، مقالات في الصحف، أحاديث في الإذاعات والتليفزيونات العربية. وجعلت من مركز ابن خلدون أمانة عامة مؤقتة للجنة. وكتبت أنا شخصياً سلسلة مقالات في الأهرام ربما كان أشهرها بعنوان "الهاب الوهاب"، في إشارة إلى عرض **صدام**، إعطاء نفط الكويت مجاناً لمن يحتاجه من بلدان العالم الثالث الفقيرة، ومقال آخر بعنوان "رسالة إلى قمة القاهرة"، ظهر صباح يوم اجتماع القمة (١٩٩٠/٨/١٠).

انضم إلى لجنة التضامن عدد من الكويتيين الذين كانوا يقيمون بالقاهرة أو الذين لجأوا إليها بعد الغزو. وفتحت مركز ابن خلدون لاستضافة بعض الأساتذة والمفكرين الكويتيين الذين تواجدوا في القاهرة بعد الغزو – مثل **د.خلدون النقيب، ود.كافية رمضان.**

وحينما أتت **د.سعاد الصباح** في زيارات متعاقبة إلى القاهرة كنا نعد لها ولشعراء مصريين آخرين متعاطفين مع قضية الكويت. وكانت الأمسية الأولى لنصرة الكويت في حديقة منزلنا بالمعادي، ثم بعد ذلك في اللجنة المصرية للتضامن الأفرو ـ أسيوي.

كذلك كنت أدلي بحديث يومي لإذاعة "صوت الكويت الحرة"، التي كانت ترسل من جدة.

المناخ العدائي في عمان

خلفني في الأمانة العامة لمنتدى الفكر العربي الزميل والصديق **السيد يس**، الذي كان مديراً لمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية وكان لهذه الخلافة قصة لا تخلو من الطرافة والمفارقة. فهو كان حريصاً لدرجة

كبيرة على أن يخلفني في هذا الموقع، لاعتبارات مادية. فقد كان راتبه في الأهرام لا يكفي حاجاته وحاجات أسرته المتعاظمة... وكان بالقياس. لصديقيه (**علي الدين هلال وسعد الدين إبراهيم**) الأكثر عدداً، والأقل حيلة في تنمية موارده. ورغم أن سياسة المنتدى كانت تنويع جنسية الأمين العام، بحيث لا نختار لهذا الموقع شخصين متتالين من نفس القطر العربي، إلا أنني كنت أنتهز اعتذار آخرين (مثل **غسان سلامة** من لبنان) للدفع باسم **السيد يس**، وكانت لجنة الترشيح تعتذر بأدب... ونتيجة الحاجة سنة بعد أخرى كنت أرشحه مجدداً، إلى أن صارحني الأمير بأن شخصية الرجل تبدو غير جذابة لكثير من الأمناء... وتصادف أن حضر **السيد يس** مؤتمراً نظمته زوجتي في منتجع بلاجيو بإيطاليا، حيث تعرف وبدأ علاقة رومانسية مع أستاذة أردنية هي **د.أميمة الدهان**... فانتهزتُ هذه الفرصة حينما طرحت اسم **السيد يسن** على الأمير **الحسن** للمرة الثالثة، بإضافة أن هناك مشروعاً زوجياً محتملاً بينه وبين أحد الأردنيات، وكنت أعلم أنه معجب **بأميمة**، فتهلل وجهه وقال ولماذا لم يخبرني بذلك منذ البداية؟... المهم تحمس الأمير، وكذلك لجنة الأخبار، وبالتالي مجلس الأمناء، وتم اختيار **السيد يس** أميناً عاماً... وقبل استلامه العمل بأسبوع تم عقد قرانه على **أميمة** . هو في الخامسة والخمسين وهي في الخامسة والأربعين... ولم يكن قد سبق لها الزواج، بينما كان ذلك هو الزواج الثاني بالنسبة له، بعد أن ترمل منذ عدة سنوات سابقة، وكان له ثلاثة أبناء كبار من زواجه الأول. وظلت **أميمة** تشكرني وتكيل لي الثناء لما أسديته لهما من جميل... وكذلك كانت ممتنة للغاية لأنني قد ساعدت شقيقاً لها في تعيينه أمين مكتبة... اتضح أن هذا الثناء (المبالغ فيه في رأيي)، كان سبب أول أزمة صامتة بين العروسين... بل وترتب عليها جفاء متزايد، لم أكن أعرف سببه في البداية إلى أن أخبرتني **أميمة** نفسها بتلك الحقيقة بعد شهور!.

كان من سوء حظ الأمين العام الجديد، تزامن عمله مع انفجار أزمة الخليج الثانية، ممثلة في غزو الكويت. وكان الشارع الأردني متعاطفاً، بل ومؤيداً **لصدام حسين**... وتأثر السيد **يس** بهذا المناخ، وانعكس ذلك في بعض تصرفاته العامة. من ذلك مثلاً أنه حرر استمارة لاستبيان آراء أعضاء المنتدى حول ما حدث للكويت يوم ١٩٩٠/٨/٢، ولم يصف الحدث كغزو، وهو ما أغضب من في المنتدى من الخليجيين، وكانوا يمثلون حوالي ثلث العضوية، ولكنهم يساهمون بثلثي موارد المنتدى. فانهالت احتجاجاتهم، واستقالات البعض، وطلب البعض تجميد عضويته. وفي كل الأحوال امتنع معظمهم عن أداء اشتراكات العضوية والتبرعات السنوية للمنتدى... وكان شهر سبتمبر هو الشهر الذي ترد

فيه هذه الموارد، وهو بداية موسم النشاط. وفجأة وجد السيد **يس** نفسه والمنتدى في مأزق، فأصابه الذعر، وبدأ يشكو - لا من مقاطعة الخليجين وإنما من الأمين العام السابق الذي ترك له المنتدى خرابة مفلسة"!!.

أرسل لي الأمير في أواخر سبتمبر لاجتماعات لجنة إدارة المنتدى، التي كانت تضمني ونواب الرئيس وأمين الصندوق **د.أسامة الأنصاري** (من سوريا) وبدأ السيد **يس** في الشكوى من أنني تركت له المنتدى "قاعاً صفصفاً"... لم أرد عليه، ولكن أمين الصندوق هو الذي تولى الرد، بطريقة علمية قارن فيها "المقبوضات" (أي الواردات) والمصروفات في شهري أغسطس، وسبتمبر، ويناير من كل عام منذ سنة ١٩٨٥ (بداية عملي في المنتدى) وإلى عام ١٩٩٠ (نهاية عملي). والتي ظهر منها أن موارد المنتدى تضاعفت خمسة أمثال في تلك السنوات الخمس، وأن نمط تدفقات الموارد يكون في قمته في شهري سبتمبر ويناير من كل عام ويكون في أدناه في شهري أغسطس وفبراير، وإن هذه التدفقات مرتبطة بإجارات الأعضاء، ومواعيد إعداد الميزانيات وإقفال الحسابات السنوية. أما سبتمبر هذا العام تحديداً (١٩٩٠) فإن الانخفاض الحاد في الدفقات يعود إلى أزمة الخليج، واستقالة بعض الأعضاء وامتناع آخرين عن التبرع لسبب أو لآخر.

لم أتحدث أنا في هذا الاجتماع على الإطلاق - لا دفاعاً عن نفسي ولا هجوماً على خلفي ولقد قبل ذلك أعضاء لجنة الإدارة بما يكفي وزيادة، لدرجة أحسست فيها بالإشفاق على السيد **يس**. فبعد كل شيء هو صديق، وأنا الذي رشحته ليخلفني، وتعثره أو فشله سيكون في وجهي ووجه مصر!.

لم يكن تجنى السيد **يس** وجموده هو التغير السلبي الوحيد الذي وجدته في عمان بعد شهرين من مغادرتها. وجدت أيضاً حمله صحفية ناقدة لي بسبب موقفي المناهض لغزو العراق للكويت... كانت الصحافة الأردنية تطلق على ما حدث أوصافاً من قبيل "استعادة" "وتوحيد"، و"تحرير" و"ضم". وكان من أطرف ما رأيت مقالاً يتهمني صاحبه بأنني أخدع الأردنيين طول السنوات الخمس التي قضيتها بينهم على أنني قومي عربي وحدوي"، ولكن ظهرت على حقيقتي كمؤيد للمرجعية العربية والنزعات القطرية الانفصالية... وإلا كيف أعارض عمل ثوري قومي توحيدي من الطراز الرائع الذي قام به الرفيق **صدام حسين** يوم الثاني من آب (أغسطس) بفتحه المظفر للكويت...".

وحينما التقيت بالأمير **حسن** بدأ يوجه لي عتاباً رقيقاً على البلاغين الذي حلفتهما ورائي في عمان: **السيد يسن وصدام حسين.** الأول، أعترف بمسؤوليتي عنه... أما الثاني فقد استغربت أن يحملني الأمير مسؤوليته، ثم أين هو في

عمان؟ فرد الأمير مداعباً: "أنه يوجد في داخل ثلاثة مليون أردني". كنت أدرك مدى الاختراق البعثي العراقي لأوساط الرأي والتأثير، كما سبقت الإشارة... ولكن لم أكن أدرك أنها تغلغلت إلى وجدان رجل الشارع.

انتهزت الفرصة وسألت الأمير هل لهذا السبب تأخذ الحكومة الأردنية موقف التأييد **لصدام حسين**؟ رد الأمير، وهو ينظر متأملاً في الأفق، وكأنه يناجي نفسه "جرت العادة ألا يجتمع الشرق أردنيون والفلسطينيون على معظم القضايا... ولكن حينما يتوحد الشارعين على رأي في أي قضية، فإننا لا نملك إلا أن نجاري التيار العارم، حتى ونحن ندرك ما يترتب على ذلك من مخاطر... حينما حدث ذلك في مايو ١٩٦٧، ركب جلالة الملك الطائرة، متوجهاً للقاهرة، وأسلم قيادة القوات الأردنية للمرحوم **د.عبد المنعم رياض**... وكان ما كان وخسرت الأردن نصف المملكة... ولكن ربما كان البديل خسارة المملكة كلها، في ذلك الوقت وهذا ما أشعر به شخصياً هذه الأيام... أننا في الطريق إلى هاوية أخرى، بسبب تصرفات صديقك مجنون العراق".

اعترضت مداعباً على إصراره بأن **صدام** صاحبي أو صديقي. قال الأمير "أريد أن نتحدث بجدية حول ما يمكن عمله لتفادي الهاوية، إذا كان ذلك ممكناً على الإطلاق"، قلت لا أعرف إذا كان الأمر ممكناً... ولكن لا بأس من المحاولة. خطرت بذهني فكرة، ولكن قبل أن أتحدث عنها هل لكم أن تخبروني عن حقيقة المواقف العربية المختلفة في قمة القاهرة، كما نقلها إليكم جلالة الملك؟".

تحدث الأمير ونقل إلي تفاصيل ما كنت أعلمه إجمالاً : اليمن والسودان وليبيا وموريتانيا والصومال أيدت العراق، مصر وسوريا والمغرب ودول الخليج وقفت في صف الكويت، بينما تأرجحت الأردن في موقفها.

محاولة لتفادي الهاوية

طلب مني الأمير أن أمد إقامتي في عمان عدة أيام لبلورة ما لدي من أفكار كتابة لعرضها على جلالة الملك...

استأذنت من **السيد يسن** أن أستخدم غرفة الاجتماعات الصغيرة أو المكتبة في اليومين التاليين. وبالطبع وافق، وإن على مضض... وكان يحس أن هناك شيئاً أعده للأمير، وكان يقتله حب الاستطلاع لمعرفة الأمر... وواقع الأمر أنني كنت أنوي ذلك، بل وأشركه في المحاولة، فهو كان، رغم دناءته وعقده الكثيرة، قارئاً جيداً ومفكراً مجتهداً. ولكني تركته في الظلام يضرب أخماساً في أسداس لمدة أربعة وعشرين ساعة، بلورت فيها مبادرة جديدة، ودعوته هو

و**فهد الفانك وحداد عناني**، لعرض المبادرة عليهم، وطلب أرائهم لتنقيحها، قبل عرضها على الأمير، ثم على الملك، ثم على الأطراف العربية ذات العلاقة ـ العراق والكويت والسعودية ومصر.

كانت المبادرة تقضي بانسحاب العراق من الكويت، مع تنازل كويتي عن ديونها على العراق. واقتسام حقل الرملة النفطي على الحدود، وتأجير جزيرتي دربة وبوبيان الكويتيين اللتان تتحكمان في شط العرب لمدة عشرين عاماً (وهو ما يعطي العراق إستراتيجية على إيران، العدو اللدود).

وتمت مناقشة الأفكار وتنقيحها في ضوء تفحص **فهد الفانك** لدور **صدام**، بمنهجية المحاكاة، التي تدرب بها؟؟؟ في إدارة الصراع. طلب **فهد الفانك** أن يكون إيجار الجزيرتين لمدة ٩٩ سنة، وأن تتنازل الكويت عن أول حقل النفط الحدودي، وأن تلتزم الكويت بالتنسيق مع العراق منظمة الأوبك، أو "الأولبك" بمعنى في النهاية أن يكون للعراق؟؟؟ على أي قرار كويتي خاص بسياسات الإنتاج والتسعير.

توجهت بالمبادرة إلى الأمير، وأعجبته، واقترحت على جلالة الملك، أن يأخذها، أولاً، لقيادات الدول التي وقفت مع العراق في قمة القاهرة، فإذا أخذ موافقتهم عليها... فليذهب بها بعد ذلك إلى **صدام حسين**، على أساس أنها مبادرة جماعية ممن وقفوا معه في قمة القاهرة، ومازالوا... وبموافقة هذه يكون قد حقق عدة مكاسب إستراتيجية ومادية ومعنوية ملموسة من ناحية، وحقن مزيد من الدماء العربية من ناحية ثانية، وأتت الفرصة على أمريكا والغرب الذين ينوون التدخل من ناحية ثالثة. واقتنع الملك، وتحمس، وبدأ بالفعل جولة التقى فيها برؤساء الدول التي وقفت مع العراق، وأخذ موافقتهم على المبادرة وعلى أن يتحدث الملك بإسمهم. في نفس الوقت كيف قد اطلعت المسؤولين المصريين من خلال **أسامة الباز**، والكويتيين من خلال **د.حسن الإبراهيم**، والسعوديين من خلال الأمير **سعود** الفيصل. وكان هناك ما يشبه الموافقة من جانب الكويت وحلفائها العرب.

ذهب الملك **حسين** بالمبادرة إلى العراق، والتقى **بصدام حسين** لعدة ساعات. ولكنه فشل بإقناعه بجوهر المبادرة وهي الانسحاب الفوري في مقابل التنازلات المذكورة أعلاه.

وعاد الملك **حسين** إلى عمّان محبطاً... ومدركاً أن السقوط العربي في الهاوية أصبح مؤكد ووشيكاً... ففي خلال الشهر الذي طاف فيه بالدول العربية والعراق، كانت أمريكا قد بدأت هي وحلفاؤها في تحريك الأساطيل والقوات...

واستحصلوا من الأمم المتحدة ومن برلماناتهم كل القرارات اللازمة لتوجيه الضربات للعراق، ولتحرير الكويت.
اعتكف الملك في أحد قصوره، مكتئباً، وأطلق لحيته، وترك إدارة أمور المملكة لولي العهد... وانتشرت شائعات تفيد أنه يفكر في التنازل عن العرش.

جوائز الصباح للإبداع

كان لأزمة الخليج ألف وجه ووجه، نتج عنها، مثلاً، عودة حوالي مئة ألف عربي وآسيوي كانوا يعملون في البلدان النفطية والعراق، إلى بلادهم. وقد تسبب ذلك في مآسي إنسانية شتى، وكذلك في فقدان هؤلاء وبلادهم الأصلية تحويلاتهم بالعملات الصعبة إلى بلادهم.
ولكن ربما كان أشد هذه التداعيات هو الانشطار الذي وقع في الوجدان والعقل والجسم العربي من الحيط إلى الخليج... فحتى من وقفوا سراً أو علناً مع هذا الجانب أو ذاك كانوا يتمزقون في أعماق أعماقهم، وهم يرون الأزمة تتصاعد لنقطة الانفجار... وحينما انفجر في النهاية (من منتصف يناير ١٩٩١) كانت مأساة عربية عامة ومأساة عراقية ـ كويتية بوجه خاص.
ومن تداعيات الأزمة ما حدث لمنتدى الفكر العربي على النحو الذي تحدثنا عنه، وأثناء وضمن ذلك ما حدث لبعض المشروعات المشتركة بين المنتدى وأطراف أخرى. مثل مشروع جوائز **عبد الله المبارك وسعاد الصباح.**
وكان هذا المشروع أحد نتاجات مشروع "تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرون"، والذي كانت إحدى نتائجه المبكرة انضمام رعاية الإبداع بين الأجيال العربية الصاعدة، حيث انصرف التعليم إلى تقوية الذاكرة والحفظ والامتثالية. لذلك اقترحت **د.سعاد الصباح** راعية مشروع تعليم الأمة العربية للقرن الحادي والعشرين، مشروعاً آخر لتشجيع الإبداع بين الشباب، وتكونت لجنة لبلورة الفكرة، وانتهت إلى تخصيص مجموعتين من الجوائز، بمجموعة باسم زوجها الشيخ **عبد الله المبارك** للإبداع في مجال العلوم والتكنولوجيا، ومجموعة جوائز أخرى للإبداع الأدبي والفكري باسم **د.سعاد الصباح.** ووضعت اللجنة نظاماً مفصلاً لأنواع جوائز كل مجموعة، وشروطها، وطرق تحكيمها، وقيمة كل جائزة... وكان يتم الإعلان عن الجوائز في يناير من كل عام، وتسلم الجوائز للفائزين في معرض القاهرة الدولي للكتاب في يناير من كل عام. وتعد للفائزين بهذه المناسبة معسكر عمل للتعارف، ومقابلة الشخصيات البارزة التي تشارك في فعاليات معرض القاهرة الدولي... كما كان جزء من تشجيع الشباب المتسابق بنشر أعمالهم الفائزة، وعرضها في المعرض. ولأن جزءاً كبيراً من

تنظيم مشروع الجوائز كان يتم في القاهرة، فقد اقترحت اللجنة أن يكون مركز ابن خلدون الذي بدأ نشاطه عام ١٩٨٨ شريكاً للمنتدى في تنظيم مشروع جوائز الإبداع. وسارت الأمور بنجاح مبهر على النحو المتفق عليه لجوائز عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠. كما تم نفس الشيء بالنسبة للإعلان عن جوائز ١٩٩١. وكانت **د.سعاد** وعدد كبير من كبار المبدعين والعلماء العرب الذين يشاركون في تسليم الجوائز، يحضرون مع وزيري الثقافة والبحث العلمي في مصر حفل توزيع الجوائز في أمسية خاصة من أمسيات معرض القاهرة الدولي... وكانت الصحافة المصرية والعربية تغطي المناسبة بشكل مبهر... وكانت حقيقة أن الفائزين يأتون من أقطار عربية مختلفة مثار جاذبية واهتمام للجمهور المصري، كما كان مناسبة لإعلام الأقطار التي ينتسب إليها الفائزين للحضور إلى القاهرة للاحتفاء بأبناء أقطارهم، والمشاركة في فعاليات معرض القاهرة الدولي للكتاب. وكان **د.سمير سرحان** رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب أحد الأركان المهمة للمشروع.

أراد **السيد يس**، الأمين العام الجديد للمنتدى، أن يغير النظام المتبع للجوائز طوال السنوات الثلاث السابقة، بحيث يكون المنتدى وحده في عمان هو المسؤول عن تنظيمها من الألف إلى الياء. ولم يكن لديه أدنى فكرة عن التفاصيل التنظيمية الهائلة... فقط كان ينظر إلى المرحلة الختامية التي يحظى فيها مشروع الجوائز بالأضواء، في القاهرة. ولأن الرجل لم يعمل في حياته إلا في مؤسسات حكومية (المركز الدولي للبحوث الاجتماعية والجنائية ومؤسسة الأهرام) حيث يقوم موظفون إداريون بالأعمال الروتينية الإدارية، فلم يكن لديه أدنى فكرة عن طبيعة المؤسسات والمبادرات التطوعية... وحاولت إفهامه ذلك بشكل مهذب إلا أنه ركب رأسه، وصمم. فتركت الأمر له... ولكن المشروع تعثر في يديه، وانتهى به الأمر إلى التوقف، بين حسرات راعيته، وخسارة المبدعين العرب الشباب: ولأن المنحوس منحوس فقد تزامن تعثر المشروع، مع تعثر المنتدى، مع انفجار حرب الخليج في يناير ١٩٩١، الموعد المقرر لتوزيع الجوائز، وانشغلت صاحبة الجوائز بالحرب، ولم تحضر الاحتفال.

مواجهة مع الرئيس

كان معرض القاهرة الدولي للكتاب مناسبة، لا فقط لعرض الكتب وتوزيع الجوائز، بما فيه جوائز الإبداع العلمي والأدبي والفكري، ولكنها كانت أيضاً مناسبة حرص الرئيس **حسني مبارك** أن يلتقي فيها بمفكري مصر في لقاء مفتوح مستمر لثلاث أو أربع ساعات.

وكانت إجراءات الأمن المشددة تشترط على أن يحضر المدعوون للقاء الرئيس، وهم حوالي مئة وخمسين، قبل موعد اللقاء بساعة. وفي اليوم الموعود، وأظنه كان يوم ١٢ يناير ١٩٩١، توجهت مع غيري إلى القاعة التي سيعقد فيها اللقاء قبل الموعد بساعة، وتصادف جلوسي في نفس الصف الذي يجلس فيه الأساتذة **محمد سيد أحمد**، و**د.يوسف إدريس**، و**د.أنور عبد الملك**. وطال انتظارنا إلى ما يقرب ثلاثة ساعات إلى أن ظهر الرئيس. وكانت المجموعة المذكورة التي تجلس على جانبي في نفس الصف منزعجة لهذا الانتظار الطويل، خاصة وهم جميعاً قرب أو بعد الستين من أعمارهم، ويحتاجون إلى الذهاب لدورات المياه كل ساعتين على الأكثر... وكانت الإجراءات الأمنية تمنع الخروج من القاعة إلى أن يأتي وينصرف الرئيس... وبدأ ضغط هؤلاء الكبار يشتد، فبدأوا يتململون من تأخر الرئيس... واقترح أكثرهم تمرداً، **د.يوسف إدريس**، الاحتجاج للرئيس على عدم احترام المواعيد، في وقت كانت الدولة قد رفعت فيه شعار الإصلاح الاقتصادي في ألف يوم... ونبه وشدد على أن يقوم أول المتكلمين من مجموعتنا هذا الاحتجاج، ووافقنا.

جاء الرئيس، وقوبل بالتصفيق، وبدلاً من أن يبدأ كالعادة بملاحظات افتتاحية عن الأوضاع العامة داخلياً وخارجياً، أثر أن يبدأ الحوار مباشرة، فنادي على الأستاذ **محمد سيد أحمد** لكي يبدأ... قال **محمد سيد أحمد** أكثر أبناء جيله ذكاء وإطلاعاً ومثالية "ما هو اليوم يا ريس"، رد الرئيس "١٢ يناير يا **محمد**!"، رد **محمد** "مساء اليوم سيلتقي **جيمس بيكر** وزير الخارجية الأمريكي مع وزير الخارجية العراقي في جنيف... يعني اليوم أو غداً يمكن أن يصبح ١٥ يناير، وهو الموعد الذي حددته أمريكا **لصدام حسين** لكي يخرج قبله من الكويت، وإلا أعلنت وشنت عليه الحرب.

في أثناء هذا الحوار، الذي كان يحاول الرئيس فيه أن يلحق بتسلسل أفكار **محمد سيد أحمد**، كان **يوسف إدريس** يتمتم، واصفاً **محمد سيد أحمد** بأنه "جبان... لأنه لم يبدأ حديثه بالاحتجاج على تأخر الرئيس!" وكان الآخرون في المجموعة يرددون نفس الاتهام.

وفجأة جاء دوري... وكان من عادة الرئيس أن يناديني "بالدكتور **إبراهيم**"، مثلما تفعل السيدة قرينته، ومثل كل طلبة الجامعة الأمريكية، حيث يلقب الأساتذة بأسمائهم الأخيرة... قمت وفي أذني رنين الاتهام بالجبن **لمحمد سيد أحمد**... وجرى الحوار بالشكل التالي:

- مساء الخير يا ريس (كانت الساعة الواحدة والنصف).

الرئيس: مساء النور.

- كان من المفروض أن يكون تحيتي صباح الخير. أما ونحن في انتظار سيادتكم من العاشرة صباحاً، فقد ضاع من وقت مصر ٤٥٠ ساعة، أي حوالي عشرين يوماً من الألف يوم التي أعلنتموها مهلة لإصلاح الاقتصاد المصري.

- الرئيس (مقاطعاً): ما هذا الذي تقولونه؟ الأخ **محمد** يقول النهاردة ١٢ يناير، يعني يمكن الليلة يصبح فجأة ١٥ يناير... وأنت تضرب لي ١٥٠ مفكر في ثلاث ساعات، وتحسبهم عشرين يوماً، وتطرحهم من الألف يوم... إيه يا جماعة ارحموني. أنا على قدمي من العاشرة صباحاً... على الأقل أنتم جالسون! أدخل في الموضوع يا دكتور...! ألا تتأخر عن محاضراتك ؟... وأحياناً تغيب بالأيام... أو تروح الأردن وتترك التلاميذ الذين يعدون رسائل الماجستير (ضحك في القاعة لإدراك البعض أن هذه لا بد شكوى سمعها الرئيس من زوجته، التي كانت تلميذتي وتعد رسالة الماجستير تحت إشرافي).

- سيادة الرئيس لدى سؤالين...

- الرئيس (مقاطعاً): لا لا، سؤال واحد حرصاً على بقية الأيام الألف!.

- وهو كذلك لدي سؤال من شقين.

- الرئيس (مقاطعاً): لا كفاية شق واحد (ضحك في القاعة).

- وهو كذلك سؤال ذي الشق الواحد، لماذا أرسلت مصر قوات ضمن التحالف الدولي الذي يعمل على تحرير الكويت، فكيف ستتصرف مصر، لو أن إسرائيل أقحمت نفسها في المعركة وهاجمت الكويت ؟.

- الرئيس: "هذا سؤال هام... لقد أفهمت الولايات المتحدة وأطراف التحالف الآخرين أنه إذا تدخلت إسرائيل في المعركة ضد العراق، فسيكون لنا شأن أخر... وبصريح العبارة سننسحب من التحالف فوراً... وهم يعرفون معنى انسحاب مصر من التحالف... يفقد شرعيته على الفور".

وحينما ظهرت صحف اليوم التالي كانت إجابة الرئيس **مبارك** على سؤالي هي المانشيت الرئيسي.

يوسف إدريس وفيليب جلاب

ومضى عام ١٩٩١ بهمومه وأثقاله... وفي يناير ١٩٩٢، وفي معرض القاهرة الدولي للكتاب... انتظرنا الرئيس ساعة واحدة كما زودت القاعة بمراحيض لكبار السن... ولكن الشلة التي تعودت أن تجلس سوياً، سقط منها فارسان: **يوسف إدريس وفيليب جلاب** وهما من ألمع مثقفي مصر وأحبهم إلى قلبي. وكان لكليهما منزلة خاصة فقد كان مكتب **يوسف إدريس** في الطابق السادس من مبنى الأهرام عبر الممر من مكتبي... ولم أكن أعرفه معرفة

شخصية، فقط بالاسم وكقارئ لأدبه المميز... وكان **يوسف إدريس** يكبرني بخمسة عشر عاماً، ولكن كان فارعاً، وسيماً موهوباً. وقد جعله ذلك موغلاً في النرجسية، وخاصة فيما يتعلق بالجنس الآخر. وكثيراً مل يتصرف في هذا الصدد كالمراهق... وتعود على أن تقصده معجبات كثيرات من قرائه... ولكن كان يغلب عليهن الانحدار من الطبقات الوسطى، شكلاً ومظهراً وموضوعاً. وفي عدة مرات رأى فاتنات حسناوات في الممر، فتصور أنهن يبحثن عن مكتبه ولما أشار إليهن بأنه "هنا"، سألن عن مكتب **د.سعد الدين إبراهيم**... وحينما تكرر ذلك من نفس النوعية المختلفة... جاء إلى مكتبي كطفل حسود ليسأل : من أنت؟ ومن هؤلاء الحسناوات الأرستقراطيات اللاتي يقصدن مكتبك طول الوقت؟ وضحكت ضحكاً منفصلاً... ودعوته للجلوس... فجلس... وأخبرته أنني أستاذ في الجامعة الأمريكية، وأعمل في الأهرام كمخبر بعض الوقت رئيساً لوحدة الشؤون العربية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية... وأحضر لهذا المكتب يومي السبت والأحد، وهما عطلة نهاية الأسبوع في الجامعة الأمريكية. وتعرف طالباتي هناك أنني أكون هنا في هذين اليومين... ولذلك تأتي منهن من تريد مناقشة أي من موضوعات الدراسة أو الرسائل العلمية...

وكان **يوسف إدريس** رغم نرجسيته، أو ربما بسببها، خفيف الظل، وتملؤه الشكوك... فتساءل في خبث ظاهر "هل هذا هو السبب الوحيد في مجيئيهن إلى مكتبك في الأهرام؟ وأدركت ما يرمي إليه على الفور فقلت "لأ طبعاً... بعضهن معجبات متيمات...!"، فقال "السؤال المحير هو لماذا؟" فقلت له "أنا أيضاً أبحث عن إجابة منذ عشرين سنة... فلماذا لا تساعدني في الوصول إلى إجابته؟". لم أكن أعرف ... قال "اعتقدت لوهلة أنك تعرف، وتعاملني كشرقاوي عبيط". ابتسمت ... وأكدت له أنني لا أستعبطه على الإطلاق... ثم طرأت على ذهني فكرة خاطفة قلت له يا أستاذ **يوسف** أنا سأقوم بتدريس مادة في الفصل الدراسي القادم بعنوان علم الاجتماع الأدبي... وأنوي أن أطلب من تلاميذي أن يقرأوا بعض أعمالك... فهل لديك استعداد لمتابعة طلابي حين نناقش أعمالك؟" تهلل وجهه فرحاً... وظل يردد صحيح صحيح... أنا مستعد". كان ذلك في نهاية السبعينات... وأصبح **يوسف إدريس** بعدها يأتي إلى محاضراتي... وإلى حفلاتي.... وقبل وفاته بشهر واحد شارك معي في مهرجان أصيلة بالمغرب... وكالعادة أدت نرجسيته وإفراطه في الشراب وتعاطي المخدرات إلى مشكلات لا حصر لها لي وللدكتور **يوسف عوض** ولبقية المشاركين المصريين... ولكن كان الجميع يحبونه.

أما **فليب جلاب** فكان عكس **يوسف إدريس** تماماً، فلم يكن نرجسياً على الإطلاق... كان دمث الخلق، شديد التواضع، ولكنه كان يشترك مع **يوسف إدريس** في خفة الظل... كان ماركسياً مستنيراً، وفي ذلك كان مثل **محمد سيد أحمد**... كان يكتب عموداً في الأهالي، صحيفة حزب التجمع بعنوان "دبوس" ــ يشك ويؤلم، دون أن يجرح. وكان مثل عمود **أحمد بهاء الدين** في الأهرام من أكثر أعمدة الصحافة المصرية شعبية وجاذبية.

توطدت صلتي به من خلال صديقة مشتركة هي **منى مكرم عبيد**، التي وقعت في حبه... وجمعتنا سهرات وحفلات، ودعوته أكثر من مرة إلى عمان للمشاركة في أنشطة المنتدى، وحيث اكتشف أن له جمهوراً كبيراً في الأردن أيضاً.

سمع **فيلب جلاب** عن لقائي الشهير بالرئيس **أنور السادات**، في أغسطس ١٩٨١... سألني عن تفاصيله، وبدا مهتماً للغاية... فسألني متى أسجل أو أنشر وقائع هذا اللقاء... قلت بعفوية في الذكرى العاشرة لاغتيال **السادات**... قال أن هذه الذكرى تجل بعد أسابيع... لماذا لا تنشرها في "الأهالي"، التي كان قد أصبح رئيساً ناجحاً لتحريرها... واستغربت الاقتراح لأن الأهالي كانت أكثر صحف المعارضة عداوة **للسادات**. قال **فيليب** "وتحديداً لهذا السبب سيلفت نظر الناس جميعاً نشر مضمون هذا اللقاء في الأهالي"... وقد كان ونشرت سلسلة مقالات، أظنها خمس عن هذا اللقاء في الذكرى العاشرة لرحيل **السادات**، استغرقت شهري أكتوبر ونوفمبر، وتلقفتها دار الشروق للنشر، لصاحبها **إبراهيم المعلم**، الذي كان قد اقترن **بأميرة**، تلميذتي السابقة وكريمة الدكتور **أحمد كمال أبو المجد**. وظهرت سلسلة المقالات مع بعض المقدمات، وخاتمة طويلة في كتاب أنيق، بعنوان "رد الاعتبار للرئيس **السادات**". وقد ظهر وعرض في معرض القاهرة الدولي، في يناير ١٩٩٥، ولكن لم يشاء القدر لصاحب الفكرة، **فيلب جلاب** أن يراه.

رحم الله يوسف إدريس وفيليب جلاب.

١٩٩٣

معركة السلام (٢)

في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ وقع الفلسطينيون والإسرائيليون، اتفاقاً أطلق عليه اسم أوسلو، حيث جرت مفاوضات سرية، وتم التوقيع في حديقة البيت الأبيض، بحضور كل شبكات الإعلام العالمية، وحشد من الشخصيات العامة الدولية والعربية والأمريكية ونص الاتفاق على اعتراف متبادل، وعلى دولة فلسطينية على مراحل، تبدأ بالحكم الذاتي، وتمتد إلى خمس سنوات، يتم خلالها التفاوض بين الجانبين على المسائل الخلافية ـ مثل الوضع النهائي للقدس، واللاجئين، والحدود، واقتسام المياه... وكان هناك ترحيب عالمي، وتحفظ من بعض الأطراف العربية، مثل سوريا، وليبيا، والعراق، وحركة المقاومة الإسلامية (حماس) والجهاد الإسلامي. ولكن أغلبية الشعب الفلسطيني، طبقاً لاستقصاءات الرأي العام، التي قامت بها مراكز بحثية فلسطينية تحت إشراف **ود.غسان الخطيب**، رحبت باتفاق أوسلو.

وكان مركز ابن خلدون من حيث المبدأ جزء من الاجتماع المصري المناهض للتطبيع مع المؤسسات الإسرائيلية الرسمية والأهلية، ما لم تحل القضية الفلسطينية، وكنت أنا شخصياً، لا أرفض الحديث مع إسرائيليين أكاديميين أو دبلوماسيين في مؤتمرات وندوات مشتركة خارج مصر. ولكني لم ألزم مركز ابن خلدون أو العاملين فيه بذلك. وظل المركز يرفض استقبال الباحثين أو تلبية الدعوات مع إسرائيل. وكانت الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية تعرف ذلك، وتحترم موقف مركز ابن خلدون، وإن كانوا لم يكفوا عن المحاولة.

وفي نفس مساء اليوم الذي وقّع فيه اتفاقية أوسلو بين **ياسر عرفات، وإيزاك رابين**، وبشهادة كل من الرئيس الأمريكي **بيل كلينتون**، والرئيس السابق **جيمي كارتر**... اتصل بي مدير مركز دايان بجامعة تل أبيب، وأستاذ التاريخ المصري **شيمون شامير**، الذي كان سفيراً لإسرائيل في القاهرة... ليسألوا عن رد فعلي لتوقيع الاتفاق. فأخبرتهم بتأييدي الشخصي. وسألوني عما إذا كان الاتفاق هو الخطوة التي كانت مطلوبة لعلاقات تعاون، أو على الأقل تزاور بين مركزينا. فقلت لهم أننا لم نناقش هذا الأمر بعد في اجتماعات هيئة باحثي المركز... فسألوا عما إذا كان يمكن وضع هذا الأمر على جدول أعمال مركز ابن خلدون في اجتماعه القادم... ووعدتهم بذلك. وفعلاً نوقش الموضوع في

الاجتماع الأسبوعي يوم الثلاثاء التالي... وتصادف أن الليلة السابقة للاجتماع، كنت في عشاء دعا إليه الصديق **د.عدنان شهاب الدين**، مدير مكتب اليونسكو في القاهرة، وهو كويتي من أصل فلسطيني، وكان ضيف الشرف صديقنا المشترك **د.نبيل شعث**، والذي كان رئيساً للطلبة العرب في الولايات المتحدة فمنذ عامي ١٩٩٣، ١٩٩٤ (أي قبلي بسنتين) وكذلك، **د.أسامة الباز** مستشار الرئيس **مبارك**. وأيضاً أحد الرؤساء السابقين لمنظمة الطلبة العرب ـ ود. **نبيل شعث** وقبلي مُباشرة، لذلك كان العشاء في منزل **عدنان** مع زوجاتنا مليئاً باسترجاع الذكريات... ولكني كنت حريصاً على معرفة خلفية اتفاق أوسلو بين **نبيل شعث** أحد كبار المسؤولين في منظمة التحرير ومن أقرب مستشاري **عرفات** . أي أنه يشغل تقريباً نفس الموقع الذي يشغله **أسامة الباز** في مصر. ولدهشتي كان **أسامة** لا يعرف أكثر مما أعرفه عما حدث في "أوسلو" وهو ما يُفسر البرود المصري المبدئي نحو الاتفاق، وعدم حضور **مبارك** حفل توقيع الاتفاق... كانت تفاصيل المفاوضات وما تم فيها مثيراً للغاية وكان **نبيل وأبو مازن (محمود عباس)** هما المتفاوضان الفلسطينيان مع الجانب الإسرائيلي الذي رأسه **شيمون بيريز**. في نهاية المساء، أخبرت الحاضرين بالمكالمة التي أنهيتها في يوم توقيع الاتفاق من مركز دايان... وطلبت أن أسمع رأيهم، فأيد الفلسطينيان **نبيل وعدنان**، وتحفظ **أسامة**، ناصحاً بالتريث قليلاً.

في اجتماع المركز اليوم التالي، طُرح طلب مركز دايان للنقاش، واحتدم الجدل، وبعد مناقشات دامت ساعتين، أخذت الأصوات، وكان عدد المُعارضين سبعة والموافقين سبعة... ولم أدلِ بصوتي، حتى لا أؤثر على المواقف المُعلنة للباحثين. أعدت استئناف النقاش، كما جرت العادة في اجتماعات المركز، حينما لا يكون هناك أغلبية. وفي الجولة الثانية للنقاش، أضفت معلومات وأراء الذين حضروا عشاء الليلة السابقة في منزل **د.عدنان شهاب الدين**. وقبل أخذ الأصوات الذي كان يتم سراً، طلب **أشرف بيدس**، الفلسطيني الوحيد الذي كان يعمل في المركز منذ تأسيسه قبل خمس سنوات، أن يتحدث، لم يكن قد شارك في الجدل المحتدم في الساعات الثلاثة السابقة. قال **أشرف**، أنني أرجو من زملائي الذين صوّتوا "لا" أن يعرفوا أنني صوّت "نعم"، لأني أريد لهذا الصراع أن ينتهي، لقد ولدت في مصر لأب فلسطيني وأم مصرية. وعشت كل حياتي هنا في مصر... فأنا مصري الدم والهوى واللغة والطباع... ومع ذلك فالحكومة المصرية، ربما لأسباب وجيهة، ترفض إعطائي الجنسية المصرية، لأن أبي ليس أو لم يكن مصرياً قبل أن يتوفاه الله وأنا في العاشرة من عُمري... لدي بطاقة هوية "كلاجئ"، وبطاقة "إقامة" لا بد أن أجددها سنوياً، وقد تزوجت

مصرية... ويعاملني المصريون، مثلما تعاملوني هنا في المركز بمودة ومحبة... ولكن الحكومة تعاملني كأجنبي... وأحلم باليوم الذي أحصل فيه على جنسية دولة، ويكون لي جواز سفر... لقد مرّ على زواجي خمس سنوات، ولكني لا أريد الإنجاب قبل أن أتأكد أن أولادي سيكونوا أكثر حظاً مني ومن أشقائي، الذين يعيشون في بلد أمهم ولكن بلا هوية ولا جنسية. وربما تكون اتفاقية أوسلو هي بداية حل مشكلتي ومشكلة أولادي الذين لم أنجبهم بعد... أقول ربما، ربما... لذلك أرجو أن توافقوا على استقبال وفد مركز دايان... أريد أن أرى أعدائي الذين حرموني من بلدي، بدلاً من أن أقرأ عنهم في الصحف أو أسمع عنهم في الراديو... ربما أقتنع بأن التعايش معهم ممكن ... وربما يقتنعوا هم أيضاً... وأسف للإطالة، وكان هناك صمت بعد أن توقف **أشرف**، ورأيت دموعاً في عيون اثنتين من الباحثات.

شكرت **أشرف**... وسألت إذا كان هناك من يُريد أن يتحدث قبل التصويت. ولم يطلب أحد الحديث. وتم التصويت. وفي هذه المرة، كانت النتيجة ١٣ موافقون لاستقبال وفد معهد دايان، مُقابل صوت واحد ظل معارضاً، وقد أعلن عن نفسه، وهو المهندس **محب زكي**، مُدير المركز، وحينما اتصل **د.شيمون شامير** ليستطلع نتيجة التصويت أخبرته بما حدث فعّبر عن سروره، وأخبرني أنهم سيكونون في الطائرة في بداية الأسبوع التالي (يوم الأحد)، وتحدد الثلاثاء لاستقبالهم.. وكان عدد أعضاء الوفد خمسة، انضم إليهم الدكتور **إمانويل ماوركس**، عالم الأنثربولوجيا الإسرائيلي الأسبق والأكثر شهرة بسبب مؤلفاته عن بدو النقب وبدو سيناء، وكان يشغل وقتها مُدير المركز الأكاديمي الإسرائيلي. جاء الوفد في الحادية عشر صباحاً، وتحاوروا مع باحثي المركز إلى الخامسة مساء، حول أوسلو والمُستقبل ... وتخلل اللقاء غداء عمل... وكثير من الضحكات والقفشات... واندهش باحثوا ابن خلدون لاكتشاف أن الإسرائيليين لا يختلفون كثيراً عن العرب!.

١٩٩٤
مسيرة العلاقات المصرية الأمريكية في عشرين عاماً

نظمت كلية الدفاع الوطني الأمريكية والمركز القومي لدراسات الشرق الأوسط بالقاهرة ندوة مُشتركة في شهر أبريل ١٩٩٤، لتقييم مسيرة العلاقات المصرية ـ الأمريكية خلال العشرين سنة التالية لحرب أكتوبر، وآفاق المُستقبل.

وكان الطرف المصري المُشارك في تنظيم الندوة مركز جديد وثيق الصلة بالمُخابرات وبعض رجال الأعمال المصريين مثل الدكتور **إبراهيم كامل أبو العيون**. وكان مُديره اللواء **فخر**، صديق منذ سافرنا معاً إلى واشنطن في بداية

ولاية الرئيس **ريجان** (١٩٧٠)، وخلال الفترة التي قمت فيها بالتدريس بعض الوقت في كلية الدفاع بأكاديمية ناصر (١٩٧٦-١٩٨٥)، وكذلك نائب مُدير المركز اللواء **أحمد عبد الحليم**.

وتشكل الفريق المصري المُشارك في الندوة مني، و**د.علي الدين هلال**، و**د.أحمد كمال أبو المجد**، و**د.حازم الببلاوي**، و**د.هناء خير الدين**، و**د.أسامة الغزالي حرب**، واللواء **أحمد عبد الحليم**، واللواء **صلاح ماميش** (نائب مدير جهاز المخابرات) و**د.عبد المنعم سعيد**. وانضم إلى هذا الفريق سفيرنا في واشنطن السيد/ **أحمد ماهر**، وكندا السيد/ **تحسين بشير**.

وقد عهد إليّ بالحديث عن "**الحركات الإسلامية في مصر خلال العشرين سنة السابقة**" (١٩٧٤-١٩٩٤)، ومدى تهديدها للنظام الحاكم في مصر، وتأثير ذلك على مُستقبل العلاقات المصرية الأمريكية.

وأظن أن الجدول الذي كان ضمن ورقتي عن مؤشرات العنف ١٩٥٢-١٩٩٢، والذي اتضح منه أنها زادت ثلاثة أمثال ما كانت عليه بين التاريخين، قد أغضب المسؤولين في مصر، رغم أن الأرقام التي استندت عليها في بناء تلك المؤشرات، كانت كلها من مصادر حكومية منشورة على الكافة. وبعد ست سنوات وشهرين كانت هذه الورقة البحثية هي التي استندت عليها النيابة ومباحث أمن الدولة العليا في توجيه الاتهام إليّ "**بالتخابر لحساب دولة أجنبية**" وهو الاتهام الذي ضحكت حينما سمعته، وفنّدته بطريقة ساخرة، أزعجت رئيس النيابة... وتسبب توجيه الاتهام في أزمة كادت تعصف بالعلاقات المصرية الأمريكية في أوائل شهر أغسطس ٢٠٠٠، وتراجعت الحكومة عنه بسرعة وبطريقة هزلية تثير الرثاء أكثر مما تثير الضحك، كما سيأتي الحديث تفصيلاً في جزء قادم من هذه المذكرات.

١٩٩٤
المُتحدث في ختام المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع

رغم انشغالي الشديد في معركتي مؤتمر الأقليات في الشهور الستة الأولى من عام ١٩٩٤، والمؤتمر الدولي للسكان في الشهور الستة الأخيرة من نفس العام، إلا أن ذلك لم يصرفني كلية عن واجباتي العلمية واهتماماتي المهنية كمُشتغل بعلم الاجتماع. ولذلك حينما تلقيت دعوة من البروفيسور **نيل سملرز** (Neil Smelser)، رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتماع لأن أكون المتحدث الرئيسي في الجلسة الختامية للمؤتمر الدولي لعلم الاجتماع الذي يُعقد كل أربع سنوات... اعتبرت ذلك شرفاً مهنياً كبيراً، لي، ولمصر، وللعرب أجمعين فلم

يسبق دعوة عالم اجتماع مصري أو عربي أو مسلم أو إفريقي لمثل هذا الموقع... فمهما ارتفع شأن أي مُشتغل بالحياة العامة، يظل الاعتراف به من أهم جماعاته المرجعية هو بما يُعطيه شعوراً داخلياً عميقاً بالإشباع. وأهم هذه المرجعيات هي الأسرة، والقرية أو المدينة التي ولد فيها الشخص، وزملاء الدراسة، والمُشتغلين بالمهنة.

كان مكان انعقاد المؤتمر الدولي العشرين هو مدينة برلين الألمانية، وهو موقع جامعتها الشهيرة التي تحمل نفس الاسم. وهي الجامعة الوحيدة في العالم التي يوجد بها كلية كاملة مُتخصصة في علم الاجتماع بكل فروعه. كانت تلميذتين سابقتين لي تعيشان في نفس المدينة... لذلك كانت تلميذتي ومساعدتي السابقة، وصديقتي الحميمة **نادية العلي**، تأتي من مدينة قريبة حيث أمها الألمانية وأبوها العراقي. وكانت حميمية علاقتي بها نشأت خلال المؤتمر الدولي التاسع عشر في بدين. كذلك شارك في المؤتمر العشرين حوالي مئة من علماء الاجتماع العرب، بما فيهم رئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع، التونسي **الطاهر لبيب**، و**محمود عودة**، ونجومه الصاعدة مثل **أحمد زايد**.

كان موضوع كلمتي هو "**بحث الغرب عن عدو جديد**" وكانت رداً على مقال عالم السياسة الأمريكي **صامويل هنتنجتون**، التي ظهرت في مجلة الشؤون الخارجية في ربيع ١٩٩٨، وأحدثت دوياً كبيراً، بعنوان "صِدام الحضارات" (Clash of Civilization). وفي كلمتي تحدثت عن نظرية ابن خلدون في نشأة اضمحلال الممالك وعن الخبرة الأوربية، والألمانية خصوصاً في الصراع بين "المُقدّس والمُدنّس" في محطات التجول المجتمعي كستار لصراع بين مصالح دنيوية... وأن ما يحدث في العالم العربي الإسلامي، في أواخر القرن العشرين، شبيه بما حدث قبل أربعة قرون في أوربا، وهو صراع في داخل نفس الحضارة أكثر منه صِدام بين حضارات، وأن هذا الأخير لو حدث سيكون ترديد لمقولة "النبوءة التي حققت نفسها".

١٩٩٥
معركة مُراقبة حقوق الإنسان
Human Rights Watch

قبل أن ينتهي شهر سبتمبر عام ١٩٩٥، خاض مركز ابن خلدون ثلاث معارك أخرى كبيرة، بعد معركتي مؤتمر القمة الاجتماعية والمؤتمر العالمي الثالث للمرأة.

فقبل أن ينتهي شهر سبتمبر كانت منظمة مُراقبة حقوق الإنسان، التي هي المُقابل الأمريكي لمُنظمة العفو الدولية، تعدّ لدورة تدريبية لنشطاء حقوق الإنسان في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وعددهم حوالي ثلاثين مُتدرباً، من المغرب والجزائر وتونس ومصر والأردن ولبنان وفلسطين وتركيا. ووصل فريق التدريب من نيويورك، برئاسة السيد **نيل هيكس** (Neil Hicks) ومعهم أجهزة وأفلام للاستخدام في التدريب. ودعاني المُنظمون لحضور افتتاح واختتام الدورة التدريبية، بصفتي مؤسس وأول أمين عام للمُنظمة العربية لحقوق الإنسان. وكان مُقرراً لعقد أنشطة الدورة في فندق شبرد، وحيث يُقيم أيضاً المُتدربون.

ورغم أن فريق هيئة مُراقبة حقوق الإنسان كان قد رتب لهذه الدورة مع السفارة المصرية في واشنطن، وأبدى سفيرنا هناك في ذلك الوقت السيد/ **أحمد ماهر**، حماسة لعقد هذه الدورة في مصر، كجزء من تشجيع "سياحة المؤتمرات"، ومنح المُشاركين من الولايات المُتحدة، تأشيرات دخول مجانية، إلا أن سلطات الأمن المصرية في المطار، احتجزت الأجهزة والمُعدات لمدة أربع وعشرين ساعة، إلى أن تدخل السفير الأمريكي (**ادوارد ووكر**) للإفراج عنها بضمان السفارة.

ولكن يبدو أن ما حدث في المطار لم يكن مُجرد إجراء بيروقراطي مصري روتيني... فقبل افتتاح المؤتمر التدريبي باثني عشر ساعة، أبلغ فندق شبرد المُنظمين أن القاعة التي كانت مُخصصة لمؤتمرهم، ثبت أنها محجوزة لنشاط آخر في اليوم التالي، وأن الفندق يأسف لهذا "الخطأ غير المقصود" أسقط في يد المُنظمين الأمريكيين، ولم يدروا ماذا يفعلون. لجأوا للمُنظمة المصرية لحقوق الإنسان، ولكنها اعتذرت، حيث أدركت من خبرات سابقة أن الأجهزة الأمنية المصرية لا تريد لهذا النشاط أن يتم على الأرض المصرية، ولكنها لا تُريد أن تفصح عن ذلك، تحاشياً للإحراج دولياً. ولكن رئيس وأمين عام المُنظمة اللذان كانا يُشاركان في الدورة التدريبية، اقترحا على **نيل هيكس** أن يلجأ لمركز ابن خلدون كمكان بديل، إذا عجز عن تدبير قاعة في فندق آخر وهو ما حدث بالفعل، فقد تلقت كل فنادق وسط المدينة تنبيهاً من مباحث أمن الدولة بعدم تأجير أي قاعة لهيئة مراقبة حقوق الإنسان الأمريكية. واستغاث بي **نيل هيكس**... وتذكرت على الفور استغاثتي بالدكتور **ماهر مهران** في موقف مُشابه، فلبّيت طلبه على الفور.

الأمن المركزي يحاصر المركز وسيدة تخترق الحصار

وفي التاسعة من صباح اليوم الأول للدورة التدريبية، اتصل بي الباحث **كريم صبحي** تليفونياً في منزلي من تليفون عمومي بجوار المركز ليخبرني أن المركز مُحاصر بواسطة قوات الأمن المركزي، سألته هل حاول دخول المركز فأفاد أنه حينما رأى الحصار سارع إلى أقرب تليفون ليُخبرني... طلبت منه أن يحاول دخول المبنى قال أنه خائف، فأخذت رقم التليفون الذي يتحدث منه... واتصلت أنا بالمركز... وكما توقعت، كانت **سيدة الشوادفي**، عاملة النظافة في داخل المبنى، فهي تأتي قبل بقية العاملين بساعة على الأقل لتنظيف المكاتب... سألتها إن كانت قد وجدت قوات الأمن المركزي حول المبنى، حينما حضرت في الصباح... أجابت بنعم، وأنهم سألوها لماذا هي تدخل المركز، وأجابتهم أنها تعمل فيه، وأبرزت لهم مفتاح البوابة الرئيسية، فتركوها، طلبت منها أن تخرج إلى شُرفة الدور الأرضي وتنتظر **كريم صبحي**، وحين تراه قادماً تصيح عليه بأعلى صوتها أن يسرع ، حيث أن الدكتور (أنا) يريد منه أن يتصل به فوراً... وطلبت **كريم**، وأخبرته أن **سيدة** موجودة في المركز بالفعل منذ ساعة وأنها اخترقت الحصار بجسارة فإذا كان ما يزال خائفاً فإنها ستخرج من المركز لتصحبه إلى داخله... سأل **كريم**، هل تعني أنني جبان يا دكتور؟ قلت له "معاذ الله... إنها **سيدة** هي الجبانة، فلا تؤاخذها، فهي امرأة"! شكرني بصوت خجول، قائلاً الله يسامحك يا دكتور... وفي خلال نصف ساعة كنت في موقع المركز وأذهلني عدد جنود الأمن المركزي الذي لا يقل عن المئة، وعرباتهم نصف المصفحة، التي تقف على بعد مسافة أمتار منهم ومن مبنى المركز... وحين وصلت كان **كريم وسيدة** وباحثون آخرون أمام البوابة الرئيسية للمركز في انتظاري.

سألت الضابط الذي يقود قوات الأمن، وكان برتبة رائد، عما يفعلونه في حرم المركز... ويبدو أن الضابط لم يتوقع السؤال بهذه اللهجة الحادة، التي تعمدّتها، فقد أجاب باضطراب ظاهر" أنهم في شارع عمومي، على بُعد عشرة أمتار من المبنى، وأنه يُنفذ الأوامر "فسألته عمن أعطاه الأوامر... حتى أتصل به على الفور، قبل أن يحضر ضيوفي الأجانب الذين أتوقعهم خلال نصف ساعة" قال الضابط، هل تسمح لي بالاتصال تليفونياً من المركز برئاستي؟" فقلت له بإشفاق "طبعاً، تفضل..." بعد دقائق عاد من الداخل ليُخبرني أن الأوامر، مازالت سارية... سنبعد عن المركز خمسة أمتار أخرى... ولن نتعرض للضيوف...".

وصل المُشاركون، وافتتحت الدورة التدريبية في الحادية عشر صباحاً... رحبت بضيوف المركز، واعتذرت عن تواضع الإمكانيات مقارنة بفندق شبرد (فضحك المشاركون)، ولكن يُعوض ذلك ما يوفره المركز من إجراءات أمن مُشددة على سلامتهم، كما لا بد أن يكونوا قد لاحظوا عند وصولهم... وأن تخصيص كل هذه القوات، وبمُعدل عنصري أمن لكل مشارك في هذا اللقاء (كانوا المشاركون حوالي ٣٠ مُتدرباً وكان عدد قوات الأمن يزيد عن ستين بالزى الرسمي، وعشرة من المخبرين بملابس مدنية... وأن هذا إن دل على شيء، فإنه يدل على اهتمام الدولة المصرية بهذا اللقاء، وحِرصها الشديد على نجاحه (وضحك المُشاركون أكثر)!.

كانت ضمن عربات الأمن خارج المركز سيارة بوكس خاصة تسجل كل ما يدور داخل الاجتماع من مُناقشات. كذلك تعمدت هذه السيارة تصوير الداخلين والخارجين بآلة تصوير فيديو، وبلا موارية، كما لو كان الأمن يفعل ذلك للتخويف والإرهاب النفسي.

ومضت الجلسات على خير ما يُرام... وفي استراحات القهوة والشاي، كنا نتعمد إرسال المقبلات والمشروبات للقوات المتمركزة حول المركز... وأدهشنا، أنهم لا فقط كانوا يقبلونها شاكرين، ولكنهم كانوا يطلبون المزيد، كما كان الضباط بينهم يستأذنون لاستخدام دورات المياه... وهكذا تحول المشهد الأمني الصارم في بداية اليوم الأول إلى مشهد إنساني مرح بين قوات الأمن والعاملين في المركز... حدوتة مصرية مُتكررة، تسود فيها الطيبة الشعبية على الصرامة الحكومية المُفتعلة... أو هكذا الأمر بعد دراما البداية... ولكن كان للقيادات العُليا ـ الأمنية والسياسية رأي آخر.

١٩٩٥
أم المعارك
مُراقبة الانتخابات البرلمانية

ضمن البرامج الناجحة لمركز ابن خلدون كان "رواق ابن خلدون"، الذي كان يُعقد كل ثلاثاء، ويحضره إلى جانب الباحثين، أصدقاء المركز سواء من المُقيمين في القاهرة، أو ضيوفه من خارجها. وقد بدأ هذا النشاط الأسبوعي على يد الباحث **سليمان شفيق** في عاميه الأولين تحت اسم "صالون ابن خلدون"، ولكن حينما تولاه **د.أحمد صبحي منصور**، وهو أزهري، لم تعجبه كلمة "صالون" التي هي غربية، ولا تتسق مع ابن خلدون، الذي بدأ رواق المغاربة في الأزهر الشريف. فغير الاسم من "صالون" إلى "رواق ابن خلدون"، والذي ذاع صيته

مصرياً، وعربياً ودولياً، خلال سنواته الخمس الأخيرة (١٩٩٥-٢٠٠٠) قبل أن تقفل السلطات المصرية أبواب المركز، ومعه الرواق.

وقد استنّ الصالون/ الرواق سُنّة حميدة وهي تنظيم سلاسل اللقاءات حول موضوعات تهم الرأي العام أو ذات علاقة مُباشرة باهتمامات المركز البحثية. ولأن خريف ١٩٩٥ كان موسم الانتخابات البرلمانية المصرية، فقد خطّط مسؤول هذا النشاط، وهو الباحث **سليمان شفيق**، سلسلة مُحاضرات مع رؤساء أو أمناء الأحزاب الرئيسية، لكي يُقدموا برامج أحزابهم في تلك الانتخابات، والحوار حولها. وقد رحّبت كل الأحزاب بهذه المُبادرة ـ ما عدا الحزب الوطني الحاكم.

كان اللقاء الأول مع أمين عام حزب العمل، الأستاذ/ **عادل حُسني**، الذي كان يُصنّفه باحثوا المركز ضمن "الأعدقاء" أى أنه ليس عدوا لدوداً، وليس صديقاً صافياً. وكان هو الذي دخل معنا في ثلاث معارك في الثمانية عشر شهراً السابقة (الأقليات/ السكان/ المرأة). ومع ذلك فقد ظل الود الشخصي بيننا موجوداً. شرح **عادل حسين**، ومن أتى معه، أجندة حزبهم، وحدود وشروط تحالفهم مع **الأخوان المسلمين**، وعن أمله "أن يتحقق بهذا التحالف ما دعي إليه أخوة **سعد الدين إبراهيم** منذ سنوات في ظهور وتبلور حزب المسلمون الديمقراطيون" ولكن أهم ما جاء في اللقاء هو اقتراحه بأن يقوم مركز ابن خلدون بمُبادرة لمُراقبة الانتخابات النيابية، ما دامت الحكومة ترفض الإشراف القضائي الكامل، وترفض السماح لمُراقبين دوليين بأن يقوموا بهذا الدور... وللوهلة الأولى لم يأخذه الخلدونيون مأخذ الجد. ولاحظ هو أن المُستمعين قد سألوا في كل ما قاله تقريباً، إلا هذه النقطة فاستغرب هو هذا التجاهل لاقتراحه. وتدخلت، بأنه اقتراح وجيه، ولكن ابن خلدون ليس مؤهلاً لهذه المُهمة، كما أن الوقت لم يعد يسمح حيث أن المُدة التي تفصلها عن الانتخابات لا تتجاوز ستة أسابيع. ولكن **عادل حسين**، رد على هذين التحفظين بذكاء، أغرى الخلدونيين بالحوار حول مُراقبة الانتخابات فما قاله "إن ابن خلدون هو صاحب المُبادرات الجسورة... وقد عودنا أنه لا يعترف بأن هناك مُستحيلاً... كذلك فهو يتمتع بمصداقية مشهودة، حتى مع من يختلفون معه، وأخيراً، فليحاول حيث أن رحلة الألف ميل، كما يقول الصينويون تبدأ بخطوة واحدة...". ونجح **عادل حسين**، فعلاً أن يستميل شباب ابن خلدون بإطرائه على المركز فدخلوا معه، ومع بعضهم البعض في الإجابة علي السؤال "كيف ؟"... ومع نهاية اللقاء، كان الاقتراح قد قُبل من حيث المبدأ... ولكني طلبت من **عادل حسين** أن يُقدم الاقتراح مكتوباً، بخط يده وموقعاً عليه، نيابة عن حزب العمل، حتى نعرضه على بقية الأحزاب التي

سيأتي ممثلوها للحديث في الرواق من ناحية، ولعرضه على عدد من المنظمات غير الحكومية، التي قد ترغب في الاشتراك في هذه المُبادرة واستجاب لذلك على الفور.

وكان المُتحدث التالي في رواق ابن خلدون هو **د.رفعت السعيد**، أمين عام حزب التجمع اليساري. وبعد عرض برنامج حزبه، قال أنه عرف من **سليمان شفيق** بما دار في الأسبوع السابق مع "الرفيق **عادل حسين**"، وأنه نيابة عن حزب التجمع يؤيد الفكرة. ومع ذلك الوقت كنت قد استمزجت رأي **د.سعيد النجار** وآخرون من أمناء المركز ومن الشخصيات المصرية العامة... وأبدى الجميع موافقة مبدئية على الانضمام للمُبادرة، وإن كانوا قد عبّروا عن إشفاقهم علينا لضيق الوقت، ومحدودية الخبرة، وعدم توفر الموارد البشرية والمادية اللازمة.

اتصلت أيضاً بمنظمات حقوق الإنسان المصرية التي كنا قد تعاونا معها في المؤتمرات الدولية في السنتين الأخيرتين، واستجاب منها ست منظمات. فعقدنا لهم اجتماعاً في مركز ابن خلدون، كنا قد أعددنا له ورقة عمل. كذلك اتضح أن مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان كانتا تفكران جدياً في نفس الشيء، ولديهما أفكار متبلورة... واتفقنا على تناوب استضافة الاجتماعات، على أن ندعو لاجتماع تأسيسي مُكبّر في أحد الفنادق تحضره المنظمات السبع والشخصيات العامة التي وافقت على الانضمام للمُبادرة. وبالفعل تم هذا الاجتماع التأسيسي في فندق أطلس في الأسبوع الأخير من سبتمبر. وتم تأسيس ما أصبح يسمى اللجنة المُستقلة لمتابعة الانتخابات The Independent Commission for Election Review (ICER) وانتخب **د.سعيد النجار** رئيساً لها، و**د.ميلاد حنا** نائباً للرئيس و**سعد الدين إبراهيم** أميناً عاماً. كما اختير رؤساء المُنظمات المُشاركة أعضاء في مجلس إدارة اللجنة كما اختير مركز ابن خلدون ليقوم بدور ومهام الأمانة العامة للجنة، ويكون مُتحدثاً باسمها.

وضمت اللجنة من الشخصيات العامة كل من **د.عبد العزيز حجازي** (رئيس وزراء مصر الأسبق) والسيد/ **أمين هويدي** (وزير دفاع أسبق)، وأ. **عبد العزيز محمد** (نقيب المحامين في القاهرة) و**د.مراد غالب** (وزير خارجية أسبق)، والسفير **محمود قاسم** (عضو لجنة الأمم المتحدة لمراقبة الانتخابات في عدد من بلدان العالم الثالث)... وخمسون آخرين.

وحينما صدر أول بيان صحفي حول إنشاء اللجنة، وأهدافها، وأعضائها، شنّت عليها الصُحف الحكومية (الأهرام/ الأخبار/ الجمهورية) حملة شعواء، لأن

مُجرد إنشائها "ينطوي على شك في نزاهة الحكومة، ويسيء إلى مصر كلها في القيام به". واستقصت الصحف الحكومية ـ كما تفعل عادة في حملاتها المفتعلة ـ عدداً من أساتذة القانون، الذين أفتوا بالطبع "بأن مثل هذه اللجنة غير دستورية وغير قانونية" حيث لم ينص على جواز قيامها أي مادة في الدستور أو قانون مُباشرة الحقوق السياسية.

وعقد مجلس الوزراء جلستين في أسبوعين مُتتالين للبحث في الإجراءات الكفيلة بالتعامل مع هذه اللجنة "اللادستورية" واللاقانونية... وتمخضت هذه الحملة المضادة ـ التي شارك فيها وزارة الداخلية والعدل والدولة لشؤون مجلس الشعب والشورى، والإعلام ـ على إجرائين "حاسمين" ـ أولهما، التنبيه على كل السلطات الرسمية، بما فيها رؤساء اللجان الانتخابية المركزية والفرعية، مع اللجنة المُستقلة لمتابعة الانتخابات. أما الإجراء الثاني فقد أصدره وزير الإعلام **صفوت الشريف**، بوقف بث برنامجي التليفزيوني "بعيداً عن الأضواء"، بعد أكثر من ثلاثة سنوات !.

لم تكن عملية مُراقبة الانتخابات بالشيء السهل أو البسيط، حتى إذا لم تأخذ الحكومة هذا الموقف العدائي. وقد كان إعلان موقف الحكومة مدعاة لانسحاب بعض الشخصيات العامة، وخاصة ممن كانوا وزراء سابقين، أو يتطلعون أن يكونوا وزراء لاحقين. وكنا جميعاً نتعلم ونحن نتحرك... واستعنا في ذلك بما توفر لدينا على عجل من البيانات أمدتنا بها مراكز البحوث المُتخصصة في كل من السويد Institute of Democratic Education and Application. (IDEA) والوقفية الأهلية للديمقراطية في الولايات المُتحدة، والمعهدان اللذان تمولهما، والتابعان للحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري. كذلك استعنا بالخبرة العملية للسفير **محمود قاسم**، الذي كان قد شارك في مُراقبة الانتخابات في عدد من دول العالم الثالث، كان آخرها انتخابات جنوب أفريقيا، التي اكتسح فيها الزعيم الإفريقي **نيلسون مانديلا**، مُنافسيه من البيض والسود على السواء.

كان ضمن ما تعلمناه، ودرّبنا عليه أكثر من خمسمئة مُتطوع، في ثلاثة أسابيع، هو أن مُراقبة الانتخابات تتكون من خمس مراحل متتالية: ١ ـ الترشيح ٢ ـ الحملة الانتخابية ٣ ـ التصويت ٤ـ فرز الأصوات ٥ ـ إعلان النتائج ويمكن أن يتم التلاعب ويقع الانحراف في أي من المراحل الخمس. من ذلك في حالة مصر، حيث ما زالت الأمّية مُرتفعة، وجرى التقليد على إعطاء المُرشحين رموزاً، مُصاحبة لأسمائهم على بطاقة الاقتراع مثل السمكة، والحصان، والنجمة، والشمسية. ولأن بعض هذه الرموز أكثر جاذبية وقبولاً عند

الناخبين من غيرها، فإن كل مُرشح يحرص على اختيار أكثرها جاذبية، من بين العدد المُتاح من الرموز الذي تقرره وزارة الداخلية في كل دائرة انتخابية. ولأن المُنافسة على اختيار رموز مُعينة تكون شديدة، فقد جرت العادة على أن تكون أولوية الاختيار طبقاً لأولوية تقديم طلبات الترشيح، التي تبدأ عادة من الثامنة صباحاً قبل يوم التصويت بشهر كامل، وتستمر لمدة أسبوع. وكان من أول المُخالفات التي رصدناها في اليوم الأول لفتح باب الترشيح، هو عدم احترام أولوية تقديم أوراق الترشيح في اختيار الرمز المرغوب، فقد قيل لمرشحي أحزاب المعارضة والمُستقلين في الـ ٤٤٢ دائرة من القاهرة، إلى الإسكندرية، إلى أسوان، أن رمزي "الهلال" و "النخلة"، قد تم حجزهما بالفعل لمُرشحي الحزب الوطني، حتى في الحالات التي سهر فيها راغبوا الترشيح أمام مكاتب تقديم الأوراق. وهكذا كان واضحاً منذ البداية أن الإدارة (وزارة الداخلية) تحابي الحزب الوطني. أنكى من ذلك أنها في بعض الدوائر التي تقدم للترشيح فيها "إسلاميون"، تعمدت الإدارة أن تعطيهم رموزاً منفرة ـ مثل الخنجر أو المُسدس، كما لو كانت توحي أن هذا أو ذاك "إرهابي".

كان التدريب يستغرق يومين كاملين. وكانت دورة تدريبية تشمل خمسين مُتدرباً، في ورش عمل مُكثفة، يتعرف فيها المُتدرب على قانون مُباشرة الحقوق السياسية، والحقوق الدستورية للمواطنين، ومُراجعة لأهم ما سجلته الأحزاب والصحافة والمحاكم من تجاوزات في الانتخابات السابقة، والطرق والوسائل التي قد يلجأ إليها هذا الطرف أو ذاك للغش والتزوير، وقد استعنا في ذلك بعدد ممن سبق لهم الترشيح، حيث نقلوا تجربتهم وخبراتهم للمُتدربين... كذلك اشتمل النصف يوم الأخير من التدريب على "مُحاكاة" لما يمكن أن يحدث في مراكز الاقتراع، والطريقة المُثلى لمواجهة كل موقف ينطوي على تزوير أو انحراف. ولم يكن مطلوباً من المُتدرب، الذي سيكون مُراقباً، أن يتدخل مُباشرة في أي من العمليات الجارية، وإنما فقط يتأكد، ثم يُسجل بأمانة وموضوعية وحيادية ما لاحظه كشاهد عيان.

العبقرية الشعبية

وحين قررت الحكومة منع مراقبي اللجنة من دخول مراكز الاقتراع، سارع المرشحون المستقلون بالاتصال بغرفة العمليات في مركز ابن خلدون والمنظمات الست الأخرة باقتراح مبتكر أحبط خطة الحكومة لإجهاض تجربة مراقبة الانتخابات. كان من حق كل مرشح أن يكون له مندوب في كل مركز اقتراع.

وكان الاقتراع ببساطة هو أن يعد هؤلاء المرشحين توكيلات رسمية للمراقبين من اللجنة المستقلة لمتابعة الانتخابات، كمندوبين عنهم في مراكز الاقتراع.

وقد تم تنفيذ هذا الاقتراع في هدوء وبشيء من التكتم قبيل الاقتراع بيومين فقط. وقد خدم ذلك المرشحين المستقلين الذين تعاونوا مع اللجنة، حيث أن معظمهم عادة لا يجد ما يكفي من مندوبين يمثلونهم يوم الاقتراع. وهكذا كانت هناك فوائد متبادلة للطرفين.

لم تستطع اللجنة بإمكانياتها المحدودة أن تقوم بمراقبة الانتخابات في كل الدوائر الـ ٢٤٤، والتي كانت ستتطلب حوالي عشرين ألف مراقب، حيث أن كل دائرة يكون فيها ما بين ٥٠ و ١٠٠ مركز اقتراع. ولذلك فقد لجأنا إلى اختيار عينة من الدوائر. وداخل هذه الدوائر اخترنا عينة من مراكز الاقتراع، بطريقة إحصائية "احتمالية" (probability samples).

وكان الاستثناء لهذه القاعدة، هو الإضافة العمدية للدوائر التي ترشحت فيها سيدات أو أقباط. وكانت هذه الدوائر تحديداً من نصيب مركز ابن خلدون، بينما قامت المنظمات الشقيقة الشريكة في اللجنة المستقلة، بالمراقبة في ٦٨ دائرة أخرى من مجموع الـ ٨٨ دائرة التي اختيرت من العدد الإجمالي للدوائر (٢٤٤) في مصر.

وقد تمت متابعة الجولة الأولى من الانتخابات في الأسبوع الأخير من أكتوبر، وتم تسجيل المخالفات والتجاوزات في يوم الاقتراع الذي شابه عنف غير مسبوق في أي انتخابات سابقة منذ عام ١٨٦٦ حيث سقط أكثر من ٦٠ قتيلاً، وضعفهم من الجرحى.

وقد أصدرت اللجنة تقريراً أولياً عن تلك المرحلة، التي حسمت فيها النتائج في حوالي ٦٠% من الدوائر، حيث حصل أحد المرشحين على أكثر من نصف الأصوات. أما الدوائر الأخرى فقد أعيدت فيها الانتخابات بين أعلى مرشحين حصلا على الأصوات. ولأن عدد الدوائر التي أعيدت فيها أقل، فقد أمكن إحكام المتابعة والمراقبة. وقد أصدرت اللجنة تقريراً كاملاً عن المرحلتين، وتم ترجمة ملخص له بالإنجليزية. وظهر التقرير النهائي في كتاب مطبوع بعنوان "شهادة للتاريخ". خلال أسبوعين من انتهاء الانتخابات.

وهذا هو التقرير الذي نقلت عنه وكالات الأنباء والمنظمات الحقوقية. وأهم من ذلك هو ما استعان به المرشحين حينما لجأ إلى المحاكم الإدارية، وأخيراً إلى محكمة النقض، التي قضت ببطلان الانتخابات في أكثر من نصف الدوائر. وقد أثار عمل اللجنة ثائرة الحكومة. فشنت عليه صحافتها هجوماً شديداً، استهدفت

فيه شخص رئيس اللجنة الدكتور **سعيد النجار**، وشخصي، كما سيأتي الحديث تفصيلاً في معارك أخرى، في الأيام العشرة الأخيرة من عام ١٩٩٥.

يوم من مستقبل الديمقراطية في مصر

نظمت الوقفية الأهلية للديمقراطية National Endorsement for Democracy ندوة في واشنطن لمدة يوم واحد، عن مستقبل الإصلاح السياسي والاقتصادي في مصر. وكان المتحدثون الرئيسيون فيها هم أنا، والدكتور **سعيد النجار**، والدكتور **دانيال بلومبرج** (من جامعة جورجتاون)، و**د.إبراهيم شحاته** (نائب رئيس البنك الدولي). وحضر وشارك في المناقشات السفير المصري في واشنطن، السيد/ **أحمد ماهر**، وكل من **د.رشدي سعيد**، و**د.نعيم الشربيني**، و**د.إسماعيل سراج الدين**. وعدد كبير من المهتمين بالشأن المصري في الإعلام والخارجية والدفاع والمخابرات.

وقد تحدثت عن تجربة اللجنة المصرية المستقلة لمتابعة الانتخابات (ICER) وعن نتائج الانتخابات وماذا تعنيه رغم كل ما شابها من تزوير وعنف... وموقعها في مسلسل الانتخابات منذ العودة إلى التعددية المحكومة، وكيف تناقصت نسبة مشاركة القوى المعارضة والمستقلة في مجلس الشعب من أقصاها وفي٢٠% عام ١٩٨٧ إلى أدناها وهو ٧% عام ١٩٩٥، وأن مصر تعود فعلياً إلى نظام الحزب الواحد، حتى لو ظل ديكور التعددية قائماً.

ودعم **د سعيد النجار** وجهة نظري، وعبر عن تداعيات هذا الانتكاس في مسيرة الديموقراطية على مسيرة الإصلاح الاقتصادي، التي كانت تتم بنجاح منذ أوائل التسعينيات، ستنتكس بدورها، لأنه لا سبيل لنجاح تحرر اقتصادي بلا تحرر سياسي. فقد يبدأ ويمضي أحدهما دون الآخر لعدد من السنوات، ولكن ينتكس لا محالة إذا لم يلحق به الإصلاح على الساق الأخرى عاجلاً.

وتحدث **دانيال بلومبرج** عن مشكلات ونماذج المرحلة الانتقالية من الحكم الأوتوقراطي إلى الحكم الديموقراطي، وقارن بين تجارب أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا، والتجربتين المصرية والإيرانية.

وأظن أن التقرير الذي أعدته السفارة أو مندوب المخابرات المصرية عن تلك الندوة، هو الذي استخدمته مباحث أمن الدولة بعد عدة سنوات لاتهامي بتشويه سمعة مصر في الخارج.

معركة السلام (٣)
مراقبة الانتخابات الفلسطينية

طبقاً لاتفاقية أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، كانت أحد المراحل نحو الدولة الفلسطينية هي حكم ذاتي متدرج في الضفة الغربية وغزة، من خلال "سلطة فلسطينية" بفروعها الثلاثة التنفيذية، والتشريعية، والقضائية. وكان مقرراً أن يتم بناء أجهزة هذه السلطة من خلال انتخابات رئاسية وتشريعية في مطلع ١٩٩٦ وقد بدأ الاستعداد لهذه الانتخابات في الخريف، وسط أجواء من التطلع والإثارة.

وكانت أخبار اللجنة المصرية المستقلة لمراقبة الانتخابات قد انتشرت إلى خارج مصر. لذلك طلبت "منظمة الحق" الفلسطينية من مركز ابن خلدون أن يساعدها وعدداً آخر من المنظمات الأهلية في مراقبة الانتخابات الفلسطينية. وكالعادة عرضت الطلب على باحثي المركز، الذين تحمسوا له تحمساً شديداً. وقبل اندفاعهم، نبهتهم إلى أن ذلك ينطوي على سفر إلى الأراضي الفلسطينية من خلال إسرائيل ـ سواء كان السفر عن طريق البر من غزة أو عبر نهر الأردن أو بالجو عبر مطار جوريون، وأن ذلك يعني المرور عبر نقاط الحدود الإسرائيلية وختم جوازات سفرهم بأختام إسرائيلية... ولكن ذلك لم يفتَّ من عضدهم. ووافقنا على أن نساهم من خلال أسبوع من المحاضرات أقوم بها لحوالي مئتي متدرب... ثم يقوموا هم بتدريب أربعمئة آخرين خلال الأسابيع التالية السابقة للانتخابات.

سافرت أنا و**باربارا** إلى فلسطين/ إسرائيل يوم الجمعة ١٤ ديسمبر ١٩٩٥ وفوجئنا لحظة هبوط طائرة مصر للطيران، ودخول قاعة الوصول، برئيسة القسم أو الإدارة المصرية في وزارة الخارجية الإسرائيلية ومساعدين لها وصحفيين إسرائيليين وفلسطينيين في استقبالنا. كيف عرف كل هؤلاء أنني ذاهب إلى إسرائيل وأنني سأصل على تلك الطائرة في تلك الساعة المبكرة من يوم جمعة، وهو عطلة للمسلمين، وبداية عطلة الشاباط لليهود؟ لم يكن أحد في مصر غير أسرتي والعاملين في المركز يعرفون برحلتي الأولى إلى فلسطين/ إسرائيل... ولكن كانت الجمعيات الأهلية الفلسطينية الداعية تعرف بالطبع موعد وصولي وهي التي حجزت لي حسب رغبتي في فندق المستعمرة الأمريكية (American Colony) في القدس الشرقية... ولكن على ما يبدو انتشر الخبر بسرعة في كل من فلسطين بإسرائيل. وحينما أبديت دهشتي لهذا الحشد الكبير

في استقبالي وخاصة من الإسرائيليين، قالت المسؤولة الدبلوماسية الكبيرة "أن هذه أول وأهم زيارة يقوم بها مثقف وأكاديمي مصري كبير إلى بلدنا، وهي بالنسبة لنا لا تقل عن زيارة المرحوم **أنور السادات**...". وأحسست بسرعة أنني أُستدرَج إلى طريق لم يكن في خاطري... فأسرعت بالرد عليها شاكراً الحفاوة وحسن الاستقبال: ولكني في طريقي إلى فلسطين، ولم آت لزيارة إسرائيل... لقد جئت بدعوة من منظمات المجتمع المدني الفلسطيني... وللمساعدة في تدريب مراقبين للانتخابات الفلسطينية التي ستتم في الشهر القادم..."، وقد تعمدت أن أقول ذلك بصوت مرتفع حتى يسمعه كل الصحفيين، الذين لم تتوقف كاميراتهم عن تصوير المشهد... وأخذني مندوبو الخارجية الإسرائيلية إلى قاعة كبار الزوار... ولاحظت السيدة/ **إيلا** (مديرة الإدارة المصرية بالخارجية) ضيقي من كل تلك الحفاوة، وكأنها تقرأ أفكاري وتحس بهواجسي من الاستخدام السياسي لهذه الزيارة. فقالت "أرجو ألا تقلق... خصوصاً بعد كل المعارك التي دخلتَها في السنتين الأخيرتين، والتي تابعناها هنا في الصحافة الإسرائيلية باهتمام... ثم إننا هنا بعد اغتيال رئيس وزارتنا **إيزاك رابين**، في حاجة إلى شيء يرفع روحنا المعنوية... وزيارتك جاءت في وقتها... فنحن والفلسطينيين نعيش شهر عسل هذه السنوات منذ أوسلو... فإلى جانب الانتخابات الفلسطينية، هناك مؤتمر عالمي في القدس ينظمه اليونسكو ومعهد إسبينوزا (الإسرائيلي) وجامعة القدس، وهناك جلسة مفتوحة سيتحدث فيها **ساري نسيبة**، وموضوع المؤتمر هو التسامح والتعايش: هل هما ممكنان في الشرق الأوسط؟ وذكرت **إيلا** أن نائبة مدير اليونسكو ستتصل بي في المساء في الفندق لتدعوني إلى الجلسة المفتوحة... وهو ما حدث... وقبلت الدعوة بعد مراجعة جدولي مع المنظمات الأهلية الفلسطينية... واقترحت سيدة اليونسكو، أن أقوم بمداخلة لمدة عشرة دقائق، في الجلسة الختامية المفتوحة مساء الاثنين، شكرتها، قابلاً الدعوة والحديث.

كانت **باربارا** قد زارت فلسطين عدة مرات بحكم عملها السابق في مؤسسة فورد، وعملها الحالي في مجلس السكان... لذلك فقد كانت أكثر تعوداً على المكان، ويعرفها موظفو الفندق والكثيرون من الفلسطينيين، في المنظمات الأهلية. فلمدة ربع قرن كانت تلك المنظمات هي التي تدير الحياة المدنية للمجتمع الفلسطيني، تحت الاحتلال منذ عام ١٩٦٧. وللأمانة فقد كنت أنا الأكثر قلقاً من تلك الزيارة، والتي قاومتها منذ عام ١٩٧٧، حينما دعتني حركة السلام الإسرائيلية، ثم الرئيس **السادات** فيما بعد لاصطحابه في زيارته التاريخية للقدس. هذا، رغم إيماني بضرورة وأهمية سلام عربي - إسرائيلي، وإعلان هذا الموقف علناً، وفي كتابي "رد الاعتبار للرئيس **السادات**"، الذي صدر عام

١٩٩١. كانت المقاومة نفسية بحتة، وليست سياسية... لم أكن قد تغلبت بعد على كراهيتي لذلك الكيان الذي تعلمت أنه "استعماري استيطاني توسعي، عنصري، عدواني". ورغم أنني تعلمت بعد ذلك أن إسرائيل ليست "كياناً أحادياً مصمتاً"، ولكنه كيان تعددي، فيه من قوى السلام والتقدم ما لا تختلف رؤيتهم مع رؤيتي، إلا أن المقاومة النفسية ظلت قائمة. ولا بد أن زوجتي، **باربارا** قد أحست بقلقي الصامت، لذلك عرضت أن تصاحبني، مدعية أن لديها عملاً يتصل بمجلس السكان في غزة، وأنها ستتركني لمدة يومين خلال أسبوع إقامتي في القدس لذلك الغرض.

كان يوم عملي في القدس يبدأ في السابعة صباحاً على إفطار عمل مع فلسطينيين أو أكاديميين إسرائيليين، وصحفيين من الطرفين. قابلت على الإفطار أو الغداء أو العشاء كلاً من **فيصل الحسيني**، و**عزمي بشارة**، و**ساري نسيبة**، و**حنان عشراوي**، و**صائب عريقات**، و**نبيل شعث**، و**مصطفى** و**مروان البرغوثي**. كانوا جميعاً سعداء بزيارتي لأرض السلطة الفلسطينية، كأول شخصية عامة غير حكومية... وعبروا عن عتابهم أو استغرابهم للعزلة العربية التي يعيشونها على الأرض مع جيرانهم العرب بدعوى مقاومة "التطبيع"، بينما هناك قوى فلسطينية وإسرائيلية تعمل معاً من أجل سلام عادل، ويمكن أن تنمو بوتيرة أسرع إذا ما تلقت دعماً وتواصلاً من أقرانها في مصر والأردن.

سار برنامج تدريب المراقبين كالساعة طبقاً للجدول الزمني، الذي كان يبدأ يومياً من التاسعة ويستمر إلى الرابعة، ويتخلله غداء عمل مع المتدربين. وتمت الدورات التدريبية في أربع مدن هي القدس، ورام الله، ونابلي وطولكرم. وأتى المتدربون المئة الإضافيون من غزة، ولم يكن مخططاً أن ألقاهم، وقد تم تدريبهم في بلدة البيرة، المجاورة لرام الله. وكان المتدربون الفلسطينيون في غاية الحماس، وسرعة التعلم. ولكن كانت أسئلتهم عن مصر، وما يدور فيها من معارك سياسية وفكرية لا تقل عدداً عن أسئلتهم عن الانتخابات ومهارات المراقبة.

قمت بمداخلتي في الجلسة المفتوحة لمؤتمر اليونسكو عن التسامح والتعايش في الشرق الأوسط. وحينما جاء دور مداخلتي وأعلن رئيس الجلسة اسمي، ضجت القاعة بتصفيق طويل صاخب، أذهلني وأذهل **باربارا**... وألهمني لارتجال كلمة تلقائية، رغم أنني كنت قد كتبت مداخلة أكاديمية عن سوسيولوجيا التسامح والتعايش بشكل مقارن مع حالات الصراعات الممتدة في مناطق أخرى من العالم... وكانت الحالة ـ الألمانية ـ الفرنسية، والنموذج السويسري من الأمثلة التي استعنت بها في كلمتي، ولكن جوهر الكلمة كان عن التعايش الإسلامي ـ

اليهودي على مر "ثلاثة عشر قرناً، والشذوذ عن هذه القاعدة. لقرن واحد..." وأن دماء **السادات ورابين** قد روت شجرة زيتون جديدة في قلوب وضمائر كل المحبين للسلام، وأن على هؤلاء ونحن منهم في هذه القاعة، أن نأخذ عهداً على أنفسنا ألا نتخلى عن قلب المسرح لقوى التطرف والإرهاب، لأمثال **خالد الإسلامبولي ويائيل عامير**... وأننا نعلن من هنا أننا راغبون وقادرون ومصممون على ذلك... وقوبلت هذه الكلمات الختامية بتصفيق أكثر صخباً من الذي استقبلت به.

التقيت في القدس أيضاً بزملائي الإسرائيليين في مبادرة "البحث عن أرضية مشتركة" التي تكونت أثناء أزمة الخليج عام ١٩٩٠/١٩٩١ ومنهم **إدي كوفمان**، و**شيمون شامير**، و**رابينوفتش**، وكان الملاحظ أنهم فضلوا تأخير اللقاء معي إلى أن التقيت بالقيادات الفلسطينية، وأنجزت البرنامج التدريبي لمراقبي الانتخابات. وظهرت أيضاً في مقابلات تليفزيونية وإذاعية وصحفية للصحف الإسرائيلية والفلسطينية. وغادرت أرض فلسطين صباح الجمعة ٢١ ديسمبر، عائداً إلى الوطن المصري.

السبت الدامي: ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥
رجل لكل العصور

في اليوم التالي لعودتي من القدس كان هناك اجتماع أعددنا له مسبقاً مع المنظمات الست الشريكة في اللجنة المصرية المستقلة لمتابعة الانتخابات، لمراجعة التجربة والتعليق على التقرير النهائي الذي أعده المركز من واقع المادة التي قدمتها كل منظمة عن دورها في المراقبة. وكذلك لمناقشة وإقرار ميثاق عمل أخلاقي للمنظمات المدنية المصرية، كان قد أعد مسودة الزميل **د.محمد السيد سعيد**.

والتأم الاجتماع في تمام العاشرة صباحاً، وبدأنا وانتهينا من معظم جدول الأعمال، إلى أن وصلنا البند الأخير الخاص بمستقبل اللجنة. وهنا فجر الزميل المحلي **أمير سالم**، مدير مركز الدراسات القانونية لحقوق الإنسان قنبلة أثارت جواً من التوتر الساخن في الاجتماع.

بدأ **أمير سالم** مداخلته بالتعبير عن تقديره "واعتزازه بالعمل مع مركز ابن خلدون، وتشرفه بالعمل والتتلمذ على يدي **د.سعد الدين إبراهيم** طوال الأعوام الثلاثة السابقة، والتي وصلت إلى أقصاها في تجربة اللجنة المصرية المستقلة. ولكنه بكل أمانة لا يستطيع الاستمرار في هذا التعاون مستقبلاً، بعد زيارة **د.سعد الدين إبراهيم** لإسرائيل في الأسبوع السابق، وما نشرته صحيفة أخبار

اليوم، ذلك الصباح. وللأمانة لم أكن قد قرأت تلك الصحيفة بعد، طلبت استعارتها لدقيقة، فأعطاني إياها... نظرت في العنوان الذي كنت قد رأيته في الصباح ولكني لم أعره اهتماماً ولم أقرأ ما تحته، مؤجلاً إياه للمساء، لأنه كان أبعد ما يكون عن اتصاله بشخصي.

كانت افتتاحية أخبار اليوم بتاريخ ١٩٩٥/١٢/٢٢ بقلم **إبراهيم سعدة**، رئيس التحرير، بعنوان "رجل لكل العصور"، بدأت الصفحة الأولى، واستكملتها على صفحة كاملة على الصفحة السابعة، كما كان يفعل أسبوعياً. وبعد قراءة الفقرة الأولى، عرف أن المقال بأكمله عن شخصي، وأن مناسبته هو أنه رآني منذ عدة أيام على شاشة التليفزيون الإسرائيلي، ووجهي يملأ الشاشة مبتسماً... واستغرب **إبراهيم سعدة** أن يكون صاحب الابتسامة العريضة على التليفزيون الإسرائيلي هو نفس الشخص الذي ملأ الساحة العربية ضجيجاً في الماضي بتصديه لإسرائيل والصهيونية وانتقاده للرئيس **السادات** و**كامب دافيد**... ثم انتقل الكاتب بسرعة لاستعراض كل مواقف **سعد الدين إبراهيم** في القضايا العامة في الماضي البعيد، ثم تغيره وتحوله في الماضي القريب... من ذلك كيف كنت "اشتراكياً ونصيراً للفقراء والمستضعفين، ثم تحولت إلى مصادقة الأمراء والأميرات... وكيف كنت "ناصرياً ـ شمولياً" ثم تحولت فجأة إلى "ليبرالي، ديموقراطي"، أحاول فرض الوصاية على حكومة مصر، وأوزع صكوك غفران الحرية، وأمتش حسام التعددية... وباختصار، كيف يكون **سعد الدين إبراهيم** رجلاً لكل العصور، ويظل الناس يصدقونه ؟.

تركت المقال جانباً لقراءة متأنية فيما بعد، واستكملت الحوار مع ممثلي المنظمات الشقيقية ـ حيث أعلنت أن جوهر المجتمع المدني الذي نسعى إلى بنائه هو "الإرادة الحرة"... و"الشفافية" و"الثقة المتبادلة"... وأننا في مركز ابن خلدون نحاول تجسيد كل هذه القيم في ممارساتنا مع أنفسنا داخل المركز ومع الآخرين خارج المركز، ومن باب أولى مع رفاق دربنا في معارك السنوات الثلاث الأخيرة... وأننا سنظل على استعداد للتعاون في أي مشروعات مشتركة، دون فرض شروط أو وصاية على أحد. وأن ما نقوم به في أي مجال نعلن عنه الملأ في مجلتنا الشهرية وفي تقاريرنا الفصلية، وكتبنا السنوية. وما كان لأحد أن يعرف ماذا نفعل وبمن نتصل في الداخل أو الخارج لولا أننا نحن الذين نعلن عنه. وهذا ما حدث في مبادرة البحث عن أرضية مشتركة عام ١٩٩١، واستقبال الأكاديميين الإسرائيليين بعد أوسلوا عام ١٩٩٣، وزيارة فلسطين، عبر إسرائيل في الأسبوع الماضي... ونتمنى أن يبادلنا الرفاق نفس المشاعر والمعاملة. وانسحب المحامي **أمير سالم** من الاجتماع لتسجيل لموقعه الاحتجاجي ضد ما

اعتبره "تطبيعاً غير مباشر مع إسرائيل...". ولكن لم ينسحب ممثلوا المنظمات الأخرى. أكثر من ذلك كانوا شغوفين على معرفة تفاصيل رحلتي إلى فلسطين، والدور الذي؟؟؟ به مركز ابن خلدون في مراقبة الانتخابات الفلسطينية، واستغرق ذلك ساعتين إضافيتين، إلى الرابعة مساءً تقريباً.

وبسبب هذه الإطالة في الاجتماع... وضرورة متابعة بعض شؤون المركز مع الباحثين، لم أغادر المبنى إلا في السادسة مساء، رغم تنبيه زوجتي على ضرورة العودة المبكرة، لأن والدتها كانت قد وصلت من الولايات المتحدة، زيارتها السنوية لقضاء عطلة أعياد الميلاد معنا. وكان السائق **أحمد رزق إسماعيل**، هو الذي يقود السيارة في ذلك اليوم، أو بالأحرى في ذلك المساء، رغم أنه قضى الليلة السابقة في انتظار صديق مغربي بالمطار وهو الدكتور **محمد عابد الجابري**، الذي حضر إلى القاهرة في رحلة عمل لعدة أيام. وكانت العادة أن نأخذ طريق الأوتوستراد، إلى مدخل المعادي، ثم نخترق منطقة دجلة إلى معادي السريات. وكان الطريق البديل هو أن ننزل من المقطم إلى طريق **صلاح سالم**، عبر منطقتي السيدة **عائشة**، وعين الصيرة، إلى الكورنيش إلى معادي السريات، وكان هذا الطريق أكثر إضاءة ولكنه يستغرق عشرين دقيقة أكثر. ولما كنا في عجلة... فقد أخذنا الأوتوستراد. وقبيل الدخول إلى المعادي بحوالي مئة متر، اصطدمت السيارة المرسيدس بعمود إضاءة... ولم أشعر أو أعرف تفاصيل ما حدث بعد ذلك الارتطام، إلا في المستشفى.

كان اسم المستشفى "الجزائر"، وتقع في شارع يحمل نفس الاسم في امتداد المعادي الجديدة - بين دجلة والأوتوستراد. وقد نقلني من موقع الحادث أتوبيس صغير (مايكروباص) خاص، من ذلك النوع الذي يتسع لإثنى عشر راكباً، وانتشر استخدامه على نطاق واسع في القاهرة الكبرى، وأصبح مكملاً، بل وبديلاً لحافلات النقل العام في السنوات الأخيرة. وكما فهمت حينما أفقت في المستشفى، أن صاحب الحافلة الصغيرة توقف حينما شاهد الحادث، وطلب من ركابه النزول، واستوقف حافلة أخرى لأخذ ركابه إلى مقصدهم، بينما تولى هو والسائق **أحمد** نقلي من السيارة المرسيدس إلى الحافلة، إلى مستشفى الجزائر، حيث تولى الأطباء عمل الإسعافات الأولية، ثم الإشعات اللازمة، على الرأس والمخ والأطراف... وفي هذه الأثناء كانت الأسرة قد وصلت إلى المستشفى... ولكنهم سرعان ما اطمأنوا، حينما رأوني خارجاً من غرفة العمليات، وساقي اليسرى "مجبّسة"، وزراعي اليسرى مضمدة، ومرفوعة في علاقة برقبتي، مع كدمات مختلفة في وجهي وبقية جسمي... ولكني كنت أداعب الأطباء

والممرضات... وطبعاً سعدت لرؤيتهم، وللسرعة التي أتو بها إلى المستشفى... لقد كان هو نفس السائق الذي نقلني بحافلته، هو الذي عاد إلى موقع الحادث، حيث كان سائقي **أحمد رزق**، الذي ظل يحرص السيارة، وأخذ منه عنوان الفيلا (١١ ش عرابي)، حيث ذهب لإخبارهم، وصاحبهم إلى المستشفى... حاول صهري **نبيل** أن يعطيه بعض المال تعويضاً له عن الوقت، ومكافأة له عن مجهوده. ولكن الرجل رفض بإباء . كان رجل الحافلة الصغيرة، نموذجاً لشهامة المصري ابن البلد.

بقيت في المستشفى ٢٤ ساعة تحت المراقبة، انتقلت بعدها إلى المنزل حيث عشت طوال الأسابيع الثلاثة التالية في الطابق الأرضي من الفيلا... تحاشياً للصعود والهبوط بين الطابقين، وأنا في الجبس... واحتفلت مع الأسرة وحماتي و**نبيل** و**راندا** وحماتها بعيد الميلاد في اليومين التاليين... وحاولت المحافظة على كل الطقوس والتقاليد المعتادة في هذه المناسبة، بعد أن امتص الجميع الصدمة!.

نظرية المؤامرة : رسالتي الصباح والمساء

انتشر خبر الحادث المروع في الأوساط الفكرية والحقوقية والسياسية بسرعة... حتى أخبار اليوم التي هاجمتني صباح يوم الحادث، نشرت خبر الحادث وتمنت لي الشفاء العاجل... وامتلأ المنزل بالزوار وباقات الزهور والورود... وكان ضمن هذه الباقات واحدة من اللواء **أحمد العادلي** رئيس جهاز مباحث أمن الدولة... أعقبة بمكالمة تليفونية تأكد فيها من وصول الزهور، وتمنى لي الشفاء العاجل... ثم قال شيئاً أثارني لكي أسأل سؤالاً، أعطاه فرصة تأكيد رسالة من الجهاز !.

كانت مكالمة اللواء **العادلي** في اليوم الثالث بعد الحادث... وجاءت حماتي والأسرة تحتفل بالكريسماس، وأغاني وموسيقى الكريسماس تصدح في الفيلا... حتى أن الرجل استفسر عن نوع ومناسبة هذه الموسيقى الشجية... ولم أنتبه في البداية أن معظم المصريين لا يحتفلون بأعياد الميلاد على التقويم الغربي وهو ٢٥ ديسمبر... وأن الأقباط الذين يحتفلون بالمناسبة يفعلون ذلك يوم ٧ يناير من كل عام... هذا رغم أن الجميع يحتفلون برأس السنة... واستغرب الرجل لماذا أحتفل بالمناسبة مستفسراً ألم تتحول **د.باربارا** إلى الإسلام... وأجبته بالإيجاب لأن حماتي تزورنا، ونحتفل بأعياد الميلاد مجاملة لها... كذلك فإن حماة بنتي مسيحية كاثوليكية من أصل إيطالي، وبالتالي أصبح لدينا مبررات للاحتفال... وأحسست أن الرجل يستطرد في المكالمة على غير عادة كبار

مسؤولي الدولة أو القوات المسلحة، التي لا تربطني بهم علاقة شخصية أو عائلية... شكرت الرجل مجدداً... وقلت مداعباً أنني اعتقدت في البداية أنه أرسل باقة الزهور الفخمة بمناسبة عيد الميلاد المجيد... فقال بمودة ظاهرة، يمكنك اعتبارها كذلك... وإن كانت الزهور هي من الجهاز كله إعزازاً وتقديراً، لنفي كل ما يتردد من إشاعات... فليس هذا هو أسلوبنا" فسارعت بسؤاله، "طبعاً، حاشا لله... فمن يا سيادة اللواء يلجأ لهذا الأسلوب عادة... ؟"... صمت الرجل لعدة ثواني كما لو كان يفكر في كيفية الإجابة... ثم قال "شرف، يا دكتور... أنا فقط أردت أن أؤكد لك أن هذا الأسلوب الذي وقعت به الحادثة ليس أسلوبنا... وربما أسلوب أجهزة أخرى... لكن تأكد أنه لا علاقة لأمن الدولة بما حدث لك على طريق الأوتوستراد..." قلت له "أشكرك، وأصدقك يا سيادة اللواء... ولكني أرجوك أن تساعدني في معرفة الجهاز الآخر الذي كان وراء الحادث ؟" قال الرجل مستدركاً، كما لو كان قد أحس أنه سيورط نفسه "أنا لم أجزم، بل لم أقل، ولا حتى لمّحت أنه جهاز آخر وراء الحادث، وعلى كل حال حمد الله على سلامتك، وكل كريسماس وأنت طيب".

كان الصديق اللدود **عادل حسين** في زيارتي "للاطمئنان على صحتي... وفي وجود الصديق المغربي **محمد عابد الجبري**، وردد نفس النظرية، وهي أن ما حدث ليلة ٢٢ ديسمبر لم يكن صدفة أو قضاءً وقدراً، ولكن كان رسالة مسائية، موازية للرسالة الصباحية التي بعثت بها السلطة على لسان **إبراهيم سعده** رئيس تحرير أخبار اليوم في نفس اليوم... ولما استبعدت هذا الاحتمال لأنه يفوح "بنظرية المؤامرة"، التي أمجها وأحاربها في العقل العربي المعاصر، لأنها وسيلة العاجز والكسول. رد **عادل** بتذكيري بحادثتين شبيهين وقعا مؤخراً لكل من ابن شقيقه **مجدي أحمد حسين**، رئيس تحرير الشعب، وللكاتب الصحفي **جمال شوقي** رئيس تحرير الوفد السابق، واللذان تما بنفس الطريقة تقريبا. اعترضت سيارة كل منهما سيارة أخرى، وحينما توقف نزل مجموعة من الرجال واعتدوا على **مجدي وجمال**... واستدعى المستشار وكيل النيابة السائق **أحمد رزق**، الذي أكد "أن سيارة بوكس، كانت تسير موازية له لحوالي مئة متر، وظلت تقترب من سيارتنا، وهو يحاول تحاشي الاحتكاك، حتى اصطدم بعمود الإضاءة وسألت السائق... لماذا لم ألاحظ أنا هذه الشاحنة الموازية ؟ قال السائق "لقد كنت غافياً، كالعادة، يا دكتور"!.

١٩٩٦
توابع السبت الدامي

حاولت صحيفة أخبار اليوم أن تنظم حملة لتشويه سمعتي وكانت طريقتها المعتادة في ذلك هي أن يشن رئيس التحرير "الضربة الجوية"، الأولى مستخدماً أقوى قاذفاته، وأشد قنابله فتكاً، وأدق صواريخه توجيهاً. ثم يتلو ذلك في أيام السبت المتعاقبة، بمقابلات مع شخصيات عامة أو متخصصة في نفس المهنة أو المجال من المتنافسين، والمتصارعين، والحاقدين، والانتهازيين لتوسيع وتعميق الهجوم على الشخص المستهدف. ويستعين في هذا وذاك مما توفره له أجهزة الأمن والمخابرات، التي كان يعمل لحسابها، من معلومات دقيقة أو مغلوطة. فعل **إبراهيم سعده**، رئيس تحرير أخبار اليوم، ذلك مع **فؤاد سراج الدين** رئيس حزب الوفد، ومع **إبراهيم شكري**، رئيس، حزب العمل، ومع وزراء، كانوا ما يزالون في السلطة تمهيداً لإقالتهم ـ مثل وزيري صحة سابقين، منهما **حلمي الحديدي**، وتوجه مندوبو أخبار اليوم إلى عدد كبير من أساتذة علم الاجتماع والعلوم السياسية المرموقين لتجنيدهم في الحملة، وخاصة من أولئك الذين كانوا على خلاف فكري أو مهني أو سياسي معي. ولكن أخبار اليوم لم تنجح في استدراج أياً منهم إلى حملتها. واتصل بعضهم بي، ليخبرني بما طلبته الصحيفة، واعتذاره أو رفضه لأن يستخدم في الحملة فلجأت الصحيفة إلى عدد من المغمورين من الأكاديميين ـ مثل **د.أحمد المجذوب** و**د.رفعت سيد أحمد**، وإلى صحفيين من داخل الجريدة نفسها، مثل **صلاح قبضايا**، أو من الصحافة الصفراء مثل **مصطفى بكري**. وكان هذا سبباً في توقف الحملة بعد أسبوع واحد، بعكس ما حدث مع آخرين استمرت الحملة عليهم عدة أسابيع.

وكان الطريف حتى في الحفلة اليتيمة، التي تلت مقال **إبراهيم سعده** **(١٢/٢٢)** أي السبت، هو مشاركة ماركسيين وناصريين وإسلاميين، لا يجمع بينهم إلا أنهم مغمورين، وجدوا في الهجوم على شخصي فرصة للظهور مع صورهم في الصحيفة. وبسبب إخفاق حملة **إبراهيم سعده** وجريدته هو أنه كان معروفاً بعلاقته بالأجهزة الأمنية، وهي علاقة كانت إلى ذلك الوقت، تشين صاحبها إذا كان يعمل بالصحافة والفكر. كذلك كان واضحاً لكل مهتم بالشأن العام، أن **إبراهيم سعده** منافق كبير. فبينما حاول أن يستعدي على شخصي كل أولئك المناهضين "للتطبيع" مع إسرائيل، كان هؤلاء يعرفون أن **إبراهيم سعده** كان من أول زائري إسرائيل مع الرئيس **السادات**، وتكررت زياراته

لها، بل كان أول من فتح صفحات مطبوعات أخبار اليوم لكتّاب إسرائيليين. ونفس الشيء ينطبق على محاولة استعداء القوميين العرب واليساريين. فقد كانوا يعرفون أن **إبراهيم سعده** ليس عروبياً ولا يسارياً. وأدرك الجميع أن السبب الحقيقي للحملة كان "مناهضة الديموقراطية"، وانزعاج النظام الحاكم من كشف وتوثيق عملية التزوير الواسعة النطاق للانتخابات، لا أمام الرأي العام الداخلي الذي لا يعطيه النظام اهتماماً أو يعمل له حساباً، ولكن أمام الرأي العام الغربي، الذي يعيش النظام الحاكم في مصرعلى مساعداته ودعمه. كما أنه مع نهاية الحرب الباردة، لم تعد الأنظمة الحاكمة في العالم الثالث تستطيع اللعب على الحبال بين المعسكرين المتنافسين.

كان العنوان الذي اختارته أخبار اليوم لحملة الهجوم على شخصي، هو "**رجل لكل العصور**"، وهو اسم ذائع الصيت لفيلم أنتجته **هوليود**، في السبعينات عن شخصية تاريخية إنجليزية مرموقة، هي شخصية **السير توماس مور**، المعروف أنه كان صلباً، مبدئياً، في مواقفه من القضايا العامة، ولم يستجب لترهيب أو ترغيب الملك **هنري** الثامن صاحب النزوات الجامحة. وضاعف من جاذبية شخصية **سير توماس مور**، أن الذي لعب دوره في فيلم رجل لكل العصور، هو الممثل العالمي المشهور **رتشارد بيرتون**، الذي كان متزوجاً من أشهر ممثلات هوليود في الستينات والسبعينات **اليزابيث تايلور**. ولم أكن متأكداً ما إذا كان **إبراهيم سعده** كان واعياً بكل تلك الحقائق والتفاصيل. فالشاهد هو أنه سواء قصد أو لم يقصد، فإن إطلاق "رجل لكل العصور" (Man for all seasons) قد أضفى على شخصي، للملايين الذين شاهدوا الفيلم، هالة رومانسية أسطورية لا أستحقها أي أن الحملة، مثلها مثل معارك السنوات الأربع السابقة، زادت من شهرتي وحب استطلاع الناس عني.

وفي ردي على **إبراهيم سعده** والقلة التي نهجت، أبرزت أنا تلك الحقائق عن **السير توماس مور**، وصراعه كمفكر مع السلطة ممثلة في **هنري** الثامن. ورغم أن أخبار اليوم نشرت الرد في مكان غير ظاهر وفي صفحة داخلية إلا أن المتابعين للحملة قد قرؤها، وقرؤا تعليقاتي الساخرة على من جندتهم أخبار اليوم ممن حسبتهم علماء اجتماع، ولم أكن قد سمعت بهم أو سمع بهم أحد من قبل... كما نوهت بكبار علماء الاجتماع والسياسة الذين لم يستجيبوا... أما بقية الصحفيين فقد اكتفيت بالإشارة إلى ما يقوله عنهم زملائهم في المهنة بأنهم صبية قواد كبير، لم أذكر أسمه ولم أذكر أسمائهم.

ابن خلدون في فلسطين

ولم أنس في ردي الذي نشرته أخبار اليوم في أوائل يناير، أن أذكر أن قضية الديمقراطية والمطالبة بنزاهة الانتخابات ومراقبتها، كان هو السبب الحقيقي لهجوم **إبراهيم سعده**، وليس زيارتي لإسرائيل، بدليل أن **إبراهيم سعده** قد زارها سبع مرات... ولم يهاجم أحداً زارها من قبلي... وأنني حتى لو كنت قد زرت إسرائيل فقد فعلت ذلك بعد أن زارها كل من الرئيس **أنور السادات**، والرئيس **محمد حسني مبارك**... وأنني لست أقل منهما ولا أكثر منهما وطنية. ورد **إبراهيم سعده** في مربع يقول "أنه لم يزر إسرائيل إلا خمس مرات وفي مهمات صحفية، وأن الرئيس **حسني مبارك** زار إسرائيل مرة واحدة لتأدية واجب العزاء في **أيزاك رابين**، الذي سقط برصاصات الاغتيال" كذلك لم أنس أن أنوه في ردي المنشور بأخبار اليوم بأن مهمتي الرئيسية كانت لفلسطين لتدريب المنظمات غير الحكومية فيها على مراقبة أول انتخابات رئاسية ونيابية تتم في تاريخها... وأنه مع نشر هذا الرد (الذي كانت الصحيفة قد نوهت بتاريخه في عددها السابق) أن وفداً ثمانياً... مركز ابن خلدون، سيكون قد وصل إلى غزة والضفة الغربية، استعداداً لمراقبة الانتخابات، ضمن فريق دولي أكبر، يتكون من مئة مراقب، برئاسة **جيمي كارتر**، الرئيس الأمريكي الأسبق.

لقد قصدت بردي، لا فقط تفنيد وتسفيه هجوم **إبراهيم سعده**، ولكن أيضاً التنويه بالدور الدولي الذي بدأ يلعبه ابن خلدون في نشر الديموقراطية في العالم الثالث، بدءاً من فلسطين. وأننا في أداء هذا الدور، لا ننتظر إذناً من أحد، غير أصحاب الشأن المباشرين. كذلك انطوى الرد على إعلان مسبق بأننا لو زرنا إسرائيل، فإننا سنكون قد فعلنا ذلك بعد الرئيس **السادات** بسنوات وبعد الرئيس **مبارك** بشهور، وأننا لا نقبل أن يزايد على وطنيتنا أو عروبتنا أحد.

كانت هناك تلميحات وتصريحات مستمرة بأننا "مستقلون" لا نقبل وصاية من أحد، ولا نأخذ إذناً أو تصريحاً من أي جهاز رسمي أو حكومي إلا إذا كان هناك قانون يتطلب ذلك.

سافر وفد ابن خلدون إلى فلسطين بطريق البر، عبر شمال سيناء، ورفح. كان الوفد برئاسة الصحفي الباحث **سليمان شفيق** (٤٠ سنة)، الذي كان الأكثر حماسة لمهمته في فلسطين، وتراسل مسبقاً مع أصدقاء فلسطينيين قدامى درسوا معه في موسكو. ضم الوفد أيضاً الباحث **أشرف بيدس** (٣٥ سنة) أقدم من التحقوا بالمركز منذ ١٩٨٨، وهو من أب فلسطيني وأم مصرية، ولد في القاهرة، وعاش فيها ولم يبرح مصر طوال حياته، وكان الأكثر شوقاً للمشاركة في هذه

المهمة، لكي يرى أرض آبائه وأجداده التي حرم من رؤيتها بعد اغتصابها بواسطة الحركة الصهيونية وضم الوفد أيضاً باحث أمريكي من أصل هندي مسلم هو **ساهر لوني** (٢٥ سنة)، والباحث **كريم صبحي** (٢٦ سنة)، و**أيمن خليفة** (٢٣ سنة)، وثلاث باحثات منهن الأمريكية لندا هورن. وعند نقطة العبور المصرية في رفح، سمح لأربعة بالمرور هم **سليمان** و**أشرف**، و**ساهر**، و**ليندا**، ولم يسمحوا **لكريم**، و**أيمن**، و**سارة**، واتصل بي المحتجزون من رفح، فقمت بالاتصال بمدير مصلحة الجوازات، الذي أكد لي أنه ليس هناك مشكلة بالنسبة لإدارته، ولكن المشكلة مع مباحث أمن الدولة، واتصلت بمدير الجهاز، الذي كان أرسل إليّ زهوراً منذ أسبوعين... فقال أن المشكلة ليست عنده، حيث أن كل نقاط العبور الحدودية لا تخضع لجهاز أمن الدولة ولكن للمخابرات. كانت المشكلة أنني لا أعرف من أتصل به في جهاز المخابرات... وكان الأربعة المحتجزون قد اتصلوا أيضاً بأسرهم، التي قامت أيضاً باتصالاتهم بالأجهزة وبي... وكان ضمن هذه الاتصالات بالخارجية، حيث يعمل والدي **أيمن** كسفير ووزيرة مفوضة. ومن خلالهما حدث الاتصال بجهاز المخابرات... وبعد ١٢ ساعة من الاحتجاز والاتصالات، إلى أن سمح لهم أخيراً بالمرور.

حينما وصل الجميع إلى القدس الشرقية اتصلوا بالمركز الذي كان به غرفة عمليات، كانت على اتصال دائم بثماني ابن خلدون... على الأقل خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى... وقد طاف أعضاء الوفد في اليومين الأوليين بأهم مدن الضفة مع زملائهم من المنظمات الأهلية الفلسطينية، ثم اتصلوا بفريق المراقبين الدوليين الذي كان يقوده الرئيس الأمريكي الأسبق **جيمي كارتر**، ونسقوا معه... وكان من نصيب **ساهر** و**ليندا** أن يذهبا مع مراقبين آخرين إلى غزة، بينما توزع الستة الآخرين على مدن وقرى الضفة الغربية.

وقام ثماني ابن خلدون بما أسند إلى كل منهم خير قيام... وكانوا محل تقدير من الناخبين والمرشحين وبقية المراقبين الدوليين. وقد كتب لهم الرئيس **جيمي كارتر** كلمة شكر وتقدير.

وبعد انتهاء أول انتخابات فلسطينية بالحد الأقصى من النجاح وبحد أدنى من الانتهاكات التي رصدها مراقبوا ابن خلدون (في خمسة دوائر في غزة، وست دوائر في الضفة الغربية). ذهب بعض أعضاء الوفد إلى إسرائيل، وتحديداً إلى مدينة يافا، حيث كانت تعيش عائلة **بيدس**، التي ينتمي إليها **أشرف**... وبحثوا وسألوا إلى أن وصلوا إلى الشارع والعنوان الذي كانت تقيم فيه الأسرة... كان المنزل قد هدم، وقامت مكانه بناية من عدة طوابق، يسكنها يهود عرب من العراق. كانت خبرة مهمة بالنسبة **لأشرف**... ولكن دهشته أنه لم ينفعل للدرجة

وبالعمق الذي كان يتوقعه. من ذلك أنه لم يبك ولا مرة خلال الأسبوعين اللذين قضاهما في فلسطين... بل كان أكثر أعضاء الثماني شوقاً للعودة إلى مصر... وحينما عبر نقطة حدود رفح الإسرائيلية إلى رفح المصرية، قال زملائه، أنه الوحيد الذي سجد على الأرض، وقبّلها، وانهالت من عينيه الدموع.

وفي الاجتماع الأسبوعي التالي لعودة وفد ابن خلدون، سألت **أشرف** عن صحة الواقعة... فأقرها... وشرح لزملائه الذين لم يذهبوا إلى فلسطين، أنها كانت خبرة مهمة في حياته، لا فقط لأنه تعلم فيها كثيراً، وليس فقط لأنه شارك في حدث تاريخي هام في حياة الشعب والأرض الذي ينتمي إليها، ولكن الأهم أنه أكتشف معنى "الوطن". لقد أدرك أن فلسطين تظل وطن الأجداد، الذي يعتز به كمعنى مجرد. ولكن مصر هي وطنه الحقيقي، الذي ينفعل به وله وجودياً... والذي لن يتركه أبداً، وينوي أن يعيش ويموت فيه.

أعد وفد المركز، تقريراً، حرره وقدم له **سليمان شفيق** بعنوان "رحلة إلى فلسطين"، كما لو كان رداً على كتاب المسرحي النابه **علي سالم**، بعنوان "رحلة إلى إسرائيل"، والذي صدر قبل سنتين (١٩٩٤)، وحكي فيها أيضاً بأمانة انطباعاته من واقع المشاهدات العينية للأرض والناس والمؤسسات هناك... ونشر **سليمان شفيق** سلسلة مقالات في الأهالي عن التجربة التي مر بها هو والفريق... ولم يترك ذلك كله اعتراضاً، أو انتقاداً، أو استحساناً واحداً. وهو عكس ما حدث تماماً كرد فعل لرحلتي الأولى إلى فلسطين!.

١٩٩٦

هيئة دعم الناخبات: هدى

ظلت حركتي محدودة خلال شهري يناير وفبراير ١٩٩٦، بسبب حادث السيارة المروع. ولكن تزامن هذا العجز مع إجازة "التفرغ السبعي" (Sabbatical fovea) التي تعطى للأساتذة كل سابع سنة بعد تثبيتهم في النظام الجامعي الأمريكي.

وكان ضمن ما انتويت إنجازه أكاديمياً في ذلك التفرغ هو تجميع كتاباتي حول "الإسلام الاجتماعي"، وحول "المجتمع المدني"، لإصدارهم في كتاب أو كتابين. كذلك كان ضمن المشروعات التنظيمية والتطبيقية للمركز: تأسيس منظمة نسائية تعمل على الإقراض لمشروعات صغيرة ومتناهية الصغر، ومشروع لمراجعة الكتب المدرسية، بقصد تنقيتها مما يغرس التزمت والتعصب والتطرف والعنف، ويغرس بدلاً من ذلك قيم وممارسات التسامح وقبول الآخر والاحتفاء بالتنوع.

كان بقائي في المنزل لستة أسابيع، بلا كثير حركة أو تحرك، فرصة للتفكير في هذه المشروعات، وفي غيرها. وكانت هذه الأفكار بمشروعات تمثل في مجملها نقله كيفية في نشاط مركز ابن خلدون، يمكن تلخيصها أو النظر إليها كنمو عضوي من الأفكار، إلى الأبحاث، إلى الدعوة إلى التطبيق.

كان الاهتمام بتنمية المرأة في أوليات عمل المركز لعام ١٩٩٦. فقد كانت الأنشطة السابقة واللاحقة للمؤتمر العالمي الثالث للمرأة في بكين تعرض هذا الهم أجندتنا. وكان وجود عدد من الباحثات والنساء النابهات ضمن العالمين في المركز ومجلس الأمناء حافزاً إضافياً إلى تطوير النشاط. وأخيراً كان لدينا توصيات من مؤتمري "المرأة المصرية والمشاركة السياسية" (١٩٩٣) و "المرأة العربية والمشاركة السياسية" (١٩٩٥)، بأن يرعى مركز ابن خلدون منظمة خاصة للمرأة، تتجاوز "التبغيات" إلى العمل التطبيقي المباشر.

وكان في ذهني وذاكرتي نموذج أمريكي لتنمية المشاركة السياسية للمرأة، وهو "العصبة الأمريكية للناخبات" (The League of American Women Voters). وكنت قد حاضرت عدة مرات في فروع هذه المنظمة أثناء إقامتي في الولايات المتحدة وقد نشأت في أواخر الثلاثينيات، بعد حصول المرأة الأمريكية على حقوقها السياسية في أوائل العشرينات. فقد اتضح لزعيمات الحركة النسائية هناك، أنه رغم نضال الأول منهن من أجل هذه الحقوق، إلا إنه بعد نيلها ، لم تتحمس معظم النساء الأمريكيات على ممارستها. فنشأت رابطة أو جامعة الناخبات الأمريكيات حوالي خمسة عشر عاماً من إقرار هذه الحقوق لتفعيلها. وكان الوضع مماثلاً في مصر. فقد استكملت المرأة المصرية حقوقها السياسية في دستور ١٩٥٦، وترشحت بالفعل امرأة، وتم انتخابها في العام التالي (١٩٥٧)، وهي السيدة **راوية عطية**، إلا إن هذه الممارسة لم تنمو أو تتطور في الأربعين سنة التالية، وظلت المجالس النيابية المنتخبة لا تضم بين أعضائها الذين يتجاوزون الربعمئة إلا ثلاثة أو أربعة ـ أي أقل من واحد في المئة.

طرحنا فكرة إنشاء هيئة لدعم الناخبات المصريات، على حوالي مأتي امرأة مصرية من اللاتي شاركن في ندوات ومؤتمرات المركز في السنوات الخمس الأخيرة. وتحمس لها حوالي نصفهن. وطلبت من أحد الباحثات النشطات، وهي **نجاح حسن**، أن تتولى تنسيق هذه المبادرة... فأعددنا مسودة نظام أساسي للهيئة النسائية المقترحة، على غرار مركز ابن خلدون. وبالفعل عقدت عدة اجتماعات تحضيرية، ثم مؤتمر تأسيسي، في ربيع ١٩٩٦، حيث أعلن ميلاد "**هيئة دعم الناخبات**"، والتي كونت الحروف الأولى من اسمها هـ.د.أ. فجرى

اختصارها إلى "**هدى**" ؟؟؟ بالسيدة **هدى شعراوي**، أول زعيمة للحركة النسائية المصرية والعربية في أواسط القرن العشرين وأصرت المؤسسات على فتح باب عضوية هدى للرجال. وانضم لهم بالفعل حوالي عشرين رجلاً من المتعاطفين والمتحمسين لقضية المرأة.

وتم انتخاب أول مجلس أمناء لهدى، برئاسة السيدة/ **أمينة شفيق**، الصحفية بالأهرام، وعضو مجلس أمناء ابن خلدون وقد سعدت بانتخابها الذي تم أثناء رحلة إلى خارج مصر. فهي من اليساريات الجادات. ومن القياديات النقابيات المخضرمات التي سبق أن انتخبت عدة مرات لموقع أمين صندوق نقابة الصحفيين. كما كانت عضواً نشطاً في المكتب السياسي لحزب التجمع. وكنت أنا و**نجاح** قد أعددنا برنامجاً لتوعية النساء وتشجيعهن على القيد في جداول الانتخابات لممارسة حقوقهن الانتخابية. وقمنا بصياغة مشروع مقترح لتمويل هذا البرنامج. واستجابت له من حيث المبدأ المفوضية الأوربية. واستغرقت المفاوضات مع ذلك أكثر من سنة وثلاثة أشهر إلى أن وقّعت "هدى" والمفوضية عقد منحة بحوالي مئة وثلاثين ألف أيكو/ يورو، لتمويل البرنامج في يوليو ١٩٩٧.

خلال الشهور الستة الأولى من حياة "هدى"، استضافها مركز ابن خلدون، حيث عقدت اجتماعات الجمعية التأسيسية، وانتخب مجلس الأمناء... ولأنني كنت خارج البلاد فقد حرصت **نجاح** على تسجيل كل الوقائع الصوت والصورة بكاميرة فيديو المركز، والتي كانت قد أعطيت لوفد المركز الذي درّب مراقبي الانتخابات في أندونيسيا قبل شهرين.

وحين بدأت **أمينة شفيق** ممارسة مهام رئاستها الفعلية لهدى، فقد سعت لتوفير مقر مستقل لها في قلب المدينة - حيث أن المقطم كان بعيداً ويصعب الوصول إليه بواسطة النساء الذين يتعاملون مع المركز، ومعظمهن بسيطات ولا يملكن سيارات خاصة. كذلك كانت **أمينة شفيق** نفسها قد تقدم بها السن، وكانت تسكن في حي "معروف" قرب مركز المدينة وبعد عدة أسابيع جاءتني تخبرني أنها وجدت شقة مناسبة تصلح مقراً لهدى، ولكن صاحبها يطلب فيها مئة وستين ألف جنيه، لم تكن متوفرة في هدى الوليدة. فقمت بتوفير المبلغ من أموالي الخاصة... واشتريت الشقة بأسمي، وأجرتها بإيجار رمزي لهدى... وقامت **نجاح وأمينة** بالإشراف على تجهيز المقر - بتزويده بالأثاث المناسب، وجهاز كمبيوتر، وخطوط فاكس وتليفونات محلية ودولية وماكينات تصوير، وثلاجة... وما إلى ذلك مما وصل إلى خمسين ألف جنيه أخرى، دفعتها أيضاً من أموالي الخاصة. وتم افتتاح المقر الجديد لهدى بحضور عدد كبير من الشخصيات النسائية

والمشتغلين بالإعلام الأوربي، وفورد، والمركز الكندي لبحوث التنمية الدولية. وكانت مناسبة للإعلان عن "**هدى**" والدعاية لها، وتعريف المهتمين بموقعها الجديد . ١٤ شارع الجمهورية، في وسط المدينة، بين مسرح الجمهورية ومحكمة عابدين. وكانت الجمعية التأسيسية لهدى، قد انتخبتني أميناً للصندوق، رغم أنني كنت خارج البلاد.

وبوصول الدفعة الأولى من منحة الاتحاد الأوربي، بدأت هدى في ممارسة أول أنشطتها بندوة لشرح أهدافها، وإنتاج كتيب للتعريف ببرامجها. وخلال شهرين بدأت أول برامجها في تدريب عاملات ميدانيات من الأحياء الشعبية في القاهرة للقيام بتوعية النساء ومساعدتهن على القيد في الجداول الانتخابية، والتي كانت عادة تفتح لهذا الغرض في أقسام الشرطة لمدة ثلاثة شهور سنوياً هي نوفمبر وديسمبر ويناير. وأعاد مركز ابن خلدون أحد السكرتيرات . وهي **نبال عبد النبي كشك** للعمل في هدى. كما وظفت هدى ثلاثة أخريات وأحدهما محامية وهي **إيزيس محمود**، وعاملة ميدانية من باب الشعرية هي **وردة علي طه**، وعاملة نظافة هي سيدة. وانطلقت هدى، وأصبح مقرها خلية نحل، لا تقل عن ابن خلدون. إلى أن أغارت عليها الأجهزة الأمنية بعد ذلك بثلاث سنوات، وأوصدت أبوابها . مثلما فعلت مع مركز ابن خلدون، في ليلة ٢٠٠٠/٦/٣٠.

تأهيل التائبين الإسلاميين

قام المركز بمبادرة تطبيقية أخرى عام ١٩٩٦، وهي تأهيل التائبين الإسلاميين للانخراط في المجرى الرئيسي للحياة الاجتماعية الاقتصادية، من خلال المشروعات الصغيرة. وقد كانت هذه المبادرة نتاج عدة تطورات، كان بعضها "واعياً" "مقصوداً"، وكان بعضها عفوياً ومصادفة، وعلى امتداد أربع سنوات سابقة.

كانت البداية في يناير ١٩٩٢، حينما طرق باب مكتبي شاب ملتحٍ، وقدم نفسه، **كمال السعيد حبيب**، وخيل إليّ لحظتها أنني سمعت الاسم من قبل أثناء إعداد مساعدتي **نعمت الله جنينة** لرسالة الماجستير عن تنظيم الجهاد، الذي اغتال الرئيس **السادات**، منذ عشر سنوات وثلاثة أشهر، ولم يتركني الزائر، لمزيد من التخمينات... حيث أكد لي على الفور أنه نفس الشخص الذي ورد أسمه في رسالة **نعمت**، وأنه أول المفرج عنهم من المتهمين في القضية، حيث كانت عقوبته عشرة سنوات، انتهت في أكتوبر ١٩٩١... وأنه منذ خرج من السجن وهو يبحث عن عمل، بلا جدوى... ولا يريد أن يستمر عالة على ذويه... ولأول وهلة اعتقدت أنه يعني والديه... ولكن اتضح أنه يقصد زوجته

وأطفاله الخمسة الذين أنجبهم وهو في السجن . حيث كان يسمح له بخلوة شرعية مع زوجته شهرياً وهو في السجن... ساعدناه في توفير عمل له كمصحح.

كانت المناسبة أو الصدفة التالية، حينما أعدت مساعدتي لمقابلة تليفزيونية لقائد الجناح العسكري للجامعة الإسلامية في إمبابة، وهو **حسن سلطان**، الشهير "**بحسن كارتيه**"، في البرنامج الذي كنت أقدمه مساء الجمعة من كل أسبوع. وفي هذه المقابلة أجاب على سؤال : ما الذي يقنعه بالإقلاع عن التطرف والإرهاب؟ وكانت إجابتي "فرصة معقولة لعمل شريف". وهو ما نجحنا فيه بمساعدة محافظ الجيزة وقتها. زميل الدراسة في أمريكا **د.عبد الرحيم شحاته**، ورجل الأعمال **هاني رزق**، حيث منحنا **حسن كراتيه** قرضاً صغيراً، افتتح به كشكاً لبيع الأطعمة والمشروبات الخفيفة، وأطلق عليه "نجمة إمبابة"، واستخدم معه ستة من أقاربه وإخوانه السابقين في الجماعة الإسلامية، وكانت هذه التجربة في أواخر عام ١٩٩٤.

وكان النجاح في تجربتي **كمال حبيب** (الذي استكمل دراساته العليا وحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية) و**حسن سلطان** (الذي توسع مشروعه التجاري وأصبح من كبار رجال الأعمال في المنيرة الغربية في منطقة أمبابة) حافزاً للتوسع فيها فأعددنا مقترحاً بهذا المعنى لإعادة تأهيل الإسلاميين من الشباب الذين سبق لهم الاصطدام بالسلطة، ويرغبون في الإقلاع عن العنف. وكان جوهر المشروع، إعطاء من يرغب من هؤلاء الشباب تدريباً بسيطاً لإعداد دراسة جدوى، وتعلم مهارات التنسيق، وإمساك الدفاتر، وتوفير جزء من تمويل المشروع الصغير الذي يرغبه، على أن يقدم له مركز ابن خلدون قرضاً، تتراوح قيمته بين ألف وخمسة آلاف جنيه، يقوم بتسديدها من الشهر الأول لاستلام القرض، وعلى أقساط لا تتجاوز السنتين. وقد استفدنا في صياغة مشروع القروض الصغيرة لتأهيل الإسلاميين، من؟؟؟ ؟؟؟ التي تراكمت من مبادرة الدكتور **محمد يونس**، أستاذ الاقتصاد الزراعي بجامعة "داكا" في بنجلاديش. وكنت قد سمعت، ثم قرأت كثيراً، عن بنك جرامين (بنك الفقراء) من زوجتي، ومن صديقي **د.إسماعيل سراج الدين**، ثم من **محمد يونس** نفسه، حينما تزاملنا في عضوية المجلس الاستشاري للتنمية المتواصلة، الذي أنشأه البنك الدولي، في أعقاب مؤتمر قمة الأرض (١٩٩٢).

وفي البداية لم يتحمس المانحون الكبار لتمويل المشروع، بسبب حساسية التعامل مع أي شيء "إسلامي" ولكن جهة مانحة مغمورة، لم يسبق لنا التعامل معها، وهي هيئة المعونة الفنلندية (F,N,DA)، عرضت علينا منحة متواضعة قدرها عشرة آلاف دولار للمشروع. وقد فرحت بها، كما لو كانت مليون دولار،

لمجرد أن سفير فنلندا في القاهرة اقتنع بالفكرة، وزكّاها، لهيئة المعونة في بلاده... ونجح المشروع، واستفاد منه خلال السنوات الثلاث التالية حوالي ١٢٠ شخصاً في منطقة إمبابة... وحينما وقعت مذبحة الأقصر الشهيرة في نوفمبر ١٩٩٧، التي راح ضحيتها حوالي ٦٠ سائحاً، أجنبياً، معظمهم من سويسرا، واليابان، وبريطانيا... وسأل كثير من المراقبون "ما العمل لاحتواء ظاهرة التطرف والمتطرفين؟" ... أشار أحدهم إلى تجربة ابن خلدون في تأهيل المتطرفين، فانهالت علينا كل شبكات الإعلام الرئيسية للتعرف على التجربة. ومن ذلك أن شبكة CNN، قد أذاعت برنامجاً من سبعة دقائق في أواخر نوفمبر ١٩٩٧، ونوهت فيه بالتجربة الرائدة والخلاقة لمركز ابن خلدون وأشارت بشجاعة هيئة المعونة الفنلندية... وقارنت بينهما وبين هيئة المعونة الأمريكية (AID) التي تنفق ٢ مليار دولار سنوياً في مصر، دون أن تعطي دولاراً واحداً لمشروعات ابن خلدون، ومنها مشروع تأهيل المتطرفين. وقابلني مدير هيئة المعونة الأمريكية بعد أيام من إذاعة برنامج CNN، ليعبر عن حسده للهيئة الفنلندية التي حصلت على كل هذه الدعاية مقابل عشرة آلاف دولار، بينما هم لم يحصلوا على دقيقة إشادة واحدة من الـ CNN، رغم المبالغ الطائلة التي ينفقونها في مصر... وحينما ذكرتهم CNN على الإطلاق، فبطريقة سلبية نقدية... قلت للرجل لقد عرض عليكم مقترح نفس المشروع واعتذرتم عن المساعدة في تمويله... فرد أنه كان شخصياً متحمساً، ولكن الحكومة المصرية هي التي تحفظت. قلت له أن ميزة فنلندا هي نفس ميزة ابن خلدون صغار في الحجم، كبار في الإبداع، ولا نطلب إذناً من الحكومة!.

مشروع تنمية النساء

طلبت بعض زوجات إسلاميين معتقلين أو مسجونين أن يستفدن من مشروع الإقراض الذي يستفيد منه الإسلاميين التائبين. وقد نقلت أحد الباحثات، وهي نجاح حسن، هذه الرغبة، ودافعت عنها بحماس. وكانت حيثياتها أن الهدف التنموي العام ينبغي ألا يميز بين الذكور والإناث، وأنه إذا كانت أحد معايير التنمية هي مساعدة الأكثر احتياجاً، فإنه ينطبق تماماً على النساء اللاتي يعُلن أطفالاً، أو اللاتي اختفى أو هجرهن، أو سجن أزواجهن. هذا فضلاً أن مد المساعدة إلى هؤلاء الزوجات ينطوي على بُعد وقائي لأسر المعتقلين والمسجونين. فهو يعصم النساء من الذل والذلل، ويقي الأطفال شرور الحرمان، أو التسرب من التعليم. واقتنعت تماماً بالمفهوم والمبررات.

ومن ثم عددنا مقترحاً لا فقط للإقراض، ولكن أيضاً لتنمية النساء عموماً. وكان ذلك من خلال إضافة بُعد تربوي للمشروع. من ذلك جعل معرفة القراءة والكتابة شرطاً تفضيلياً في منح القروض إضافة إلى اعتبار الاحتياج. فإذا كانت هناك زوجتين تحتاجان الاقتراض، كانت الأولوية تعطى لمن تقرأ وتكتب.

ثم أنشأنا فصولاً لمحو أمية النساء... ومع انتهاء عام دراسي، يتعلمن فيه مبادئ القراءة والكتابة، يصبحن مؤهلات للاستفادة من القروض الصغيرة. ووجدنا تمويلاً لهذا المشروع من عدة جهات. السفارة الاسترالية، والسفارة الهولندية، والسفارة الأمريكية. فقد أسهمت كل جهة بمنح تتراوح بين عشرة وعشرين ألف دولار. وكانت الأكثر تحمساً للمشروع هي سفيرة أستراليا في القاهرة، السيدة/ **فيكتوريا أوين** (Victoria Owen). وهي التي بدأت تروج له بين زملائها من السفراء. فقد اتضح أن معظم سفراء العالم الأول لديهم اعتمادات مباشرة للإسهام في مشروعات خيرية، دون الرجوع لعواصمهم. ومع نهاية عام ١٩٩٦، أصبح مشروع تنمية النساء هو الأكثر شعبية بين المانحين.

ومن ناحية أخرى، أقبلت الفتيات في عزبة المفتي والمنيرة الغربية بمنطقة إمبابة على مشروع تنمية المرأة، في البداية كشقيقات أو بنات معتقلين أو مسجونين، ثم بعد ذلك لاعتبارات الاحتياج والرغبة. وفي العام الثالث للمشروع، بدأت فتيات الحي اللاتي لم يذهبن إلى المدرسة أو اللاتي تسربن من التعليم النظامي يُقبلن على هذه الفصول لتعويض ما فاتهن. ومع عام ١٩٩٨. تضاءلت نسبة من كن مستهدفات أصلاً بالمشروع ـ وهن زوجات المعتقلين والمسجونين، وذادت نسبة الراغبات في الاستفادة من النساء والفتيات سواء من شق الإقراض أو شق محو الأمية.

الجزّارة إيمان

من أطرف نماذج النجاح في مشروع تنمية المرأة، حالة الفتاة **إيمان**، التي بدأت الاستفادة من شق محو الأمية عام ١٩٩٦، ثم فقدت والدها الذي كان يعمل جزاراً، وترك وراءه عدة أطفال، كانت **إيمان** أكبرهم ولم يتجاوز عمرها ثمانية عشرة. وبعد عدة شهور من وفاة الأب، ونضوب ما كان قد تركه لهن من أموال، فقدمت **إيمان** على استحياء، لمنسقة مشروع تنمية المرأة في إمبابة بطلب لقرض لكي تعيد فتح محل الجزارة، الذي كان يستأجره والدها... وحينما سؤلت عمن سيدير المحل، قالت **إيمان** أنها هي التي ستفعل ذلك... فقد كانت في السنتين الأخيرتين من حياة والدها، تساعده في إدارة المحل... وأنها تعرف مصادر توريد اللحوم المذبوحة، وهي قادرة على تعليق المذبوحات، وتقطيعها،

وعلى استخدام كل مفردات عدة الجزارة - من سواطير وسكاكين من كل الأحجام. وأن "العدة" موجودة عندهم بالفعل. أقرضنا **إيمان** ألفي جنيه مصري، استخدمتها كعربون لاستيراد أول دفعة من العجول المذبوحة. وحضرت إعادة افتتاح محل جزارة **إيمان**، ورغم أنني كنت نباتياً منذ ١٣ أغسطس ١٩٩٤، إلا أنني تشجيعاً **لإيمان** اشتريت عشرة كيلو جرامات من اللحوم (وزعتها فيما بعد بين سالفي الذكر). وحضرت السفيرة **فيكتوريا أوين** كذلك حفل الافتتاح. وأقبل أبناء الحي على محل **إيمان** في البداية تشجيعاً لها وإعجاباً بها، وبعد ذلك لأنها كانت تقدم خدمة ممتازة، من حيث الأسعار والنوعية. ولأن أستراليا تنتج وتصدر اللحوم، فقد حرصت السفيرة **فيكتوريا أوين** أن تضع "جزارة **إيمان**" على جدول زيارات كل الوزراء الإستراليين الذين يفدون أو يمرون بالقاهرة. وقد تلاها وحاكاها في ذلك سفراء آخرون. وكان أشهر زائر للمنطقة ولجزارة **إيمان** الأمير **شارلز**، ولي عهد بريطانيا العظمى. وأحب الجميع جزارة **إيمان**، إلا سلطات الأمن المصرية، التي كانت زيارات المشاهير الأجانب لها كابوساً أمنياً !.

مشروع التعليم والتسامح

من الأنشطة التطبيقية لمركز ابن خلدون، والتي بدأت عام ١٩٩٦، كانت تلك الخاصة بمتابعة تنفيذ مؤتمر حقوق الأقليات، الذي عقد في قبرص قبل عامين وكان المركز قد أضاف بالفعل إلى أنشطته الدورية مشروع إصدار تقرير سنوي عن أحوال الملل والنحل والأعراق في الوطن العربي، بحيث يكون جاهزاً للطباعة والنشر والتوزيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب في يناير ١٩٩٧، وكانت خطة العمل لإعداد هذا التقرير لا تختلف كثيراً عن التقرير الدوري الأقدم عن "المجتمع المدني والتحول الديموقراطي في الوطن العربي". وأوكلت مهمة إعداد وتقرير الملل والنحل والأعراق للباحث **سليمان شفيق**، ويساعده الباحث **سامح فوزي**. وكانت الصيغة المتبعة، هي الاتفاق على المفهوم العام، ثم تقسيم العمل جغرافياً، أي أقليات المشرق (العراق، والبحرين، ولبنان، وفلسطين، وسوريا)، أقليات وادي النيل (مصر والسودان، والقرن الإفريقي)، وأخيراً أقليات المغرب (الجزائر والمغرب وموريتانيا).

كذلك حرص المركز علي أن يعقد مؤتمراً سنوياً لمتابعة ومراجعة أحوال الأقليات في الوطن العربي. وكان جزءاً من هذا الحرص موضوعياً، وهو تكريس مركز ابن خلدون كأهم مرجعية عربية في دراسة الأقليات، أسوة بريادته كمرجعية أولى في دراسة الديموقراطية والمجتمع المدني، والحركات الإسلامية. وكان جزءاً من هذا الحرص هو تحدي كل القوى التي عارضت اهتمام المركز بالموضوع

وهاجمت بشدة، محاولة إعادة التستر على المشكلات الإثنية والطائفية، بدعوى الحفاظ على الوحدة الوطنية أو الوحدة القومية. بينما كانت قناعتنا هي أن الذي يحفظ، بل ويقوي هذه الوحدة، هو دراسة الواقع، وفحص مشكلاته، والحوار بشأنها بلا حياء، والسعي لإيجاد الحلول لها بلا انتظاره وبعد المؤتمر الثاني (١٩٩٥)، والذي عقد في المركز، واقتصر المدعوين له على خمسين شخصاً، أن تكون المؤتمرات التالية أكثر تركيزاً وتعميقاً، فبدلاً من متابعة مسحية لكل الأقليات، يتم التعرض لثلاث أقليات في كل سنة، وثلاث أخرى في السنة التالية، وهكذا، إلى أن يعقد مؤتمر كبير، أسوة بمؤتمر قبرص كل عشر سنوات (أي في ٢٠٠٤). وكان أقباط مصر مع ذلك هم الاستثناء، حيث استقر الرأي على أن تكون همومهم، موضوعاً سنوياً في كل مؤتمر مع أقليتين أخرتين، بالتداول كل سنة.

وفي مؤتمر الملل والنحل الثالث الذي عقد في مايو ١٩٩٦، كانت الأقليتين اللتين شاركتا الأقباط هما عرب إسرائيل، وجنوب السودان. وقد ألح المشاركون الأقباط في المؤتمر على قضية التعليم والإعلام المصري، الذي ينطوي كل منهما على رسائل صريحة أو ضمنية، تحبذ احتقار الآخر غير المسلم، وتطعن في معتقداته، أو حتى وطنيته، وإن ذلك قد أدى في العقود الأخيرة إلى زيادة الجفوة والتباعد بين المسلمين والأقباط من الأجيال الجديدة... دون سن الخمسين. واقترح المشاركون، وصدرت توصية تطلب من المركز أن يتصدى لهذه المشكلة.

وتكوّن فريق بحثي صغير لهذا الغرض وقد بدأ الفريق عمله بمسح محدود على عينات من القاهرة والزقازيق والمنيا، حيث سُئِلت العينة في كل من المدن الثلاث سؤالين مقترحين فقط. الأول، ماذا تعرف عن الأقباط؟ والثاني، ماذا تحب أن تعرف عن الأقباط؟ وكانت إجابات السؤال الأول مرعبة. حيث عكست كمية هائلة من الجهل والخزعبلات عن الأقباط كبشر، وعن معتقداتهم. ولكن الإجابات على السؤال الثاني كانت مشجعة، حيث عكست رغبة حقيقية وحب استطلاع واسع النطاق لمعرفة جوانب مختلفة عن الأقباط.

وفي نفس الوقت، قام أستاذان من المركز القومي للبحوث التربوية بتحليل مضمون الكتب المدرسية المصرية... من المرحلة الابتدائية إلى الثانوية في مواد اللغة العربية، والتربية الدينية، والتاريخ، والمواد الاجتماعية. وبعد ستة شهور أعدّ الباحثان تقريراً، ثم عرضه على باحثي المركز، ثم على رواق ابن خلدون. وقد سلمت منه نسخه للدكتور **حسين كامل بهاء الدين**، وزير التربية والتعليم في مكتبه، وتحدثنا لمدة ساعة عن مشكلات التربية، ومشكلاته في الوزارة، ومع

رئيس مجلس الشعب، الذي شغل نفس منصبه لعدة سنوات، وما زال يتصرف كما لو كان وزير التربية، رغم منصبة المرموق على قمة السلطة التشريعية. ثم اعتذار الوزير لاضطراره للذهاب إلى الباجور لتأدية واجب العزاء في أحد قريبات، **كمال الشاذلي**، أحد أقطاب الحزب الوطني الحاكم. ولكن الوزير وعد أن يقرأ التقرير ويناقشه معي خلال أسبوعين... وبالفعل قابلت الوزير مرة أخرى بعد أسبوعين، ووجدت أنه قرأ التقرير بدقة وانزعج مما جاء فيه عن المنهج... وخاصة تلك التي تم إعداد كتبها في عهده، وأطلعني على المنشورات والتوجيهات التي صدرت منه وبتوقيعه إلى لجان تأليف كتب المواد التي تعرضنا لفحصها وتحليل مضمونها... وقال الرجل ما الذي يمكن لوزير أن يفعله أكثر من ذلك... إلا أن يقوم بتأليف الكتب بنفسه، حتى يتحاشى ما بها من تحيز وتعصب؟ أشفقت على الرجل... واقترحت أن يعطي نسخاً من تقريرنا للجان المسؤولة عن الكتب المدرسية في المواد التي تخص كل منهم، للتعليق أو لمراجعة هذه الكتب لتنقيتها من كل ما يخص على التعصب أو تحقير "الآخر"، غير المسلم... رد الوزير وعلامات الألم تكسو وجهه "سأفعل ذلك... ولكن ليس لدى أمل في أن يقوم نفس أعضاء تلك اللجان بتغيير يذكر... فلماذا لا يقوم مركز ابن خلدون نفسه، بإعداد نماذج لمناهج بديلة؟" قلت له سنحاول، وأرجو أن نوفق... فهذه مهمة ضخمة تحتاج إلى موارد بشرية ومادية هائلة، ولا تتوفر لمركز بحثي خاص محدود الموارد، وله اهتمامات أخرى إلى جانب التعليم...". قال الوزير بلهجة اختلط فيها الرجاء بالتصميم "إنها معركة مصر، ومعركة المستقبل، ومعركة التنوير، فلنحاول أن نحاربها معاً إنني أحتاج إلى خلفاء" شد الرجل على يدي مودعاً، وعينيه تعكسان نفس الرجاء والتصميم... أو هكذا خيل إلي... ولكني عقدت العزم أن ألبي الرجاء.

وأعددنا مقترحاً طموحاً لإعادة تصميم، وتنفيذ، وتجريب، مناهج بديلة في اللغة العربية، والتربية الاجتماعية، والمواد الاجتماعية لإثنى عشر صفاً دراسياً من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الثالث ثانوي. وكان ذلك يعني إعداد ستة وثلاثين كتاباً على الأقل. وحشدنا لهذه المهمة حوالي خمسين باحثاً، معظمهم من خارج المركز، والمشهود لهم بالكفاءة، ونصفهم من المسلمين ونصفهم من الأقباط. وكان كل كتاب يشترك في تأليفه خبير مسلم وآخر مسيحي، ويراجعه مجموعة من الخبراء، ومعهم مقررون من مركز ابن خلدون. وقام بتمويل المشروع المؤسسة البروتستانتية الألمانية (EZE) في مدينة بون. وكانت الباحثة **إيفيت فايز**، والباحث **سامح فوزي** هما ضباط الاتصال، وكان **د.أحمد صبحي منصور**، هو المنسق العام للمشروع. وكانت تتم اجتماعات

نصف شهرية لغرض البحث والتأليف. واستغرق المشروع سنتين، وعرضت نتائجه على مجلس الأمناء، وعلى مجموعات من المتخصصين. وعرضت النتائج المنقمة، في أمسية رمضانية، حضرها حشد كبير، يتقدمهم الوزير **حسين كامل بهاء الدين** وأركان وزارته، وأمناء وباحثوا مركز ابن خلدون. وكان ذلك في ليلة ٣٠ ديسمبر ١٩٩٨. بدأت بإفطار، وانتهت بسحور، وتخللتها خمسة ساعات عمل.

لارا
جد للمرة الأولى

كانت نهاية ١٩٩٦ نهاية سعيدة بالنسبة للأسرة. ففي ديسمبر أنجبت إبنتي **راندا**، طفلتها الأولى، التي اختارت لها أسماً موسيقياً هو لارا وكانت هي وأمها في صحة جيدة، وتمت الولادة في مستشفى شعلان بالمهندسين وتجمعت صديقات **راندا** (**نادية، وماجي**) حولها. وزوجها **نبيل**، و**باربارا**، وأنا، وحماتها **أنجيل**... وامتلأت غرفتها في المستشفى بالزهور... وتركت الأم وطفلتها المستشفى بعد يومين... وقررت أن تقيم معنا، في فيلا عرابي، لبعض الوقت إلى أن تتعود على عادات وطقوس الأمومة... وفي خلال أيام كانت استعدادات الأسرة للاحتفال بأعياد الميلاد (الكريسماس)... ووصول حماتي **إيلين** من أمريكا لقضاء المناسبة معنا.

وبما أضاف إلى دراميـة الحدث السريع أنني كنت أحضر مؤتمراً في جنيف، حول إدارة التحولات الاجتماعية، نظمه المعهد الدولي للبحوث الاجتماعية، التابع للأمم المتحدة وقد ألقيت ورقتي في اليوم الأول... وكان المفروض أن أشارك في مائدة مستديرة في الجلسة الختامية للمؤتمر في اليوم الرابع... ولكني غادرت في اليوم الثالث... وأصر مدير المعهد، وهو أستاذ هندي ذائع الصيت أن ألقي ملاحظاتي قبل موعدها (اليوم الرابع)... وأعلن هو السبب في هذا التعبير الطارئ في البرنامج... أنني على وشك أن أصبح جداً... وحرصت على أن أكون إلى جانب إبنتي وقت وقوع الحدث... وضجت القاعة بالتصفيق... وبالفعل وصلت من جنيف إلى القاهرة قبل وصول **لارا** إلى الدنيا بثلاث ساعات.

وقد أصبح ديسمبر شهراً حافلاً بالنسبة لأسرتي الجديدة الممتدة ففيه عيد ميلادي، وعيد ميلاد صهري **نبيل**، والآن عيد ميلاد **لارا**، والكريسماس وكذلك فهو شهر احتفالات وبهجة مستمرة.

١٩٩٧

كان عام ١٩٩٧ امتداداً لما قبله فيما يتعلق بأنشطة مركز ابن خلدون. فقد استقرت برامجه الرئيسية: المجتمع المدني والتحول الديموقراطي، الحركات الإسلامية، الملل والنحل، تمكين المرأة، السكان والتنمية... وكان لكل منها منسق، وعدد من الباحثين، وينطوي على مشروع واحد أو أكثر. وكان لكل برنامج نشاط دوري، مثل مؤتمر، أو ندوة، أو ورشة عمل، أو كتاب، أو تقرير دوري.

كذلك استقرت الممارسات والتقاليد الخلدونية: المبادرة، والمرأة والشفافية، والديموقراطية في الإدارة، وإعطاء الفرص بغير حدود للشباب والمرأة، والأقباط. أي أن المركز كان يحاول أن يعيش ويترجم كل ما يدعو إليه.

وكان مجلس الأمناء الثالث، يحين تجديده في عام ١٩٩٧، حيث كان الأول ١٩٨٨، مكوناً من ٢٥ عضواً. وكانت المشكلة في حجم مجلس الأمناء هي أنه باستثناء اثنين من أعضاء المجلس الأول ـ هما **د.أسامه الخولي** و**د.حامد عمار** اللذان لم يرغبا في تجديد عضويتهما، فإن جميع الآخرين رغبوا في الاستمرار في عضوية المجلس التالية... وقد لاحظت إحدى الجهات المانحة (فورد) أن عدد النساء في مجلس الأمناء لا يتعدى أربع (**عزيزة حسين، مني ذوالفقار، منى مكرم عبيد، وباربارا إبراهيم**) من ٢٥. وأن اعتبارات المساواة وتوقعات المؤسسة هي أن يكون مركز ابن خلدون قدوة ونموذجاً في تحقيق هذه المساواة، إن لم يكن بالنصف تماماً، فعلى الأقل بالاقتراب من النصف. وكانت السيدة **سوزان** برادفورد التي أبدت هذه الملاحظة بشكل ودي، هي نفسها رئيسة مؤسسة فورد، أكبر هيئة أهلية مانحة في العالم. وقد اعتبرت اهتمامنا بمركز ابن خلدون مصدر فخر ورضا. فضلاً عن أن فورد قد استمرت في دعم المركز منذ سنواته، الأولى، ومع منتصف التسعينات كانت أكبر وأهم مانح لأهم وأكبر برامج المركز، وهو المجتمع المدني والتحول الديموقراطي ولا يقل عن كل هذه الاعتبارات أن **سوزان** كانت جميلة، وكانت صديقة لزوجتي... لذلك استجبت لطلبها... وعرضت الاقتراح على باحثي المركز، فتحمسوا له، ورشحوا سيدة أعمال وهي **سميرة فريد**، والصحفية **أمينة شفيق**، والممثلة **صفية العمري**. وهكذا قفز حجم مجلس الأمناء إلى ٢٨ عضواً، منهم سبعة نساء.

المجتمع المدني في البنك الدولي

خلال العام السابق (١٩٩٦) دعاني البنك الدولي للمشاركة في ندوتين، نظمتها إدارتين مختلفتين في البنك فحينما جاء للبنك رئيس جديد وهو **جيمس ورلفوسون**... استخدم في أول خطاب ألقاه على العاملين في البنك تعبير المجتمع المدني عدة مرات. وعبر عن عزمه أن يعمل البنك خلال رئاسته بالتعاون مع تنظيمات المجتمع المدني، حيث توجد، والمساعدة في إنشائها أن لم تكن موجودة.

وأسرع عدد من نواب رئيس البنك إلى الإنترنت، وإلى دوائر المعارف ليكتشفوا ويتعلموا عن هذا المخلوق الجديد بالنسبة لهم، وهو المجتمع المدني،... ويشاء القدر أنه إلى ذلك الوقت لم تكن هناك أي دورية في العالم باللغة الإنجليزية تحمل اسم المجتمع المدني (Civil Society) إلا تلك التي تصدر عن مركز ابن خلدون. فاتصل ثلاثة من نواب الرئيس لدعوتي للحديث عن دور المجتمع المدني في التنمية لموظفي إداراتهم... وقد استجبت لإثنين منهم، كان أحدهم هو صديق عمري، **إسماعيل سراج الدين**، والذي كنت أشغل بالفعل معه وفي إدارته عضوية مجلس الاستشاريين لتنمية البيئة الدائمة... وبحكم الصداقة والألفة والإعجاب، لا أستطيع عامة أن أرد **لإسماعيل** طلباً. وكعادته أيضاً حينما يبادر إلى شيء فإنه ينفذه ويخرجه كأحسن ما يكون.

لذلك حشد **إسماعيل** لهذا المؤتمر أحسن وأشهر المشتغلين أو المشغولين بالموضوع مباشرة أو بموضوعات قريبة منه ـ مثل المنظمات غير الحكومية، ورأس المال الاجتماعي، ورأس المال البشري، والحكم الرشيد، والمحاسبة والشفافية، والثقة، والمشاركة. والتقيت من خلال الندوات والمؤتمرات التي نظمها ودعاني إليها **إسماعيل سراج الدين** في البنك الدولي أشهر علماء العالم في الاقتصاد والاجتماع والعلوم السياسية، بما في ذلك عدد كبير منهم ممن حصلوا على جوائز نوبل في الاقتصاد والعلوم والسلام، من أمثال **امارتاي سين ودورت ناش**، و**فرانسيس فوكوياما**، و**سيمور لبست**.

انتهى استدراجي هذه المرة إلى الالتزام أن أعمل استشارياً للبنك خلال صيف ١٩٩٧، ثم مرة أخرى خلال صيف ١٩٩٩، حول شؤون المجتمع المدني. أعددت خطة عمل لبنك المهمة، تبدأ بعدة مسوح لعينات من العاملين في البنك، لمعرفة ماذا كانوا قد سمعوا عن مفهوم المجتمع المدني من قبل، وإن لم يكونوا قد سمعوا، فهل لديهم أي اهتمام على الأقل للتعرف عليه. ومن أولئك الذين أبدوا رغبة في مزيد من المعرفة، أرسلنا لهم بعض التعريفات والأدبيات...

ثم بعد شهر استقصيناهم لمعرفة ما إذا كانوا قد أطلقوا على تلك الأدبيات أو غيرها مما له علاقة بالموضع... وإذا كان عما إذا كانوا يرون للمجتمع المدني دور في التنمية، وعما إذا كان هناك مجالات للتعاون بين البنك ومؤسسات المجتمع المدني، وكيف يكون ذلك؟

وإلى جانب سلسلة المسرح المتتالية، قمت بمقالات متعمقة مع نواب رئيس البنك الدولي، ومديري الإدارات والأقسام في البنك، لاستقصاء الآراء والاتجاهات والقيم التي يحملونها حول الموضوع. ولم يكن قد سبق أن قام باحث من خارج البنك بدراسة العاملين في البنك بهذه الصورة. فالشائع هو العكس تماماً، أي أن يقوم البنك بدراسة الآخرين: شعوباً ودولاً وثقافات. وتقبل هذه الأخيرة أن يدرسها البنك لأنها هي التي تحتاجه... من أجل المعونة المالية أو الفنية. ولذلك بدا الأمر غريباً للعاملين في البنك. وكانت هناك مقاومة في البداية... ولكن المثابرة، أدت إلى نتائج طيبة. وحين نشرت النتائج في كتاب بعد ذلك بشهور كتب إلى عدد ممن استهجنوا أو استخفوا بالدراسة في البداية، يعبرون عن أسفهم من ناحية، وإعجابهم من ناحية أخرى. كانت الدراسة كما نشرها البنك بعنوان Exploring Civil Society in the World Bank.

بعد ذلك بعامين قمت بدراسة تتبعية (Follow up Study) عن نفس الموضوع بين العاملين في البنك... كانت الاستجابة هذه المرة أحسن كثيراً (٧٠% مقابل ٥٠% في المرة السابقة). كما كانت المعارف والمفاهيم والآراء والاتجاهات قد تطورت بشكل محسوس خلال العامين... وظهرت نتائج الدراسة الثانية في كتاب نشره البنك أيضاً بعنوان "ترعرع المجتمع المدني في البنك الدولي Nurturing Civil Society with World Bank.

خلال السنوات الخمس الأخيرة من التسعينات التي زاد تعاوني فيها مع البنك، توثقت علاقتي أيضاً بكل من **د.إبراهيم شحاتة**، النائب الدولي لرئيس البنك ومستشاره القانوني، وكل من **د.نعيم الشربيني** و**د.مجدي إسكندر** وهما من كبار الاقتصاديين العاملين في البنك وقد فضل **د.إبراهيم شحاته** أن ينشر كتبه العربية من خلال مركز ابن خلدون، وكان أهمها على الإطلاق الأجزاء الأربعة لكتاب "وصيتي لبلادي"، والذي ذاع صيته أكثر، وأعيد طبعه، بعد وفاة **د.إبراهيم شحاته** في صيف ٢٠٠١. كذلك بحكم إقامتي لفترات ممتدة في واشنطن تجددت وتعمقت علاقاتي بصديقي عمر آخرين هم **د.فوزي هيكل**، و**حسن طلعت**. وكنا نلتقي مرة أو مرتين أسبوعياً للغداء أو العشاء في مقهى زوربا (Zorba) بالقرب من ميدان دي بونت.

رحلة إلى الهند وبنجلاديش واليابان

من خلال عضويتي للمجلس الاستشاري للتنمية المتواصلة بالبنك الدولي والمؤتمرات الدورية التي كان ينظمها البنك كان "أفقر الفقراء" هو الموضوع الذي سيطر على أجندة العاملين في مجال التنمية حتى أن رئيس البنك، حدد هدف البنك ومعيار نجاحه أو فشله خلال السنوات العشر ١٩٩٥ـ ٢٠٠٥، بمدى القضاء على فقر هذه الفئة، والتي قدر حجمها في ذلك الوقت بمليار نسمة حول العالم، ينامون جوعي كل ليلة. وكانت بنجلاديش والهند من بلدان العالم الثالث التي شهدت تجارب مبدعة في محاربة الفقر. وكان بعض القائمون على هذه التجارب من الذين نشأت بيني وبينهم صداقات في السنوات الأخيرة، وأهمهم **د.محمد يونس**، أستاذ الاقتصاد الزراعي في جامعة دكا، والذي بدأ تجربة جرامين أو بنك الشعب، الذي بدأ ب ٢٥ دولاراً، وخلال عشر سنوات، كان حجم أعماله خمسة مليار دولار. وسمع الرجل بتجربتي ابن خلدون في تأهيل التائبين الإسلاميين وتنمية المرأة من خلال القروض الصغيرة. فألح علي أن أزور بنجلاديش للإطلاع على تجربة جرامين مباشرة على الطبيعة... وقد انتهزت فرصة دعوة إلى اليابان لحضور مؤتمر عن الأقليات في العالم العربي وبناء الدولة الحديثة، للتوقف في الهند وبنجلاديش للإطلاع على تجارب إقراض أفقر الفقراء.

سيوا الهند

في الهند، توقفت في نيودلهي، وميسور، حيث تقوم جمعية نسائية أسمها Self Employment Women Association، واختصارها (SEWA) رابطة النساء المستخدمات استخداماً ذاتياً. وككل شيء ناجح في شبه القارة الهندية، تجري محاكاته بسرعة، حتى يصل عدد أعضائه بالملايين. وقد بدأت تجربة "سيوا" على نفس مبادئ بنك جرامين. وهي الإقراض بدون طلب ضمانات فردية مسبقة، ولكن بالتزام جماعي يضمن فيه خمسة مشاركات بعضهن البعض... وهي ممارسة معروفة في القرى والأحياء الشعبية والمدارس المصرية ـ حيث يتفق أي عدد من المعارف والأصدقاء على عمل جمعية يسهم فيها كل منهم بمبلغ شهري متساوي، ويقبضها في الشهر الأول أكثرهم احتياجاً، لغرض معين ـ مثل شراء ثلاجة أو بوتاجاز، أو تجهيز أبن أو أبنة للزواج. ويثرة هذا النوع من الإقراض أنه يعتمد على "الثقة" (Trust)، ولا يحتاج إلى أوراق أو إجراءات. بيروقراطية كما يحدث في البنوك التجارية. وميزته الثانية في السياق

المصري هو أن يحدث بلا فوائد. أما في السياق الهندي والبنجالي فهو عملية مستمرة، وتنطوي على فوائد، لا تقل كثيراً عن فوائد البنوك. وفهمت أن فكرة تقاضي فوائد (١٠-١٥%) هي لضمان الاستمرارية والجدية، والادخار الإجباري. وقد وصل عدد أعضاء SEWA، حين زرتها عام ١٩٩٧ إلى ستة ملايين عضوة. وبمرور الوقت وإحساس هؤلاء النساء الفقيرات بالقدرة (Empowerment) ترجمة هذه القدرة الاقتصادية، إلى قدرة اجتماعية وسياسية، وكن عنصراً فاعلاً في الانتخابات المحلية، في قراهن ومدنهن ونجحن في استصدار تشريع فيدرالي لكل الهند، وينص على ألا تقل نسبة النساء في المجالس المحلية المنتجة عن أربعين في المئة.

جرامين منحة بلد فقير إلى العالم

كانت محطتي الثانية هي بنجلاديش، التي وصلتها في منتصف رمضان لذلك كانت التجربة مزدوجة الفائدة لي كعالم اجتماع: رؤية مجتمع مسلم جديد في لحظة تجلٍ ديني. وقد استغرب العاملون في فندق النجمة، الذي نزلت فيه وسط مدينة دكا، أن أكون صائماً، وأنا على سفر... ولكنهم احتفوا بي احتفاء شديداً، طيلة الأسبوع الذي قضيته هناك. لم تكن موائد الإفطار في مطعم الفندق غنية بالطعام أو الشراب الذي تعودنا عليه في الشرق العربي عموماً وفي مصر خصوصاً... ولاحظت نفس التواضع في فنادق الخمسة نجوم (هيلتون دكا)... وحيثما دعيت إلى بعض المنازل. بتعبير آخر كان رمضان البنجالي أقرب إلى رمضان كما ينبغي أن يكون اقتصادياً في المأكل والمشرب. ومع ذلك كانت مدينة دكا مليئة بالحياة ليلاً، بين الإفطار والسحور. كما كانت مساجدها، الشديدة الزخرفة، عامرة بالمصليين.

زرت مقر بنك جرامين المتواضع من حيث البناء... وكذلك العديد من فروعه في القرى، والتي كانت تتكون من غرفة صغيرة لمدير الفرع، وغرفة أكبر للاجتماعات، تتسع لحوالي ثلاثين شخصاً، وغرفة ثالثة في نفس الطابق أو في الطابق الذي يعلوه لإقامة مدير الفرع وزوجته إن كان متزوجاً. كان كل شيء بسيط ومتواضع. كان مدير الفرع يستخدم دراجة عادية أو بخارية (موتوسيكل) للانتقال في القرية وحولها. وكانت الفروع تضم ما بين خمس عشر وعشرين مجموعة، بكل منها خمسة أعضاء. أي أن الفرع الذي يديره شخص واحد، يضم في العادة ما بين ٧٥ ومئة عضواً. ويحتفظ الفرع بملف لكل عضو، يحتوي على سجل كامل بما يخص العضو من معاملات ـ بداية بالطلب المقدم منه للانضمام إلى البنك، إلى سجل أداء الاشتراكات الأسبوعية، التي تسبق

الحصول على أول قرض، إلى الأقساط الأسبوعية التي يبدأ منذ الأسبوع التالي لاستلام القرض... رأيت الاجتماعات الأسبوعية لكل مجموعة، والتي تستغرق ما بين ساعتين وثلاث ساعات، يختار أعضاء المجموعة اليوم والساعة لها. ويبدأ الاجتماع عادة بترديد أغنية أو نشيد من اختيار المجموعة، وتصبح بمثابة النشيد القومي لهذه المجموعة، وتستغرق عدة دقائق، يبدأ الاجتماع بعدها، بكل عضو يسدد علناً، عداً ونقداً، القسط المستحق عليه أو عليها. وفي الحالات النادرة التي لا يتم فيها الوفاء بالقسط المستحق، يشرح العضو سبب التخلف أو التعثر، وتناقشه المجموعة فيه، حيث أن هناك مسؤولية قضائية بين أعضاء كل مجموعة ثم يفتح الاجتماع لمناقشة عامة، حول القروض الجديدة ودراسات الجدوى السابقة لها، لإبداء الرأي. وكان أحد المشروعات المقترحة من أحد العضوات شراء تليفون محمول، لتأجير خدماته للزبائن في السوق الذي تبيع فيه منتجاتها المنزلية!

إلى جانب بنك جرامين بفروعه التي تجاوزت الثلاثين ألفاً، كانت هناك مؤسسة أو صندوق جرامين (Grameen Fund) الذي يقوم بالدراسات والترويج للمفهوم، وتشجيع التجربة في بلدان أخرى. ويمتلأ مقر الصندوق بالخبراء والمتدربين والزائرين من كل أنحاء العالم. وبعكس مقر البنك، فإن مقر الصندوق هو مبنى حديث، مزود بكل التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة. وفي هذا المقر التقيت **د.محمد يونس** الذي كان متغيباً في بداية زياراتي وتفاوضنا على قرض لصندوق ابن خلدون للمشروعات الصغيرة، بمبلغ خمسون ألف دولار. وكان ضمن شروط القرض هو قيام صندوق جرامين بتدريب الدفعة الأولى من أمناء الإقراض الذين سيستعين بهم صندوق ابن خلدون في البداية. وهو ما حدث، فقد توجه أحد المصريين المتعاقدين من البنك الدولي وهو **د.محسن يوسف**، الذي رشحه **د.إسماعيل سراج الدين** إلى داكا، حيث قضى ثلاثة أسابيع، ثم تبعه ثلاثة من باحثي ابن خلدون (منهم أحد أبناء قريتي وهو **حامد الفرجاني**)، حيث قضوا مدة تدريب مماثلة. ومع نهاية ربيع ١٩٩٧، كان صندوق ابن خلدون معداً للانطلاق.

أوساكا اليابانية

كانت الوجهة الأخيرة لرحلتي الأسيوية هي مدينة أوساكا، التي تبعد عن طوكيو ساعة بالطائرة، حيث شاركت في مؤتمر علمي مع حوالي خمسين آخرين من اليابان وخارجها، حول الإسلام، والأقليات، وبناء الدولة الحديثة. كانت هذه هي رحلتي الخاصة إلى اليابان، وكان هذا هو

المؤتمر المئة حول نفس الموضوع. وينطبق عليه قانون "الغلة المتناقصة" (Low of Diminishing Return). وفي تلك الرحلة أعدت تذوق المرأة اليابانية، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ سنوات سياتل قبل ثلاثين عاماً، وكذلك المرأة البورمية (نسبة إلى بورما). وكان يمكن تذوق المزيد، لولا ضيق الوقت، وتناقص القدرة!.

مبادرة كوبنهاجن وجمعية القاهرة للسلام

كانت رحلتي الآسيوية في أواخر يناير وأوائل فبراير ١٩٩٧، واستغرقت ثلاثة أسابيع، هي عادة الفترة الفاصلة بين الفصلين الدراسيين. ولكن بمجرد عودتي، وجدت معركة في الإعلام المصري والعربي، وأقحم أسمي فيها زوراً وبهتاناً.

ففي طريق العودة، توقفت الطائرة - كالعادة في رحلات الشرق الأقصى - بمطار دبي، لعدة ساعات وبينما أتجول في أحد محلات بيع الصحف بالمطار، وقع نظري على غلاف مجلة روز اليوسف (المصرية)، حيث صورتي مع صور الكاتب اليساري المعروف **لطفي الخولي**، و**عمرو موسى**، وزير الخارجية المصري في ذلك الوقت. وتحت هذا الصف من الصور، ثلاث لإسرائيليين، وهم **شومون شامير** (أستاذ التاريخ المصري بجامعة تل أبيب) تلقفت المجلة، وبدأت قراءة قصة الغلاف "الخطيرة"!.

والقضية باختصار، هي عن مبادرة أوربية أهلية لحوار عربي إسرائيلي من أجل السلام في الشرق الأوسط. وقد تبناها صحفي دنماركي، اسمه **بن داك** (Ben Dak) بمنحة من وزارة الخارجية في بلاده. وفي جانب منها كانت هذه المبادرة جزءاً من التنافس الاسكندنافي (الأخوي)، فحيث أن النرويج قد نجحت في مبادرة سلامية بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هي اتفاقية أوسلو، جنت من ورائها صيتاً ودعاية كبيرة، فقامت كل من الدانمرك والسويد بمبادرات في هذا الصدد أيضاً ولكن الأساس في المبادرة كان إنقاذ العملية السلمية برمتها، حيث بدأت تتعثر على المستوى الرسمي، بعد اغتيال **إيزاك رابين**، ووصول **بنيامين نتانياهو** إلى السلطة، وزيادة التشدد الإسرائيلي من ناحية، وزيادة العمليات الاستشهادية (الانتحارية) من ناحية أخرى. فكانت المبادرة الدانمركية، التي عرفت باسم مبادرة كوبنهاجن، هي محاولة لإبقاء الأمل وانطوت على خلق قناة يستطيع من خلالها دعاة السلام على الجانبين التفاعل، وصياغة خطط وبدائل قابلة للتنفيذ حينما يعود حزب العمل واليسار الإسرائيلي إلى الحكم.

وكانت المجموعة المصرية التي جرى الاتصال بها تشمل **محمد سيد أحمد، ولطفي الخولي**، والسفير المتقاعد **صلاح بسيوني**، و**د.عبدالمنعم سعيد**... لم يتصل بي الدانمركيون، ولم يتصل بي أي من المصريين الأربعة المذكورين، للمشاركة في مبادرة كوبنهاجن. ولذلك استغربت أن تظهر صورتي واسمي على غلاف روز اليوسف، وفي التحقيق المفصل داخل المجلة. وقد تبينت حينما وصلت إلى القاهرة، أن محرري روز اليوسف اتصلوا بمنزلي وبمكتبي للاستفسار عن دوري في المبادرة، فقيل لهم أنني في "سفر طويل" بالخارج... فاستنتجوا على الفور أنني سبقت المجموعة المصرية ـ إما إلى إسرائيل أو إلى كوبنهاجن ـ للإعداد لاجتماع كوبنهاجن.

وانتهزت الفرصة، لا فقط لنفي دوري في مبادرة كوبنهاجن، ولكن أيضاً للإصرار على اعتذار روز اليوسف كتابة في عددها التالي. فقد كانت بيني وبين هذه المجلة العريقة ثأر طويل. فقد كان موقفها من مؤتمر الأقليات ومن مشروعات المركز الأخرى عدائياً. ولم يفعل المركز أي شيء إلا وتعرض لهجوم روز اليوسف. وبالفعل، ولإحساسها بضعف مركزها، وخوفها من التقاضي، اعتذرت المجلة في مكان بارز من أحد أعدادها في شهر مارس! بينما لو كانت المجلة سألتني رأيي في المبادرة لأبديت تأييدي لها على الفور.

وبالفعل وحينما تصاعد الهجوم على جماعة كوبنهاجن من الصحافة الراديكالية المضادة للسلام، بدأت الجماعة تنشق على نفسها، فتركها الكاتب السياسي اليساري الأكثر احتراماً، وهو **محمد سيد أحمد**، مؤلف أول كتاب عربي يدعو إلى سلام عربي ـ إسرائيلي، بعنوان "عندما تسكت المدافع". وكان انشقاقه لسببين، أولهما قفز **لطفي الخولي**، الأكثر فهلوة، إلى موقع الصدارة، رغم أن اتصال الدانمركيين الأول كان **لمحمد سيد أحمد**، المعروف أكثر في دوائر اليسار العالمي... و**محمد سيد أحمد** هو الذي أسر إليّ بمقاومة **لطفي الخولي** المستميتة في مفاتحتي للانضمام إلى المجموعة المصرية الذاهبة إلى كوبنهاجن، توجساً من مزاحمتي له على موقع المجموعة المصرية، بسبب تاريخي الأطول نسبياً في الدعوة للسلام! وقد استتفهت كلا من **محمد سيد أحمد ولطفي الخولي** ـ الأول لتصرفه الصبياني في الانشقاق، والثاني لانتهازيته وتسلطه. وتذكرت سلوكيات هؤلاء اليساريين في موسكو أثناء الحوار العربي السوفيتي، عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠. ويبدو لي أن هؤلاء المناضلين القدامى يفعلون ما يفعله الزعماء والرؤساء في العالم الثالث الذين يتشبثون بموقع السلطة، كان **محمد ولطفي** في السبعين من العمر، وكانا رفيقا نضال في الحركة الماركسية المصرية منذ الأربعينات. وكان **محمد** هو ابن الباشا

الأرستقراطي، الذي انحاز للطبقات الكادحة. وكان **لطفي** ابن البرجوازية المصرية الصغيرة الطموح، الذي تصور أن تبني قضايا الطبقات الكادحة سيوفر له الزعامة.

اتصلت بي الجماعة بعد عودتها من كوبنهاجن، وطلبت الانضمام إليها... واقترحت أن نتجاوز اسم جماعة كوبنهاجن، وأن نؤسس حركة مصرية للسلام. وهو ما حدث بالفعل. فقد تكونت "جمعية القاهرة للسلام"، وسجلت في وزارة الشؤون الاجتماعية في زمن قياسي، وهو ما أوحى للكثيرين بأن أجهزة الدولة تبارك الفكرة، أو بعض هذه الأجهزة ـ مثل الخارجية والمخابرات. وترأسها في البداية الكاتب اليساري المخضرم **لطفي الخولي**، وحينما وافته المنية بعد ذلك بسنتين، تولى الرئاسة السفير **صلاح بسيوني**. وفي كلا الحالتين كان العقل المدبر والمفكر فيها هو **د.عبد المنعم سعيد**، مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية وكان هذا الثلاثي (**الخولي . بسيوني . سعيد**) قريب جداً، ويحرص دائماً على التنسيق مع الخارجية، والمخابرات. لذلك كان هذا الثلاثي يتأس، حينما يشتد الهجوم على الحركة أو على أشخاصهم بالتحديد في الصحف الحكومية أو تلك المحسوبة على أحد مراكز القوى. من ذلك أن صحيفة بذئية مثل "الأسبوع" استهدفت **عبد المنعم سعيد** في حملة متصلة، لا فقط فيما يتعلق بعضويته في جماعة كوبنهاجن أو جمعية القاهرة للسلام، ولكن أيضاً فيما كل ما يقوم به من مبادرات عامة من خلال مركز الأهرام للدراسات. وفي هذا الاستهداف، كانت الصحيفة البذئية تحاول الوقيعة بينه وبين زملائه في المركز، أو الوقيعة بين المركز وقيادة الأهرام (**إبراهيم نافع**، رئيس التحرير)، أو حتى الوقيعة بين الأهرام والرئاسة... وكثيراً ما اشتكى لي **عبد المنعم**، من ترك "الدولة" له وحيداً لتلك الأنياب المفترسة وكنت أتعاطف معه، حيث اعتبرته أفضل أبناء جيله من العاملين في الحقل العام... وكان الأقرب إليّ تفكيراً ومنهجاً وشخصية... وكنت أرى فيه شبابي... ولم أتوانى عن دعمه، في داخل مصر وخارجها. وكرمز لتقديري له وتقدير باحثوا ابن خلدون له، ضممناه إلى مجلس الأمناء... وذكيته لدى مؤسسة فورد وهيئات مانحة أخرى لدعمه ودعم مركز الأهرام، مادياً وأدبياً. وكانت واقعة الهجوم عليه في صحيفة "الأسبوع" للقيام باستقصاء للرأي العام المصري حول العديد من القضايا، بما فيها قضيتي السلام والديموقراطية واحدة من تلك المناسبات والتي استقطبت الصراع فيها بين أجنحة المؤسسة الحاكمة، حيث كان من الواضح أن جناح وزير الإعلام **صفوت الشريف** ومباحث أمن الدولة، يدعم "الأسبوع" ورئيس تحريرها **مصطفى بكري**، وقد قام رئيس تحرير الأهرام **إبراهيم نافع**، بدوره للدفاع عن مركز الدراسات،

ومديره **عبد المنعم سعيد**، وقد فهمت خلال تلك المعركة أن كلا الجناحين أخذ ضوءاً "برتقالياً" من الرئاسة، للهجوم والهجوم المضاد... ويبدو أن تلك كانت ممارسة معتادة، في التنفيس، وتوازنات القوى، واكتشاف قدرات كل منها على الحشد والتعبئة والإثارة، ما دامت الخيوط تتجمع في النهاية في الرئاسة !.

جولة محاضرات أمريكية

كانت الجامعة الأمريكية، قاعدتي الأكاديمية، وكنت أستمتع فيها بالتدريس، وتنشئة أجيال متتالية من أبناء النخبة والطبقة العليا المصرية... ورغم إحساسي أو توهمي أنني نفسي مازلت شباباً، إلا أن الحقائق المادية الحية كانت تقول غير ذلك، فقد تخرجت ابنتي من الجامعة في العام السابق، والتحق ابني **أمير** بها في العام اللاحق... وكثيراً ما كان **أمير** يستخدم مكتبي في الجامعة لحفظ معطفه الأبيض وأدوات دراسته الهندسية، حيث كان يدرس في قسم الهندسة المدنية... كذلك التحقت الإبنة الكبرى **ليلى مرعي**، لمساعدتي الوفية **نعمت جنينة** بالجامعة، في نفس دفعة **أمير**... وتذكرت **نعمت** وهي في نفس العمر كتلميذة "مشاغبة" في ربيع ١٩٧٦... وها هي بنتها... وقد بدأ نفس المشهد يتكرر بوتيرة متزايدة...

صفاء حسين بعد أربعين عاماً

وكانت علاقتي بإدارة الجامعة وبزملائي الأساتذة جيدة، ولكنها أقل دفئاً، مما كانت مع طلابي وطالباتي... وكثيراً ما لمح رئيس الجامعة، والعميد، وزملائي، بأن الجامعة ليست، أو لم تعد، "حبي الأول"، أو اهتمامي المهني الرئيسي... وأظن أنهم كانوا محقين في ذلك إلى حد ما. كنت أواظب على حضور اجتماعات مجلس القسم وعلى محاضراتي... ولكن نادراً ما كنت أحضر اجتماعات هيئة التدريس الجامعية (Faculty meeting) أو أتطوع لعضوية اللجان الجامعية الدائمة، أو لرئاسة القسم (التي كانت بالتناوب كل سنتين). ولكن في مقابل هذا العذوف الانتقالي، كنت غزيراً في إنتاجي العلمي المنشور في كتب ومقالات بالإنجليزية والعربية، وفي إلقاء المحاضرات العامة في داخل الجامعة وخارجها. كذلك كنت تقريباً المناظر المشترك الأعظم في معظم إن لم يكن كل المساجلات الساخنة، التي ينظمها مكتب العلاقات العامة أو إتحاد الطلاب بالجامعة. وكان الذين يناظروني عادة هم **د.جلال أمين**، ود.**عبد الوهاب المسيري**، ود.**مصطفى الفقي**، ود.**مصطفى كامل السيد**، والأستاذ **فهمي هويدي**، والأستاذ **عادل حسين**. وكانت هذه المناظرات تجذب

جمهوراً كبيراً من داخل الجامعة وخارجها. وكانت في أحد هذه المناظرات أن التقيت بسيدة تجلس في الصف الأول، ولم تتوقف على تركيز نظرها عليّ... وجاءت بعد المناظرة على استحياء وخجل... وظننت أنها تريد أن تسأل عن شيء ورد ذكره في المناظرة (التي كانت مع **جلال أمين وعبد الوهاب المسيري** مجتمعان ضدي عن الهوية القومية)... كانت تبدو في منتصف الأربعينات في ملابس سوداء أنيقة، وكانت الساعة التاسعة مساء (بعد الإفطار في رمضان). قالت السيدة الجميلة الوقورة "أنك لن تتذكرني... ولكنا التقينا مرة منذ سنوات طويلة..". وقبل أن تستطرد، قلت لها "أنت **صفاء حسين**..."، قالت "نعم"، وترقرقت الدموع في مقلتيها... قلت "نفس الجمال، والرقة، والتألق..."، قالت "أي جمال، وأي رقة، إنني الآن جدة، وأرملة..." تواعدنا أن نلتقي في ظرف ؟؟؟، وأخبرتني أين تعمل في الجامعة، ولكن زحمة حياتي وإيقاعها السريع لم يتحا لهذا اللقاء أن يتم.

طلب مني نفس مكتب العلاقات العامة أن أستعد لرحلة طويلة التي فيها سلسلة من المحاضرات في الولايات المتحدة، كجزء من حملة جمع التبرعات وزيادة موارد الجامعة، من أجل تشييد مقر الجامعة الجديد في صحراء القطامية. كان الطلب في ربيع ١٩٩٧، على أن تتم الجولة الأمريكية في خريف نفس العام... ثم اتصل بي مدير الجامعة، **د.دونالد مكدونالد**، لتأكيد الطلب، مضيفاً، "أنه قد آن الأوان... أن أقوم بشئ كبير من أجل الجامعة" وكان التلميح واضحاً، ويكاد يكون تصريحاً... فوافقت من حيث المبدأ. وحضر إلى القاهرة موظفتان من مكتب العلاقات العامة بالمقر الأمريكي للجامعة في نيويورك، في نهاية فصل الربيع، ورسمنا معاً الخطوط الرئيسية لجولة المحاضرات، واللقاءات، والمؤتمرات الصحفية، والتي كانت ستبدأ في منطقة بوسطن - حيث جامعات هاركارد، والـ MIT، وجامعة بوسطن، ثم نيويورك - حيث مجلس العلاقات الخارجية وجامعة كولومبيا ونيويورك، وجزيرة النيويورك تايمز. ثم لوس أنجيلوي حيث جامعتي جنوب كاليفورنيا، UCLA، ومجلس العلاقات الخارجية لجنوب كاليفورنيا، ومحطات إذاعة وتليفزيون، يهودية وعربية. ثم سان فرانسسكو، حيث جامعتي كاليفورنيا بيركيلي وستانفورد، ومجلس العلاقات الخارجية بشمال كاليفورنيا الذي نظم مناظرة بيني وبين أستاذ إسرائيلي، ولقاء مع الجالية المصرية في القنصلية المصرية بسان فرانسسكو. ثم شيكاغو، حيث جامعتي شيكاغو وديبوك، ومجلس العلاقات الخارجية. وأخيراً، واشنطن العاصمة - حيث مجلس الشؤون الخارجية، وجامعة جورجتاون، ومعهد الشرق الأوسط، ونيويورك

تايمز، والواشنطن بوست، و...U.S.Today كان البرنامج حافلاً على الورق، ولم أتوقع أن يتم بالشكل الكثيف الذي اقترحته **ساندي وسوزان!**.

ولكن الرحلة بكل مفرداتها الأصلية، نفذت حسب الخطة، مع زيارات هنا وهناك، من وحي المحاضرات واللقاءات. من ذلك أن الطلبة العرب أو المصريين، وخاصة من طلابي السابقين كانوا يطلبون لقاءات خاصة خارج الجدول الذي أعدته **ساندي وسوزان** لكل مدينة. ومن ذلك أيضاً الأحاديث الصحفية والإذاعية وخاصة (National Public Radiate) في كل مدينة. فقد كان هذا الـ NPR ذا تاريخ طويل معي، امتد منذ أيام تدريسي في أمريكا واستمر للثلاثين عاماً الماضية. ولأنه يمول من الكونجرس مباشرة، فهو الأكثر استقلالية وحيادية بين وسائل الإعلام الأمريكية التي يخضع معظمها لوسائل الضغط الصهيونية.

دارت محاضراتي حول أربع موضوعات رئيسية: السلام، الديموقراطية، الحركات الإسلامية، والتنمية. وكانت الجهات الداعية أو المستضيفة هي التي تختار من بين هذه الموضوعات. وفي حالات استثنائية كنت أتحدث عن أنشطة مركز ابن خلدون، أو أحاضر عن مسألتي الأقليات في الوطن العربي، والمرأة والمشاركة السياسية.

كانت تصاحبني في كل محطة اثنتان من مكتب العلاقات العامة للجامعة، وكانت **ساندي** أو **سوزان** دائماً معي بالإضافة إلى واحدة ثانية من المتدربات الجديدات، رغم أن **ساندي** كانت في منتصف الثلاثينيات (متزوجة)، و**سوزان** في أواخر العشرينات (غير متزوجة)... وفي كل المدن كانت هناك دعوة إلى عشاء أو غداء عمل للشخصيات الهامة في مجتمعه المحلي للقائي أو الاستماع إليّ. وفي لوس أنجيلوس، وسان فرانسسكو، وواشنطن وقعت مغامرات رومانسية قصيرة، أو أحيت علاقات قديمة، ولكن بدون طلبات أو التزامات أبعد أو أطول من أجل الإقامة في المدينة أو الرحلة التي دامت حوالي الشهر.

انتهزت فرصة وجودي في شيكاغو لزيارة ابني **أمير** الذي كان لتوه قد بدأ الدراسة في جامعة بوردو (Purdu University) في مدينة لافيت بولاية أنديانا، وكانت تبعد عن شيكاغو حوالي ساعة... وكانت أول مرة ألتقي فيها بابني وحدنا بعيداً عن الأسرة وعن الوطن. وقد اختار أن يتحول إلى هذه الجامعة لأنها كانت متخصصة في "الهندسة البيئية" التي كان يهواها في ذلك الوقت. وقد قضيت معه يوماً وليلة، شاهدنا فيها مباراة لكرة القدم الأمريكية، وحدثني زميله في السكن عن الدقائق الأولى لدخول **أمير** حجرتهما المشتركة، وإدارته لجهاز التليفزيون، وإطلاقه لصرخة مدوية ـ حيث كان وجه أباه يملأ

الشاشة في مقابلة مع مندوب لـ CNN ... وقال **أمير** مهدئاً من روع زميل سكنه الذي كان يلتقي به لأول مرة... "لقد تركت القاهرة لأكون حراً بعيداً عن الأسرة... ولكن كما ترى أن والدي يلاحقني في كل مكان، إن لم يكن بجسمه، فبصورته وصوته!". وضحكنا، وتبادلنا النداء.

مذبحة الأقصر

بدأت رحلة محاضراتي في الأمريكية في بوسطن في الأسبوع الأخير من أكتوبر... وكانت تنتهي في واشنطن يوم ٢٠ نوفمبر. وبعد انتهاء البرنامج اليومي في ١٧ نوفمبر، وجدت من عدة رسائل في فندقي بالعاصمة الأمريكية للاتصال بأصحابها فوراً... وكان أحد الأرقام لمراسل CNN في القاهرة، على رقم في القاهرة... أدرت مفتاح التليفزيون، حيث توقعت أن شيئاً حدث، يجعله يتعقبني من القاهرة إلى واشنطن... وبالفعل راعني أن القصة الرئيسية، التي تصدرت الأخبار، كانت حول مذبحة في الأقصر، وعلى درجات معبد الملكة حتشبسوت، أو ما يسمى بالدير البحري - حيث اقتحم ستة مسلحين هذا الموقع السياحي الشهير، والذي يقصده السياح من كل أنحاء العالم، وأعملو فيمن وجدوهم القتل بالسلاح الناري، وحين فرغت الطلقات، استخدموا أسلحتهم البيضاء في قتل من طالوهم... ولم يفرقوا بين رجال ونساء وأطفال... قبل أن تخف إلى الموقع قوات أمن مصرية، حررت الموقع، وقتلت أحد المسلحين، وفر الآخرون. وكانت حصيلة هذه المذبحة ستون سائحاً، معظمهم من اليابان، وسويسرا، وبريطانيا، وتم ذلك كله خلال ست دقائق... ودمرت المذبحة موسم السياحة، أو ما تبقى منه، وكلف مصر ستة مليار دولار، وكانت بداية كساد اقتصادي سيستمر لست سنوات تالية على الأقل.

ولكن ذلك لم يمنع إيلين وهربرت من شهر عسل في مصر

في أعقاب المذبحة التي هيمن التعليق عليها وعلى الأوضاع في مصر اليومين الأخيرين من إقامتي في واشنطن، أصدرت عدة حكومات غربية لمواطنيها تحذيرات بعدم السفر إلى مصر، إلا للضرورات القصوى. وكانت حماتي **إيلين**، قد التقت بصديق شبابها، **هربرت مانجر**، الذي افترقت عنه منذ عام ١٩٤٣، حيث تم تجنيده، وإرساله إلى مسرح العمليات في أوربا... وكتب لها عام ١٩٤٥ أنه قرر البقاء في ألمانيا كضابط مخابرات. للمساعدة في جهود إعادة تعميرها. ولم تسمع منه أو عنه لمدة الـ ٥٢ سنة التالية... تزوج هو في أوائل الخمسينات واستقر في ولاية فلوريدا حيث امتلك شركة صناعية للأخشاب،

وتزوجت هي عام ١٩٤٧ من زوجها المحامي **والتر ليثم**، واستقر في ولايات الوسط الغربي ـ كنساس ويسوري وإلينوي وتقاعدا في أركنساس، حيث توفى هو في يوليو عام ١٩٩٢. وحين توفيت زوجة **هربرت مانجر** في عام ١٩٩٦، عاد إلى شريط ذكرياته القديم، واستأجر شركتي مباحث خاصة للبحث عن صديقته التي لم يرها منذ ٥٤ عاماً... وأخيراً وجدها، واتفقا على الزواج، وقضاء شهر العسل في مصر. وحين علمت صحيفة الأهرام، من خلال **عبد المنعم سعيد**، بهذه القصة المثيرة، نشرتها مع صورة بالألوان في صفحتها الأخيرة، تحت عنوان: معمران أمريكيان يتحديان الحظر على السفر، ويقضيان شهر العسل في مصر... وكانت السياحة المصرية في أمس الحاجة إلى هذا الحدث... واستقبل المصريون **إيلين وهربرت** بحفاوة في كل موقع ذهبا إليه.

استانبول: من طالبان إلى أربكان

في ربيع عام ١٩٩٧، دعيت إلى مؤتمر، منظمة المعهد السويدي في استانبول، تحت عنوان "الإسلام والمجتمع المدني"، وشارك فيه حوالي خمسون باحثاً وباحثة من شتى أنحاء العالم ـ من أمريكا إلى اندونيسيا. وكان هناك من العالم العربي الذين قدموا أوراقاً إلى المؤتمر أنا والصديق **صادق جلال العظم**، أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق، والذي تعود معرفتي به إلى صيف ١٩٧٢، حينما دعوته لمحاضرة لطلاب كليات البحيرات العظمى الذين كنت أصطحبهم إلى لبنان لقضاء عامهم الجامعي الثالث... وكان آخر مرة رأيته فيها قبل خمس سنوات في برستون (التي تخرج منها)، في مؤتمر عن نفس الموضوع تقريباً، نظمه وقتها صديق آخر هو **رتشارد نورثون**. وكان هذا الأخير مدعواً أيضاً إلى مؤتمر استانبول. وهو محرر أول كتاب حول هذا الموضوع، الذي ظهر في جزأين: "المجتمع المدني في الشرق الأوسط"، والذي أسهمت فيه بالفصل الافتتاحي.

ولكثرة رؤيتي **لرتشارد نورثون** في المؤتمرات في السنوات الخمس الأخيرة بدأت عرض ورقتي، التي كان هو سيعلق عليها، بأنني رأيته منذ شهر في واشنطن، ومنذ شهرين في لندن، ومنذ ثلاثة شهور في عمان، ومنذ أربعة شهور في بيروت... وها أنا أراه اليوم في استانبول، وأنني في الواقع قد رأيته أكثر مما رأيت أفراد أسرتي!.

كانت ورقتي بعنوان جذب اهتمام الأتراك، حتى قبل عرضها أي بمجرد إعلان جدول أعمال المؤتمر، ورؤية اسم الكاتب وعنوان الورقة "من طالبان إلى أربكان"، (from Taliban to Erbican). وكانت فكرتها قد بدأت في مؤتمر

مشابه في افتتاح مركز الحوار الإسلامي ـ المسيحي في جامعة جورجتاون في خريف ١٩٩٣، ثم تبلورت في المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع في صيف ١٩٩٤، وفي كوبنهاجن عام ١٩٩٥... وحينما استولت حركة طالبان المتزمتة على السلطة في أفغانستان في ذلك العام (١٩٩٥)، وجدت فيها تجسيداً حياً لأبشع ما يمكن أن يكون عليه الإسلاميون في السلطة فقد أقفل هذا الشباب المتطرف الجامعة الوحيدة في كابول، وحرموا على البنات من كل الأعمار الخروج سافرات، أو الذهاب إلى المدارس، أو العمل خارج المنزل. كما أقفلت طالبان محطة التليفزيون ودور السينما، وطبقت "حدود الشريعة"، كما فهمها هؤلاء الشباب المتعصب الذي تلقى تعليمه التقليدي الحنبلي الوهابي في مدارس دينية في بيشاور الباكستانية على حدودها مع أفغانستان، أثناء حقبة الاحتلال السوفيتي، وكانت مدارسهم محترقة تماماً أو تحت السيطرة الكاملة للمخابرات الباكستانية، الشديدة الكراهية لكل من الهند والإتحاد السوفيتي، وغسلت أدمغة طلاب تلك المدارس من ؟؟؟ بهذه الكراهية، والعداوة لكل ما هو غربي وعلماني وحديث. ورغم أنهم يشاركوا مع المجاهدين في حرب المقاومة ضد الاحتلال السوفيتي لبلادهم في الثمانينيات، إلا أنهم انتهزوا فرصة الفوضى التي أعقبت الانسحاب السوفيتي، والصراع المسلح بين فصائل المجاهدين على السلطة، فتحركوا عبر الحدود، بتسليح ودعم المخابرات الباكستانية، ونجحوا في الاستيلاء على السلطة في كابول، وسيطروا على ثلثي البلاد خلال ستة شهور، وانحسرت الفصائل الأخرى إلى شمال البلاد، تحت قيادة أسد وادي بانشير، القائد **أحمد سعود شاه**، الذي استعصى على قوات طالبان هزيمته.

في مقابل تزمت وتخلف ودموية طالبان باسم الإسلام في أفغانستان كان هناك بديل إسلامي على طرف نقيض، أكثر استنارة وانفتاحاً، وقبولاً للحداثة، وللتعددية السياسية واللعبة الديموقراطية، قادة مصر ومثابرة في تركيا منذ أوائل السبعينات المهندس **نجم الدين أربكان**، الذي تعلم في ألمانيا. ولأن كل شيء نسبي، فإنه رغم استنارة **أربكان** والأحزاب المختلفة التي أسسها ـ مثل العدالة، والقنصلية و؟؟؟ ـ إلا أن المؤسسة العسكرية التركية التي تعتبر نفسها حامية حمى العلمانية التي أرساها **مصطفى كمال أتاتورك** منذ أوائل العشرينات ـ كانت تتشكك في أفكار وممارسات **نجم الدين أربكان**، وتضيق عليه وعلى أنصاره الخناق، وتستعدي عليه بقية الأحزاب والقوى العلمانية. ومع ذلك ارتفع نصيب **أربكان**، وأي حزب جديد يؤسسه، من أصوات الناخبين الأتراك من ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ في المئة وهو ما مكنه بعد أخر انتخابات برلمانية من تشكيل الوزارة في أواخر عام ١٩٩٥. وقد تزامن ذلك مع وصول طالبان إلى السلطة بقوة السلاح.

وكانت هذه المفارقة مغرية بالوصف والتحليل والتفسير... وهو ما فعلته في ورقتي التي عرضتها في المعهد السويدي باستانبول. وكان واضحاً من الورقة والغرض الشفوي، أنني متعاطف مع "المنهج الأربكاني"، وتعرضت الورقة لنقد حاد من الزملاء الأتراك المشاركون في المؤتمر... كذلك تعرضت لها الصحافة التركية بإسهاب، عارضتها الصحافة العلمانية، التي استغربت موقفي المناهض للإسلاميين في مصر بلدي، والمؤيد له في تركيا، بلدهم! وبالطبع احتفت الصحافة الإسلامية بتنبؤاتي بظهور أحزاب "إسلامية ديموقراطية"، مثلما ظهرت أحزاب "مسيحية ديموقراطية" في غرب أوربا!.

مناظرة مع الزعيم الليبي معمر القذافي

كان الزعيم الليبي **معمر القذافي** مولع بالدعايات الزاعقة، حتى لو انطوت على أفكار غريبة، أو ممارسات شاذة ـ سواء في ملابسه، أو خيامه، أو حرسه الخاص، أو شعاراته، أو تسمياته، أو اجتهاداته. وقد ازدادت هذه النزعات عند الرجل، مع إنفراده وطول بقائه في السلطة... والإنفراد وطول البقاء في السلطة يؤدي إلى الاستبداد. **ومعمر القذافي** ليس هو المستبد الوحيد في تاريخ العرب الحديث. بل إن واقع الأمر هو أن "الاستبداد" هو القاعدة، والمشاركة أو الشورى أو الديموقراطية هي الاستثناء في التاريخ العربي ـ قديمة، ووسيطة، وحديثة. ولكن **معمر القذافي**، الذي استولى على السلطة في ليبيا من خلال انقلاب عسكري، في أول سبتمبر ١٩٦٩، هو أكثر المستبدين العرب استبداداً، وأشدهم غرابة، وأقواهم شططا في خطابه السياسي.

ومن تجليات طرائف هذا المستبد الليبي أنه واجه التحدي الأمريكي العسكري لغلوائه، بالمزيد من الغلواء اللفظي، وليس العسكري بالطبع. فبعد الغارة الجوية التي شنتها عليه طائرات الإسطول السادس الأمريكي، تأديباً له على التعرض لبعض الناقلات الأمريكية قرب الشواطئ الليبية، في أواخر السبعينات، قام الرجل بتغيير اسم بلاده. وللتمويه على ضعف دفاعاته الجوية في التصدي للغارة الأمريكية، وجه خطاباً سياسياً هاماً إلى الشعب الليبي، بما مضمونه أن الولايات المتحدة دولة عظمى، وبالتالي لا تتحدى ولا تهاجم ولا تحارب إلا "دولة عظمى" مثلها. وبما أنها أغارت على ليبيا، فإن ذلك يعني أن ليبيا هي "دولة عظمى". ولكي يؤكد لشعبه هذا الاستنتاج العبقري، فقد غير اسم بلده للمرة الثالثة خلال فترة حكمه ـ حيث كانت "المملكة الليبية"، فأصبحت "الجمهورية الليبية" (١٩٦٩)، ثم "الجماهيرية الليبية العظمى" (١٩٧٩). طبعاً مع ذلك الوقت، وبعد شطحات الرجل المتعددة السابقة، لم يأخذ أحد في داخل ليبيا أو

خارجها هذه الشطحة اللامنطقية، مأخذ الجد، فقد ظلت "ليبيا" هي هي داخل نفس الحدود، وبنفس الشعب، وربما مع احترام متناقص، رغم إضافة وصف "العظمى".

من شطحاته المبكرة أيضاً أنه سمع أن كل "ثورة" كانت تقوم على "نظرية" يحتويها كتاب. من ذلك أن الثورة الرأسمالية كان لها نظرية صاغها آدم سميث، في كتاب "ثروة الأمم". وكان للشيوعية نظرية، صاغها **كارل ماركس** في كتاب "رأس المال". وكان للنازية، نظرية، صاغها **هتلر** في كتابه "كفاحي". وعندما قام **ماوتس تونج** الزعيم الصيني بقراءة جديدة للماركسية، صاغ هذه القراءة الجديدة في "الكتاب الأحمر" (The Red Book). أراد القذافي أن يتشبه بهذه الشخصيات التاريخية العملاقة، فكتب مجموعة أفكار، أطلق عليها "النظرية الثالثة"، ونشرها في كتاب سماه "الكتاب الأخضر". وبعد سنوات قليلة، كان مصير "النظرية" و"الكتاب الأحمر" هو مزابل التاريخ.

وكانت آخر شطحات **معمر القذافي** في خريف ١٩٩٧، هو إعلانه "الاستقالة من العروبة" والالتحاق "بالأفريقية" وكعادة أي مستبد، اعتبر الرجل أن هذا القرار يسري على كل ليبيا والليبيين. فأعلن في خطاب جماهيري حذف كلمة "العربية" من الاسم الرسمي لبلاده، وإلغاء "وزارة الوحدة العربية"، التي كان قد ابتدعها وحده في ليبيا، ولم يكن لها نظير في أي قطر عربي آخر... ولكن ها هو بعد ربع قرن من إنشاء تلك الوزارة، يقرر إلغائها، وإنشاء وزارة جديدة "الوحدة الإفريقية"، وأمر بتغيير الخرائط، لتعكس هذا الانقلاب... كذلك بدأت إذاعة وتليفزيون وصحف ليبيا تدعو وتروج "لإفريقية" ليبيا، وتتنصل من عروبتها، وتهاجم هذه العروبة، وتدعي أنها فرضت فرضاً على ليبيا، ومعها تم تزييف وعي الليبيين وإقناعهم، خلافاً للحقيقة، أنهم عرب.

أخذت القوى السياسية والإعلام في الشرق، وخاصة في الخليج، هذا الانقلاب الليبي مأخذ الجد... وبدأت حملات ونداءات ووفود تتوجه من المشرق إلى ليبيا، حتى تثني العقيد **القذافي**، قائد الثورة الليبية عن قرارات الطلاق للعروبة، حتى "إذا تزوج عليها من إفريقيا"! بينما لم يأبه أحد في مصر أو بلدان المغرب العربي الثلاث ـ تونس والجزائر والمغرب ـ بقرارات القذافي، ولم يصب كتابها بالفزع من هذه القرارات. فقد كانوا يعرفون **القذافي** جيداً.

وقد تجلى هذا الاهتمام الشرقي الخليجي في فكرة حوار على الهواء مع العقيد يشرح فيه كل مبررات قراراته الثورية. ولم يكن أفضل من قناة الجزيرة للقيام بهذه المهمة التاريخية الجليلة، لعل وعسى يمكن إثناء الرجل عن قراراته.

ـ وكان السؤال الأول من يحاور العقيد **القذافي**؟

- وكان السؤال الثاني كيف يحاوره؟
- وكان السؤال الثالث أين يتم الحوار؟

واستبعدت فكرة أن يفعل ذلك حاكم عربي آخر. فالحكام العرب لا يتحاورون علناً... هذا إذا تحاوروا أصلاً. واستقر رأي المسؤولين عن قناة الجزيرة القطرية، على أن يبحثوا عن مفكر عربي قومي، قادر على، وراغب في الحوار مع العقيد، وفي نفس الوقت يكون معروفاً، وذو حيثية تليق بمقام رئيس الدولة الذي سيحاور، من ناحية، وذو مصداقية واستقلالية، تجعل بقية المثقفين والمشاهدين العرب يأخذون الحوار مأخذ الجد من ناحية ثانية، ومن بلد عربي رئيسي له وزنه من ناحية ثالثة، وذو حضور تليفزيوني من ناحية رابعة.

وبعد بحث دام عدة أسابيع، اتصل بي **د.فيصل القاسم**، الذي يقدم برنامجه الأسبوعي ذائع الصيت "الاتجاه المعاكس"، لكي أحاور **القذافي** حول مسألة هوية ليبيا، والقرارات التي أتخذها في هذا الصدد... وقلت له من حيث المبدأ، لا مانع لدي... والمهم هو شروط إدارة الحوار، ومكانه، وزمانه.

اتفقنا على الزمان والكيفية. وكانت هذه الأخيرة هي إصراري على نفس عدد المداخلات، ونفس الوقت بالدقيقة والثانية، لكل من المتحاورين، أي **القذافي** وأنا. ووافق **د.فيصل** على هذا الشرط بعد أن طلب أن أتجاوز عن شرط "الثواني" في الوقت المتكافئ لصعوبة تحقيق ذلك.

كان موضوع المكان هو المشكلة الحقيقية، التي استغرق التفاوض بشأنها أسبوعاً كاملاً. كان المعتاد، منذ بداية بث البرنامج قبل ثلاث سنوات، أن يتم البث والإرسال من استديوهات قناة الجزيرة في الدوحة بإمارة قطر. وقد سبق لي شخصياً المشاركة في هذا البرنامج وبرنامج مشابه له من نفس القناة، هو "الرأي الآخر"، من مقر القناة في العاصمة القطرية. ولكن **القذافي** رفض أن يذهب إلى قطر لإذاعة البرنامج على الهواء مباشرة. وأصر على أن يسجل في ليبيا أو يُبث منها على الهواء مباشرة. ووافق **فيصل القاسم**، الذي كان يتحرق على هذه الخبطة الإعلامية الفريدة، وتصور أنني لن أمانع. ولذلك صدمته برفضي الذهاب إلى ليبيا، ووبخته لاندفاعه بالموافقة على طلب **القذافي** دون الرجوع إليّ كطرف له نفس الحقوق في مشروع الحوار، الذي لا بد أن يكون متكافئ. وتعمدت لا فقط الإصرار على رفض الذهاب إلى ليبيا، وإنما أيضاً طلب ضمانات أنه لن يضعف أمام رئيس دولة، فيما يتعلق بشروط الحوار. وكان رأيي النهائي هو إما أن يتم الحوار في قطر أو في القاهرة... وتقريباً انتهت المكالمة العاصفة بيني وبين **د.فيصل**، بما يشبه أن مشروع الحوار مع **القذافي** قد انتهى بالنسبة لي.

ولكن بعد ثلاثة أيام عاود **القاسم** محاولاته، وجاء هذه المرة بحل وسط، مفاده، أن يظل كل منا في بلده ويتم الحوار بالأقمار الصناعية... وكانت تكنولوجيا الاتصال تسمح بذلك فعلاً، مع هذا الوقت (أواخر عام ١٩٩٧)... واتفقنا على هذا، وأن يذاع الحوار أو المناظرة في الوقت المعتاد لبرنامج "الاتجاه المعاكس" وهو الثامنة مساءً (كل ثلاثاء) ولمدة ساعتين يتخللهما موجز للأخبار، لمدة دقيقة، كل نصف ساعة... وقامت محطة أو قناة الجزيرة بحملة إعلامية كبيرة قبل البث بعدة أيام، حتى تضمن للبرنامج أقصى نسبة مشاهدة في الوطن العربي والعالم.

وفي اليوم وقبل الساعة الموعودة، بساعة كاملة جرت اختبارات الصوت والصورة من استديوهات "فيديو كايرو" بالقاهرة، والمملوكة للإعلامي الشاطر **محمد جوهر**.

وكانت أسرتي وتلاميذي ومعارفي في مصر والوطن العربي والعالم يترقبون على أعصابهم. وبدأ البرنامج بالمقدمة المعتادة للدكتور **فيصل القاسم**، هو سوري الجنسية، ولكن درس في لندن. وعمل لعدة سنوات في هيئة الإذاعة البريطانية، القسم العربي، ثم في الإرسال المشترك بين شركة "أوربت" والـ BBC، لمدة سنتين، قبل الضغط على الأمير **خالد بن عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود**، لفسخ العقد مع الـ BBC، وهو ما أغرى القطريين بإنشاء قناة الجزيرة، ونقل **فيصل** وزملائه من لندن إلى الدوحة، كما ذكرنا في موضع سابق من هذه المذكرات.

وكان السؤال الأول من **فيصل** إلى القذافي عن "مبررات هذا الإعلان الليبي المفاجئ حول هوية ليبيا، والذي صدم العرب في كل مكان".

وتحدث **القذافي** عن خيبة أمله في العرب والعمل العربي المشترك، رغم كل ما فعلته وبذلته ليبيا في هذا الصدد... وأن القرار الذي اتخذه قد يكون مفاجئاً لغير الليبيين من العرب، ولكنه تم بعد تمعن وتفكير في حقائق الجغرافيا والتاريخ، واكتشافه أن ليبيا هي حقيقة جغرافية وبشرية إفريقية. لذلك قرر أن يعيد الأمور إلى نصابها وطلب مني **فيصل** أن أعلق على ما قاله الأخ العقيد.

- ألقيت التحية على العقيد من القاهرة، وقلت ما مضمونه، أنه مع تفهمي لخيبة أمل الأخ العقيد في العرب وفي حصيلة العمل العربي المشترك، فإن ذلك لا يبرر القرار الانقلابي بتغيير هوية ليبيا وشعبها، حيث أن الهوية ليست رداء أو حذاء يلبسها، ويخلعها حين يريد أي منا أو من حكامنا، وأن الهوية "هي تراكم تاريخي - ثقافي - وجداني، يستحيل تغييرها بقرار قومي. ثم أنني أوجه سؤالاً للأخ العقيد، هل استفتى شعبه؟

ورد **القذافي** مباشرة، دون وساطة من **فيصل القاسم**، حيث قال:

- إنني لا أحتاج أن أستفتي شعبي في هذا الأمر أو غيره من الأمور، والقائد الحق يعرف ويستشعر قلب وضمير شعبه، ويترجم مكنوناته الداخلية، دون إذن أو استئذان من أحد، وأن شعبه كان يستعجل هذا القرار منذ سنوات، وكان هو الذي يقاوم، لعل وعسى ينفخ الله في صورة الأمة العربية.

واستفزتني العبارة الأخيرة عن "الأمة الجبانة"، فقاطعت العقيد:

. عفواً، أخي العقيد، كيف تصف أمة بكاملها بأنها جبانة؟ أليست هذه هي الأمة التي أنجبت **عمر المختار** في ليبيا، والأمير **عبد القادر** في الجزائر، و**عبد الكريم الخطابي** في المغرب الأقصى، و**عرابي** و**عبد الناصر** في مصر ؟ هذا فضلاً عن أبطالها التاريخيين من **خالد بن الوليد**، إلى **طارق بن زياد**، إلى **صلاح الدين الأيوبي**... وعشرات وعشرات يضيق وقت البرنامج عن ذكرهم... إذا كان هناك من جبناء في هذه الأمة في الوقت الحاضر، فهم ليسوا شعوبها ولكن حكامها... إن حكامنا هم الجبناء.

وقاطعني **فيصل القاسم**، وطلب مني عدم التعرض للحكام العرب في البرنامج، حفاظاً على تقاليد البرنامج ومشاعر الحكام، الذين نكن لهم كل احترام...

وقاطعته بدوري، وطلبت منه ومن الأخ العقيد عدم التعرض للشعوب العربية، حفاظاً على تقاليد الضيافة العربية، ومشاعر شعوب الأمة...

وقال **القذافي** أنه لم يقصد إهانة الأمة، ولكنه غاضب منها وغاضب عليها.

انتهزت الفرصة، وقلت أن الإنسان لا يغضب من آخرين أو لآخرين إلا لأنهم يهموه، ولأنه يرتبط بهم برباط خاص... فليس غضبه للأمة العربية، مثل غضبه من الشعب الصيني أو الكندي... أليس كذلك؟ هز **القذافي** رأسه، وبدأ ينظر إلى السقف.

وتدخل **فيصل القاسم** ليستفز **القذافي**، فسأله ما هو تحديداً الذي يربط الشعب الليبي بشعوب أفريقيا السوداء، غير صدفة الموقع الجغرافي ؟.

وانبرى **القذافي** يتحدث عن علم السلالات البشرية، حديث الهواة، ونصف المتعلمين، بشكل يدعو للرثاء... وكان من الواضح أن أحداً في مكتبه أو في أحد جامعات ليبيا، قد ضلله ببعض المصطلحات الأنثروبولوجية، دون فهم أو استيعاب كامل. وكان من شأن توجيه سؤال واحد إليه عن السلالات التي ينتمي إليها سكان ليبيا الحاليين أن يحدث له ارتباكاً، حيث لم يتوقع السؤال، وبالتالي لم يكن عنده إجابة له... فينظر إلى سقف الاستديو !.

وطلب مني **فيصل القاسم** التعليق، فذكرت في عجالة التصنيفات الكلاسيكية للسلالات الكبرى، وفروعها. وأن الجنس الزنجي (Negroid) الأسود البشرة، المتجعد الشعر، الغليظ الشفاه، ذو الأنف الفطساء، واسعة الفتحات، والذي يوجد في المنطقة الاستوائية وحولها جنوباً وشمالاً، إلى خطي الجدي والسرطان. والسؤال هو أين الشعب الليبي الحالي من هذه المواصفات والصفات؟.

ولم يجب **القذافي**، رغم أن **فيصل القاسم** أعاد توجيه السؤال له... وللمرة الثالثة، لم يجب، وحملق في السقف... وشعرت شخصياً بالإشفاق على القذافي... وأن المناظرة ستدخل نفقاً ضيقاً، يؤدي إلى إجهاضها.

تطوعت بالإجابة على السؤال بسرعة، وهو أن الشعب الليبي لا يدخل ضمن المجموعة السلالية الزنجية، ربما باستثناء مجموعة صغيرة في جنوب ليبيا، على الحدود مع تشاد. وأن أغلبية الشعب الليبي، شأنه شأن جيرانه في الشرق، أي مصر، والغرب أي في تونس والجزائر، ينتمي إلى سلالة مختلطة حامية - سامية - بحر متوسطية. لذلك ينبغي إقفال هذا الباب السلالي في تبرير هوية الشعب، حتى نتقدم بالمناظرة إلى الأمام. وجاء ذلك بمثابة حلقة إنقاذ **لفيصل القاسم**، فسأل **القذافي** عن المزايا والأضرار المتوقعة من تغيير هوية ليبيا من العربية إلى الإفريقية.

وانبرى **القذافي** للحديث عن شجاعة ستة رؤساء أفارقة، تقدمهم الزعيم الإفريقي العظيم **نيلسون مانديلا**، الذين تحدوا الحظر الدولي المفروض على الطيران في الأجواء الليبية، وتوجهوا بطائراتهم الرئاسية إلى ليبيا، لإعلان تضامنهم مع ليبيا ضد القرارات الجائرة للأمم المتحدة، والتي تعاقب ليبيا، منذ حادث انفجار طائرة الركاب، التابعة لبان أميريكان، فوق بلدة لوكيربي الإسكتلندية في أواخر الثمانينات. واتهمت الدول الغربية المخابرات الليبية بأنها وراء الحادث، ورفضت ليبيا الاعتراف أو حتى التحقيق، مع المشتبه فيهم من ضباط مخابراتها وأضاف أن الرؤساء العرب لم يجرأوا على فعل ما فعله الرؤساء الأفارقة.

طلب **فيصل** مني التعليق...

قلت أنني أحيي الرؤساء الأفارقة الستة على ما فعلوه، وأدعو بقية الرؤساء الأفارقة الأربعين الآخرين، وكذلك أدعو الرؤساء والملوك العرب العشرين، لكي يقتفوا أثر الرؤساء الأفارقة الست... ولكن السؤال يظل قائماً للأخ العقيد، وهو ما ذنب الشعب الليبي وشعوب الأمة العربية بينما الملامة هي على زملائه الزعماء العرب، فلماذا لا يقول ذلك صراحة ؟.

ذكر **القذافي** أيضاً أن خيرات أفريقيا السوداء عميمة، ولا تحتاج إلا إلى من يستثمرها، وأن ليبيا ستفعل ذلك.

فقاطعته، هل هذا يعني أن القرار الليبي هو لاعتبارات انتهازية استغلالية؟ لم يستطع العقيد الرد، فنظر إلى سقف الأستديو، كما اعتاد أن يفعل منذ بداية المساجلة.

وجه **فيصل القاسم** سؤالاً نهائياً للعقيد، عما يود أن يقوله لشعوب الأمة العربية في نهاية هذا الحوار؟.

قال **القذافي** "لقد فعلت الكثير من أجل الأمة العربية، وحوصرت ليبيا منذ خمس سنوات بواسطة أمريكا والقوى الإمبريالية، ولم تهب شعوب الأمة لنصرتنا، وكأننا لسنا جزء منكم. لذلك أطالب شعبي بأن نمضي في طريقنا وحدنا، أو نحتمي فيمن ناصرونا، ووقفوا معنا من الأشقاء الأفارقة".

طلب **فيصل** مني التعليق، فقلت:

"إن كلمات العتاب والشكوى التي تفضل بها الأخ العقيد إلى الأمة تؤكد لي مجدداً أنه في أعماق أعماقه مثلنا جميعاً، عربي حتى النخاع...

۱۹۹۸ـ ۱۹۹۹ ـ ۲۰۰۰

أعياد ميلاد ١٩٩٧ - رأس سنة ١٩٩٨

كان ديسمبر حافلاً بأعياد الميلاد العائلية. عيد ميلادي وعيد ميلاد صهري **نبيل**، وعيد ميلاد حفيدتي **لارا** الأول، وطبعاً عيد الميلاد المجيد للسيد المسيح (الكريماس). وأضيف إلى بهجة هذه السلسلة من أعياد الميلاد العائلية والدينية، وصول حماتي **إلين**، وزوجها الثاني **هيربرت مانجر** الذي إلتقته بعد ما يقرب من ٥٥ عاماً من الاقتراب.

وأذكر أنه في مثل هذا الوقت من العام السابق (١٩٩٦) وكانت كالعادة في زيارتنا لقضاء أعياد الميلاد، أنني بدأت مداعبتها، على مائدة العشاء، بسؤالها "ألم يحن الأوان، وقد مضى على رحيل العزيز **والتر** أكثر من أربع سنوات، أن تستأنفي حياتك الرومانسية، برؤية الرجال والخروج معهم؟" فإذا بها تقطب من جبينها، وتنهرني بلهجة غاضبة لم أعتادها "**سعد**... هذا أمر لا يحتمل الهزار، أو المداعبة... بعد **والتر**، فإنني لا أطيق رجلاً آخر يقترب مني جسدياً، إن ذلك يصيبني بحالة من الاشمئزاز..."، فسارعت بالاعتذار حيث لم أتوقع رد الفعل الحاد هذا.

كان من عادة **إلين ووالتر**، في زيارتهما السنوية إلى مصر. بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٢، أن يتوقفا في الطريق ذهاباً، أو إياباً، في أحد البلدان التي لم يزوراها من قبل لعدة أيام... وقد استمرت **إلين** في هذا التقليد... لذلك ففي طريق عودتها إلى الولايات المتحدة في يناير ١٩٩٧، توقفت في تركيا لمدة أسبوع. وكان من عادتها أيضاً أن تتصل بنا بمجرد عودتها إلى الولايات المتحدة، لكي تطمئننا على سلامة وصولها، خاصة وأنها قد وصلت إلى منتصف السبعينيات من عمرها... ولكن مر أسبوعان في ذلك العام ولم نسمع منها، وبدأنا نحن نتصل بمنزلها في مدينة بيلافيستا (Bela Vista) في ولاية أركنساس، ولمدة أسبوعين آخرين، كان جرس التليفون يدق، دون أن يرد عليه أحد، أو يعطي إشارة "مشغول"... وساورنا القلق، فاتصلنا بصهري (إبنها) **تروي (Troy)** في مدينة ماديسون بولاية وسكنسون، فأكد لنا أنها وصلت إلى قواعدها سالمة...

فهدأت خواطرنا... وأخيراً وفي أحد أيام فبراير ١٩٩٧، دق تليفون منزلنا في الثامنة صباحاً، وكنت قد عدت من تدريباتي الصباحية في نادي المعادي، بينما كانت **باربارا** في الحمام... وكان المتحدث على الطرف الآخر هو السيدة **إيلين**، حماتي العزيزة، التي رحبت بسماع صوتها، وعبرت عن قلقنا لأننا لم نسمع عنها بعد رحلة تركيا والعودة إلى بيلافيستا... كانت تجيب بسرعة واقتضاب، وتستعجل الحديث مع ابنتها **باربارا**، التي كانت قد خرجت من الحمام وعادت إلى غرفة نومنا لارتداء ملابسها، استعداداً للإفطار والذهاب إلى العمل... أخذت **باربارا** التليفون، وبدأت أنا في ارتداء ملابسي، وهي عملية لا تستغرق أكثر من عشرة دقائق عادة... ومازالت مكالمة أمريكا مستمرة... وكل ما كنت أسمعه من **باربارا** هي عبارات من قبيل: هل تقولين الحقيقة؟ أنني لا أصدق... مش معقولة... قولي كلاماً آخر ولأن وجه **باربارا** كانت تكسوه علامات الابتسام والاهتمام، فإن الأمر لم يقلقني، وهبطت إلى الطابق الأرضي من الفيلا، حيث غرفة الطعام، وجلست إلى المائدة، أطالع الجرائد الصباحية، في انتظار زوجتي حتى نتناول الإفطار سوياً كالعادة وانتهيت من مطالعة الصفحات الأولى والأخيرة من الصحف اليومية الأربع... ولم تهبط **باربارا**... فبدأت أنا في تناول الإفطار بمفردي... وبعد ساعة كاملة على التليفون من أمريكا، جاءت **باربارا** إلى المائدة، وأنا في آخر مراحل الإفطار، وهو تناول كوب الشاي الثاني... ولم يكن وجهي سعيداً، لتلكؤ **باربارا**، رغم حرصنا نحن الاثنان على الإفطار سوياً، واستحالة الغداء معاً بسبب عملها وعملي، ولعدم ضمان العشاء معاً.

حينما دخلت **باربارا** غرفة الطعام، كان على وجهها ابتسامة عريضة... وبادرتني "هل تذكر توبيخ والدتي لك منذ شهر على هذه المائدة، حينما داعبتها حول استئناف نشاطها الرومانسي؟" هززت رأسي... واستكملت هي رواية قصة عثور الحبيبين القديمين على بعضهما بعد ٥٥ سنة . أمها في الخامسة والسبعين، و **هربرت** في الثمانين!.

كان احتفاء صحيفة الأهرام بوصول المعمرين الأمريكيين لقضاء شهر عسلهما في مصر، رغم الحظر أو التحذير الحكومي الأمريكي بعدم السفر إلى مصر بعد مذبحة الأقصر (نوفمبر ١٩٩٧)، بداية طيبة، لإقامة العروس **(حماتي)** وعريسها **(هربرت)** الذي التقيته لأول مرة... كان عجوزاً، ولكن فارع الطول وكثيف الشعر الأبيض، ووسيم للغاية... وحاولت رسم صورة له منذ ٥٥ سنة، أي وهو في الخامسة والعشرين... وخلصت إلى أنه لا بد أنه كان مثل نجوم السينما، ولا يقل وسامة عن سهري الراحل **والتر**، وإن كان أطول قليلاً، وأكثر رشاقة، حتى وهو في هذه المرحلة من العمر (٨٠ سنة)... لم تكن ظاهرة

من علامات شيخوخته إلا ضعف نظره، وضعف سمعه... ولكن **إلين** كانت تعوضه عن ذلك، وكانت تحيطه برعايتها وحمايتها الكاملة، كما لو كان طفلها... وطفلها المدلل!.

مما فعلناه معاً كأسرة ممتدة، من أربعة أجيال: **لارا، راندا، باربارا، إلين،** وثلاثة أزواج، هو رحلة طويلة إلى الأقصر وأسوان، بباخرة نيلية فاخرة... وقد ساعدنا على ذلك انهيار موسم السياحة في ذلك العام، وتنافس شركات السياحة على الزبائن... من ذلك أننا كنا لا نتجاوز ثلاثين نزيلاً، على باخرة تتسع لسبعين نزيلاً، ولا أذكر مشهداً مثل ذلك منذ سنة ١٩٩١، في نفس الموسم، بسبب تناقص السياح بسبب أزمة الخليج. وقد استمتعنا جميعاً بالإجازة، وقضينا رأس السنة الجديدة ١٩٩٨ سوياً، وتفائلنا بالعام الجديد.

ورغم أننا كنا في بدايته، إلا أن عام ١٩٩٨، كان هو العام الذي يتم فيه مركز ابن خلدون عشريته الأولى (مايو)، وأتم أنا فيه عامي السنتين (ديسمبر).

صندوق ابن خلدون للتنمية

من المشروعات التنفيذية الكبرى في مجال التنمية التي اضطلع بها مركز ابن خلدون في عام ١٩٩٨ على نطاق واسع، كان مشروع صندوق ابن خلدون للتنمية، من خلال القروض الصغيرة وهو المشروع الذي بدأت بذوره الجنينة، قبل خمس سنوات، بإعادة تأهيل الإسلاميين التائبين، أو الذين يريدون الإقلاع عن العنف، ثم انضمت الفتيات والأمهات من أقارب الإسلاميين إلى المستفيدين من خدمات المشروع، ثم أصبح المشروع مفتوحاً لكل مستحق من الفقراء، قادر وراغب في بدء مشروع صغير.

تزامن هذا التوسع التدريجي بين عامي ١٩٩٣و١٩٩٧، مع اتصالاتي واطلاعي على المشروعات الصغيرة، وتجاربها في أقاليم مختلفة من العالم وخاصة في شبه القاهرة الهندية. وقمت برحلة ميدانية في العام السابق إلى مواقع التجربة في الهند وبنجلاديش، وأرسل المركز عدداً من باحثيه لتلقي تدريباً متخصصاً ومكثفاً في هذا المجال إلى مواقع بنك جرامين في بنجلاديش... وعادوا مهيأين للتوسع فيما كنا قد بداناه، وإعادة هيكلته بطريقة أكثر علمية ومهنية.

وساعدنا على التوسع حصول مركز ابن خلدون على قرضين . أحدهما من مؤسسة أو صندوق جرامين والثانية من الصندوق الدولي للتنمية الزراعية، ومقره روما. وكان يرأس مجلس إدارته **د.فوزي السلطاني**، وهو اقتصادي كويتي من الذين التقيت بهم عدة مرات في مؤتمرات البنك الدولي في السنوات الأخيرة.

وقد مكنتنا هذه القروض، وغيرها من المنح الأصغر من سفارات الولايات المتحدة، واستراليا، ونيوزلندا، وهولندا، والدانمرك، إلى التوسع الجغرافي في القاهرة الكبرى، من موقعين في إمبابة، إلى موقعين إضافيين في بولاق الدكرور بالجيزة، وعلى موقع في قريتي بدين بالدقهلية، وإلى مناطق الاستصلاح الجديدة، في غرب النوبارية، بمحافظة الجيزة. وكنا نقوم بتدريب عاملين جدد من أصحاب الشهادات الجامعية والدبلومات المتوسطة.

وقفز عدد العاملين في صندوق ابن خلدون الأهلي في كل المواقع إلى حوالي عشرين شخصاً. ومع نهاية عام ١٩٩٨ كان قد وصل عدد المستفيدين من الخدمات الإقراضية إلى حوالي ستمئة شخص، أي بمعدل ثلاثين حالة لكل أمين إلى ستين حالة في عام ١٩٩٩، ثم إلى مئة حالة في عام ٢٠٠٠، وهو المعدل الذي يجعل المشروع متوازناً في موارده وتصرفاته، مع تحقيق هامش ربح صافي حوالي ٣%.

ومما أضفناه لمشروع الإقراض والتدريب على إدارة المشروعات الصغيرة، فصولاً لمحو الأمية، وبرامج توعية صحية وتنظيم أسرة، ثم برامج للتوعية السياسية، وتسجيل المواطنين في الجداول الانتخابية... أي أننا في المواقع الست التي نشط فيها صندوق ابن خلدون الأهلي، كنا نضيف تدريجياً خدمات إضافية، بحيث تكون التنمية أكثر شمولاً وتكاملاً.

من مشروعات المركز الهامة، ضمن برنامجه الرئيسي للمجتمع المدني والتحول الديموقراطي، كان مشروع التوعية السياسية والحقوق الانتخابية (Political Education and Electoral Rights PEER).

وقد أوحى لنا بهذا المشروع تجربة مراقبة الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٥. فقد لاحظنا أنه كلما زادت نسبة التغيب عن الإدلاء بالأصوات، أي التقصير في مباشرة الحقوق السياسية، كلما زادت نسبة التلاعب والتزوير في العملية الانتخابية. وذلك لأنه من شأن هذا التغيب لمواطنين مسجلين بالفعل في الجداول الانتخابية، أن تظل بطاقات الاقتراع الخاصة بهم في دائرتهم الانتخابية بدون استخدام، وهو ما يغري أنصار بعض المرشحين الذين ينوبون عنهم كمندوبين في غرفة الاقتراع (الإدلاء بالأصوات)، إلى استخدام البطاقات التي تغيب أصحابها، وملئها (تسديدها) لصالح مرشحهم. وفي المقابل، كشفت فرق المراقبة أنه كلما زادت نسبة الإقبال على التصويت، كلما تناقصت إمكانيات واحتمالات الغش والتزوير.

لاحظنا أيضاً مفارقة غريبة، وهي أن نسبة الإقبال والمشاركة والتصويت أعلى بكثير في الريف عنها في المدن، حتى تكاد تصل إلى ثلاثة أمثال (٨٥%

مقابل ٣٠%)، هذا رغم أن الوعي السياسي في المدن أعلى منه في الريف. وكأن هذه المفارقة بسيطةً. ففي الريف، حيث العصبيات العائلية التقليدية، يتم تسجيل المواطنين والمواطنات جماعياً وأتوماتيكياً، طبقاً لدفاتر تسجيل المواليد، بمجرد وصولهم إلى سن الثامنة عشر، وتحرص كل عائلة ممتدة أن يشارك كل أفرادها لنصرة المرشح الذي يوصي أو يأمر به عميد أو كبير العائلة، فهو الذي يساوم المرشحين على تأدية خدمات شخصية أو عامة لأهل القرية، مقابل هذه الأصوات. وهكذا تكون هناك مصلحة أكيدة في تعبئة كل أفراد الأسرة للمشاركة، حتى إذا كان ذلك دون وعي منهم بالقضايا المطروحة، أو حتى بشخص المرشح في الدائرة.

وبناء على هذه الملاحظات قام المركز بإعداد مشروع للتوعية السياسية والحقوق الانتخابية، يتم بمقتضاه توعية مليون ناخب في اثنى عشر دائرة ريفية، وتسجيل وتوعية حوالي مليون ناخب في عشرة دوائر حضرية، خلال عامين. وأن يتم ذلك من خلال النشرات والملصقات والكتيبات والإعلانات المدفوعة في المدن، ومن خلال الندوات والمؤتمرات والمهرجانات الشعبية في القرى. وإنتاج فيلم تسجيلي للتوعية السياسية يصلح للريف والحضر على السواء. وكان في خلفية إعداد وتنفيذ هذا المشروع أن يكون جزءاً من خطة مراقبة انتخابات ٢٠٠٠.

تمت صياغة المشروع، وإرساله إلى عدد من الهيئات المانحة... وكان أكثرها تحمساً واستعداداً لتمويل المشروع هو المفوضية الأوربية (European Commission). ورغم هذا الحماس وتوفر الأموال، إلا أنها كانت شديدة البطء وشديدة التعقيد في إجراءاتها. فقد تقدمنا بالصيغة الأولى للمشروع إلى مكتب المفوضية الأوربية في القاهرة في يناير ١٩٩٧. وبعد عدة جولات من المراسلات بين مكتب المفوضية في القاهرة، والمقر الرئيسي في بروكسيل، وزيارات متبادلة لهم في القاهرة، ولي في بروكسيل، تم توقيع عقد مفصل، يحصل بمقتضاه مركز ابن خلدون على منحة قدرها ١٥٠.٠٠٠ (إيكو/ يورو/ دولار) من المفوضية الأوربية، تمثل ٧٩% من تكاليف المشروع، على أن يساهم المركز من موارده أو موارد جهات مانحة أخرى بنسبة ٢١%. وكان التوقيع في يوليو ١٩٩٧، ولم يتم تحويل الدفعة الأولى من المنحة إلا في سبتمبر، وبالتالي لم يبدأ العمل جدياً في المشروع إلا في نوفمبر. وكان المسؤول عن تنسيق المشروع الباحث **كريم صبحي**.

كانت العملية الانتخابية في مصر ضمن مسؤوليات وزارة الداخلية، وتتم كل إجراءاتها من خلال أقسام الشرطة ومديريات الأمن بالمحافظات. ولهذه العلاقة

التنفيذية المباشرة مع الجهاز الأمني، ارتبطت مباشرة الحقوق السياسية للمواطنين، سواء كانوا مرشحين أو ناخبين بمشاعر الخوف والشك من العاملين في ذلك الجهاز، الذي لابد من موافقته على كل شيء تقريباً: التسجيل في جداول الانتخابات، التسجيل للترشيح، الحصول على رمز انتخابي، عقد أي مؤتمر جماهيري، أو تعليق أي لافتة، أو ملصق، دخول مراكز الاقتراع، عن الأصوات، وإعلان النتائج.

وكان وما يزال ضمن الإجراءات التعسفية للتسجيل في الجداول الانتخابية، قصرها على شهر واحد في السنة، وهو ديسمبر من كل عام. ولكن نتيجة الضغوط والاحتجاجات مدت وزارة الداخلية من الفترة التي يجوز فيها تسجيل الناخبون الجدد إلى ثلاثة شهور - ديسمبر، ويناير، وفبراير من كل عام... وكان ذلك يعني لجزء كبير من المشروع، تكثيف العمل بشدة في هذه الشهور الثلاثة، وهو ما حدث في أواخر ١٩٩٧، وأوائل ١٩٩٨ - على الأقل في المناطق التي كان يوجد فيها مشروعات أخرى للمركز... مثل إمبابة، وبولاق الدكرور، والدقهلية، وباب الشعرية في القاهرة.

وقد جنّدنا معنا في جهود التوعية عدد من أمناء المركز، وأصدقائه. من ذلك اختيارنا لمحافظة الشرقية لوجود **د.محمود أباظة** فيها - قرية الربعمئة. ومن ذلك الاستعانة بالفنان **محمد نوح**، والفنانة **صفاء جلال** للموسيقى والتمثيل في الفيلم التوثيقي، الدعائي.

كذلك جنّدنا عدداً من أصدقاء المركز - مثل الكاتب **علي سالم**، لإعداد قصة وسيناريو الفيلم، و**د.كمال مغيث**، و**د.أحمد سعد**، و**د.صبحي منصور** وآخرين، كمتحدثين في الندوات والمؤتمرات الجماهيرية.

هيئة دعم الناخبات المصريات

رغم أن هيئة دعم الناخبات المصريات (هدى) كانت مع هذا الوقت قد استقلت في مقر لها بـ١٤ ش الجمهورية، وسط المدينة، وأصبح لها مجلس أمناء منتخب من مؤسسيها، ترأسه الصحفية النقابية **أمينة شفيق**، إلا أن الهيئة ظلت معتمدة على مركز ابن خلدون وعليّ شخصياً لتوفير الموارد المالية لنشاطها. وكنت مع الباحثة النشطة **نجاح حسن** قد أعددنا مشروعاً لنشاط الهيئة لا يختلف كثيراً في خطوطه العامة عن مشروع باسمينا، قبل انتخاب **أمينة شفيق** للرئاسة، نيابة عن هدى إلا بعدد من الجهات المانحة لتمويله.

واستجابت المفوضية الأوربية لطلب التمويل، من حيث المبدأ، ولكن التفاوض معها على شروط التعاقد استغرق ما يقرب من سنة. كانت **نجاح** في

أثنائها قد حصلت على منحة دراسية من المجلس البريطاني للدراسة في لندن لمدة ستة عشر شهراً للحصول علي درجة الماجستير، فوقعت مسؤولية إتمام بقية الإجراءات مع المفوضية الأوربية على كاهلي، كعضو مجلس أمناء وأمين صندوق هدى، وأن **أمينة شفيق** كانت ترتعد من أي تعامل مالي مع جهات أجنبية. فهي من حيث "المبدأ"، كيسارية وعضو بارز في حزب التجمع، ضد التمويل الأجنبي الغربي لأي نشاط وطني، حتى لو كان أهلياً... ولكنها من حيث الممارسة، لا مانع لديها لو حصل أو تفاوض آخرون على هذا التمويل للهيئة التي ترأسها. المهم، أنها لا توقع أي أوراق باسمها وقد اتضح فيما بعد أن هذا الموقف اليساري هو الأكثر "أماناً" لها . مع الدولة التي كان موقفها غامضاً من تمويل المؤسسات الأهلية من ناحية، ومع رفاقها اليساريين، الذين يراوغون ويزايدون على بعضهم البعض من ناحية أخرى...

وكنت من ناحيتي أضيق بهذه الازدواجية، والتي يعبر عنها المثل الشعبي"عين في الجنة، وعين في النار"، ويعبر عنها أولاد البلد بلغتهم الجريئة عن "الأنثى التي تحب النكاح ولكنها تخاف من الحمل"! وكما فعلت قبل سنوات في منتدى الفكر العربي، فقد تعمدت طرح موضوع التمويل دورياً، في مجلس أمناء هدى لأخذ التصويت عليه... وكان الجميع يوافقون بالإجماع على قبول هذا التمويل، بما فيهم **أمينة شفيق**، ولكنها تضيف دائماً قراراً مكملاً، يوافق عليه الأمناء أيضاً بالإجماع، فحواه "على أن يكلف **د.سعد الدين إبراهيم**، أمين الصندوق، بتنفيذ قرار التمويل"... ولم أكن أمانع من ناحيتي، لإدراكي أن أمناء هدى، ليس لديهم خبرة أو مهارة في هذا الصدد، رغم أن المجلس، كان يضم أستاذة في هندسة الطيران ووكيلة سابقة لوزارة الصناعة، وعضوتين سابقتين في مجلس الشعب منهما المحامية **بثينة الطويل** .

وأخيراً جاءت أول دفعة من تمويل مشروع هدى لتوعية ولتسجيل المواطنات، وبنفس الشروط . أي ٧٩% من المفوضية الأوربية، و ٢١% تدبره هدى من مواردها الذاتية أو من مانحين آخرين. واهتدت المحاسبة القديرة **نادية محمد عبد النور** إلى صيغة لتوفير هذا الجزء من التمويل، وهو أن يتنازل كل العاملين في المشروع عن جزء من مكافآتهم "كتبرع" للهيئة، يدخل في مواردها، ويتراكم من هذه التبرعات ما يوازي الـ ٢% التي تمثل مساهمة هدى في المشروع، طبقاً لشروط العقد.

ومضى العمل بجد واجتهاد وحماس منقطع النظير... وكان مقر هدى كخلية النحل، خلال الأعوام ١٩٩٨، ١٩٩٩، والنصف الأول من عام ٢٠٠٠، إلى أن أغلقت هدى مثلما أغلق ابن خلدون، ليلة ٢٠٠٠/٦/٣٠ في القضية

الكبرى التي لفقتها الأجهزة الأمنية، وكما سيأتي الحديث عنها تفصيلاً في موقع قادم من هذه المذكرات.

اشتمل نشاط هدى على ندوات، وورش عمل، ومؤتمرات في الأحياء الشعبية والقرى. وتم تدريب أعداد كبيرة (حوالي مأتين) للمساعدة في تسجيل المواطنات في الجداول الانتخابية، وكانت عملية تسجيل النساء أكثر تعقيداً، وتكلفة من تسجيل الذكور. ففي كثير من الأحياء الشعبية والقرى لم يكن لكثير من النساء شهادات ميلاد، أو بطاقات شخصية، وهما شرطان للقيد في الجداول الانتخابية... لذلك كان على المندوبين أن يقوما بهذه المهام الثلاثة بالتتالي، وكان يصرف لهم وللإناث المرغوب تسجيلهن مكافآت للمواصلات والوجبات حيث أن كل عملية (شهادة الميلاد من خلال طبيب لتقدير العمر) كانت تستغرق يوماً كاملاً. كذلك كان لا بد من دفع إكراميات لصغار الموظفين لتسهيل العمليات الثلاثة. ووضعت **نادية** نظاماً حديدياً، لضبط هذه العملية المثلثة، التي يسهل فيها التلاعب مالياً وإدارياً.

ولأن وزارة الداخلية وأقسام الشرطة كانت قاسماً مشتركاً في استكمال هذه العملية المثلثة الطويلة، ولأن المصريين عموماً والنساء خصوصاً يتوجسن من دخول أقسام الشرطة، فقد ضاعف ذلك من العناء.

جعل التعليم المصري أكثر تسامحاً

كان ضمن التوصيات المتكررة للمؤتمر السنوي للملل والنحل والأعراق، منذ عام ١٩٩٤، ضرورة تنقية مناهج التربية والتعليم من كل ما يحض على الكراهية، أو احتقار، أو ازدراء "الآخر غير المسلم" أو "الآخر غير العربي" أو "الآخر الأنثوي". وكنا فعلاً قد قمنا بفحص مناهج التربية والتعليم المصرية، وحللنا مضمونها، واستخرجنا منها ما يزيد عن ألف مفردة، تنطوي على مثل هذه الكراهية والاحتقار والازدراء في الكتب المدرسية المقررة على التلاميذ في الصفوف الاثنى عشر التي تسبق التعليم الجامعي. وسلمنا نسخة منها للوزير المسؤول في ذلك الوقت، وهو **د.حسين كامل بهاء الدين**.

وكان **د.حسين كامل بهاء الدين** طبيب الأطفال الشهير، عضواً بارزاً في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي، ومنظمة الشباب، والتنظيم الطليعي في الستينات. أي أنه كان أكاديمياً وسياسياً محنكاً. وقد تعرفت به عن قرب في منتصف الثمانينات أثناء الإعداد للمؤتمر التأسيسي للمجلس العربي للطفولة والتنمية... ثم التقيت به على امتداد عدة أيام في خريف ١٩٩٢، في بيروت، حيث كان يحضر مؤتمراً لوزراء التربية العرب، وكنت أنا أحضر مؤتمراً للمحامين

العرب... وتصادفت بإقامتنا في نفس الفندق (الكمودور) بمنطقة "الحمرا"... فكنا نجلس سوياً في المساء، بعد انتهاء الواجبات الرسمية لكل منا... ونتحدث طويلاً عن هموم الوطن المصري والأمة العربية... وكانت تلك هي سنته الأولى كوزير للتربية في مصر... وبالتالي كانت خططه وآماله محل النقاش. وكان قد سمع بدوره عن المشروع الكبير الذي انتهينا منه في منتدى الفكر العربي قبل عام (١٩٩٠)، بعنوان "تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين"... وطلب أن أرسل له دراسات المشروع - حوالي ٢٥ كتاباً - كذلك كانت محاربة التطرف، وسيطرة التيار الإسلامي على المؤسسة التعليمية، والدروس الخصوصية، هي تحدياته الآنية، مُدركاً أن الارتفاع بالمستوى الكيفي للتعليم سيستغرق عدة سنوات.

وتوطدت العلاقة بيننا في السنوات الخمس الأولى له في الوزارة أثناء المواجهة مع التطرف في المدارس - مثل التحريض على عدم تحية العلم، وعدم ترديد النشيد الوطني وحجاب التلميذات في سن مبكرة، بإيعاز من المدرسين والمدرسات من التيار الإسلامي. وكثيراً ما كان يتصل بي طالباً دعمي له بالكتابة في الصحف أو من خلال برنامجي التليفزيوني "بعيداً عن الأضواء". وكنت أستجيب على الفور، فقد كنت ألمس في الرجل إخلاصاً، واقتداراً، وتواضعاً، ونظافة يندر وجوده بين زملائه من الوزراء وكبار المسؤولين الآخرين. وكان ضمن هذه الطلبات في أواخر التسعينات أن يقوم مركز ابن خلدون بمبادرة أهلية لوضع نماذج للمناهج البديلة في مواد اللغة العربية، والتربية الدينية، والمواد الاجتماعية، بعد أن أعيته الحيل في أن تقوم اللجان المختصة في وزارته بعمل ذلك، وعلى نحو ما أشرنا في موضع سابق.

وقد كونا فرقاً لوضع مثل هذه المناهج البديلة بالفعل بدأت عملها في أوائل عام ١٩٩٧، وكان للعمل أن يكتمل في أواخر عام ١٩٩٨، طبقاً لمخطط المشروع، الذي كانت تموله الهيئة الألمانية البروتستانتية.

وكجزء من المشروع، أعددنا لتدريب ستمئة معلم، بمعدل مأتين في كل مرحلة من المراحل الثلاث: الابتدائية والإعدادية والثانوية، على المناهج البديلة، توطئة لقيامهم هم بتجريبها على تلاميذهم.

وأعددنا مقدماً تجربة الاختبارات "القبلية" و"البعدية" (pre- testing post - testing) للعملية قبل التدريب وبعده على درجة الاستنارة والتسامح بينهم. وكنا نعقد ورشة عمل لكل خمسين معلماً ومعلمة، في آخر المنتجعات الهادئة - مثل العين السخنة، والإسماعيلية، ومقر الهيئة الإنجيلية بأطسا بمحافظة المنيا، ومقر جمعية الصعيد الكاثوليكية بالفجالة بالقاهرة، والمركز الإقليمي، للمرأة

بالإسكندرية، لمدة يومين (خميس وجمعة)، حيث يتم الاختيار القبلي، ثم التدريب، ثم الاختبار البعدي. وكانت النتائج مدهشة.

وحدث نفس الشيء بالنسبة للتلاميذ، حيث قام المعلمون الذين تلقوا التدريب بتطبيق جزء من المناهج البديلة على تلاميذهم. وتمت اختبارات قبلية وبعدية، لقياس تأثير هذه المناهج على المعتقدات والاتجاهات والسلوكيات. ومرة أخرى كانت هذه النتائج إيجابية للغاية وفي الاتجاه المطلوب أي أصبح التلاميذ أكثر تسامحاً وإقبالاً للآخر، المختلف دينياً وجنسوياً.

واجهتنا صعوبات شتى في الجزء التجريبي من المشروع. إذ رفضت الوزارة السماح لمركز ابن خلدون دخول مدارسها لتدريب المعلمين والتلاميذ وأعطت أسباب بيروقراطية واهية لذلك. ولم يرد الوزير أن يتدخل مباشرة، حتى لا يفتح على نفسه جبهة إضافية، فقد كانت معاركه مع التيار الإسلامي، والصحافة ومجلس الشعب، وبعض الوزراء قد تزايدت.

المؤتمر الخامس للملل والنحل والأعراق

تعمدنا أن يستمر مركز ابن خلدون في تنظيم مؤتمر سنوي للتحاور حول هموم الملل والنحل والأعراق في الوطن العربي، وأن يكون ذلك في القاهرة وعلى الملأ... رغم الضجة الهائلة التي حدثت حول المؤتمر الأول، عام ١٩٩٤، واستمرار الضجة وإن بشكل أقل في السنوات التالية. وكان يقين العاملين في المركز أن مجرد تنظيم وعقد المؤتمر سنوياً، وفي القاهرة، ودعوة بعض أشد المعارضين للمؤتمر الأول، وقبولهم المشاركة في المؤتمرات التالية، هو في حد ذاته "انتصار" للمركز. هذا فضلاً، عن تكريس وضع مسألة الأقليات على الأجهزة المصرية فيما يخص الأقباط، وعلى الأجندة العربية القومية، فيما يخص أكثر من عشرين أقلية أخرى. وكان جزءاً من هذا التكريس هو نشر كتاب سنوي من الموضوع، وعدة دراسات وترجمات. من ذلك مشاركة المركز مع الجماعة الدولية لحقوق الأقليات في إعداد ونشر وترجمة تقريرين، أحدهما عن الأقباط في مصر ساهمت فيه معي **د.مارلين تادرس** . والثاني عن الأكراد . وساهمت معي فيه الباحثة **أيفيت فايز**. كذلك نشرنا كتاباً للباحث الخلدوني **سامح فوزي**، عن الأقباط والخروج من نفق الطائفية.

هذا كله فضلاً عما تم إنجازه ونشره من مخرجات مشروع التعليم والتسامح... منها كتابان عن تاريخ الأقباط، وعن الشخصيات القبطية المرموقة التي أسهمت في بناء مصر الحديثة . سياسياً (مثل **مكرم عبيد وبطرس غالي**) وثقافياً (مثل **سلامة موسى و لويس عوض**) وفنياً (مثل **شفيقة القبطية ونجيب**

الريحاني وسناء جميل). وأخيراً كانت فكرة مؤتمر ١٩٩٨ أنه المؤتمر الخامس، وأنه يأتي قبيل الاحتفالية بمرور عشر سنوات على نشأة مركز ابن خلدون.

لذلك جاء تنظيمه أكبر من المعتاد في السنوات الثلاث السابقة، وإن كان أصغر قليلاً من المؤتمر الأول في قبرص. دُعي للمؤتمر الخامس عدد كبير من أكراد العراق في مقدمتهم الزعيم الكردي الكبير السيد/ **جلال الطالباني**، رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، وأحد النائبين الكرديين المستقلين ذاتياً في شمال العراق منذ ١٩٩١. كما حضر مندوب عن السيد/ **مسعود البرزاني**، زعيم الحزب الديموقراطي الكردستاني ورئيس الكيان الكردي الثاني المستقل ذاتياً في شمال العراق منذ ١٩٩١. كما حضر من عرب إسرائيل زوجة عضو الكنيست الكاتب الفلسطيني **عزمي بشارة**، وعالمة الاجتماع الحسناء **ابتسام إبراهيم**، وحشد من السودانيين الجنوبيين والشماليين الذين يعيشون كلاجئين في القاهرة، وبالطبع عدد من نجوم الأقباط، مثل **ميلاد حنا**، و**فخري عبد النور**، و**يونان لبيب رزق**.

وكان مثيراً أيضاً أن يحضر ويشارك ويعقب رموز إسلامية مرموقة مثل **د.أحمد كمال أبو المجد**، وأ. **جمال البنا**، وأ. **عادل حسين**، ومن أعلام الليبرالية المصرية **د.سعيد النجار**. حتى الأستاذ **محمد حسنين هيكل**، الذي قاد العاصفة ضد المركز والمؤتمر الأول عام ١٩٩٤، وجهنا له الدعوى، إمعاناً في إظهار الروح الرياضية من جانبنا، وتأكيد رسالة منا أيضاً، أننا مستمرون في مناقشة المسألة، وأنها أصبحت تقليداً مستقراً، حتى لو كره المعارضون.

الاحتفال بالعشرية الأولى لمركز ابن خلدون

أعد باحثو ابن خلدون احتفالية رائعة بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء المركز. وقد تضمنت عدة أنشطة على امتداد ثلاثة أيام في الأسبوع الأخير من شهر مايو.

كان النشاط الأول حلقة نقاشية لتقييم مسيرة ابن خلدون، شارك فيها مجموعة من الأمناء، ومديرو المراكز الشقيقة، ومديرو المركز السابقين (**نعمت**، و**محب**، و**سامي البدراوي**، وآخر مديرة وهي **مروة جودة**)، وعدد من أصدقاء المركز، سواء كانوا مؤيدين أو منتقدين. وقد استغرقت الحلقة النقاشية طوال اليوم. وتخللها غداء للمشاركين كما أقيم معرض لمطبوعات المركز، ومعرضاً للصور، والملصقات التي تجسم نشاط المركز. في سنواته العشر الأولى.

كان النشاط الثاني هو حلقة نقاشية أخرى حول استشراف مستقبل المركز للسنوات العشر التالية: ١٩٩٨-٢٠٠٨. وشارك في الحلقة إلى جانب الأمناء والباحثون، ومديرو المراكز الشقيقة، عدد من ممثلي الهيئات والمؤسسات المانحة، التي مولت مشاريع المركز في عقده الأول . مثل مؤسسة فورد ، والمركز الكندي لبحوث التنمية (ومثله د.**فوزي كشك**)، والمفوضية الأوربية، وممثلين عن سفارات استراليا، وفلندا، وهولندا، والسويد، والدانمارك، والولايات المتحدة (**هيلاري مان**). وكانت معظم التوقعات حول المستقبل وردية، حيث تنبأ معظم المتحدثون باستمرار نحو المركز وازدهاره.

ولكن عدد من المتحدثين، أهمهم د.**محمود محفوظ**، ود.**عبد العزيز حجازي**، ود.**علي الدين هلال**، ود.**عبد المنعم سعيد**، نبهوا إلى خطورة تجاوز المركز لبعض الخطوط الحمراء... وأنه اقترب من ذلك بالفعل في السنوات الخمس الأخيرة . منذ مؤتمر الأقليات وأنه إذا كان المركز، قد عبر تلك العواصف بسلام فليس هناك ما يضمن عبوره لها مرة أخرى... وأنه من المهم أن يكون هناك حوار أو تفاهم مع السلطة، وأن يتم بهدوء ودون صخب، حتى لا تتفاقم الأمور في المستقبل... وأن مركز ابن خلدون بحكم قيادته العلمية الرفيعة هو أول من يعرف طبيعة السلطة في دولة مركزية نهرية، ترفض أن يتحداها أحد . حتى لو كان مركز ابن خلدون و**سعد الدين إبراهيم**.

وكان اليوم الثالث والأخير تكريماً لكل من شاركوا في مسيرة المركز:

. من ناحية أعد المركز كتاباً، يحتوي أسماء كل من عملوا وتعاملوا مع المركز، أفراداً، وهيئات مصرية، وعربية، ودولية. وقد وصل عدد الأفراد أكثر من ١٢٠٠ شخص، والهيئات أكثر من مئة، وعدد المشاريع التي نفذها المركز أكثر من خمسين، وعدد الكتب التي نشرها المركز وحده أو بالاشتراك مع أطراف أخرى أكثر من مئة وخمسين.

. أعد المركز أيضاً شهادات تكريم وميداليات تذكارية بمناسبة العشرية.

. أعد المركز لليوم الأخير في الاحتفالية صواناً كبيراً، خارج مبنى المركز في أرض واسعة خالية في الجهة المقابلة عبر الشارع. وزينت الشارع والمبنى والصوان، بالبالونات والأعلام. ورفعت أعلام المركز، التي يتوسطها شعار المركز الأندلسي، باللون الذهبي على خلفيات كحلي وخضراء، وزرقاء سماوية.

. تبادل أربعة من الباحثين والباحثات تقديم فقرات الاحتفالية، التي دُعي إليها حوالي خمسمئة شخص، بما فيهم زوجات الأمناء، والعاملون السابقون والحاليون بالمركز.

- بدأ الحفل بكلمة ترحيب بالضيوف، وتعبيرات الرضا والامتنان بما حققه المركز، وبما يتمنى ويأمل أن يحققه في السنوات العشر القادمة.
- وكانت الفقرة الثانية هي تكريم الأمناء السابقين الذين رحلوا عن الحياة، وهما د.**إبراهيم حلمي عبد الرحمن**، نائب رئيس الوزراء ووزير التخطيط الأسبق، ود.**يحيي درويش**، أحد القيادات الرائدة للعمل الاجتماعي في مصر، وسلمت شهادتي تكريمهما إلى أرملتيهما. وتلي ذلك شهادات التكريم والميداليات التذكارية لمن سبق لهم العمل في المركز، وتركوه إلى مواقع أخرى.
- ثم غنى الفنان **محمد نوح** أغنيته المؤثرة، التي كان لها تأثير السحر في أعقاب هزيمة ٦٧، وهي "مدد...مدد، شدي حيلك يا بلد".
- ثم وزعت حقائب تحتوي على طبعة أنيقة من مقدمة ابن خلدون، مع مقدمة مني ومن د.أحمد صبحي منصور.
- وانتهى الحفل بوليمة كبرى.

زيارة من مباحث أمن الدولة

في أثناء الفقرة الأخيرة من الاحتفالية، وصل ضابطين من مباحث أمن الدولة، هما العميد/ ؟؟؟ ؟؟؟ و**الرائد ناصر محيي الدين**، وانتظرا إلى أن أعلن فتح البوفيه، اعتذرا عن تناول الطعام، وطلبا أن نترك الضيوف يتناولون الطعام، ونختلي سوياً لعدة دقائق في مكتبي بالمركز... ووافقت.

هنأني الضيفان على الاحتفالية، وخاصة على الحلقة النقاشية التي عقدت في اليوم الثاني عن "المستقبل" والنصيحة التي أوصى بها بعض الأمناء بأهمية تطبيع العلاقة مع السلطة. وابتسمت، ولكن لم يكن ذلك ما أتى من أجله الزائران.

كان جهاز مباحث أمن الدولة قد أرسل خطاباً إلى إدارة الشؤون الاجتماعية بعابدين، يطلب فيها أن توجه رابطة خريجي أقسام الاجتماع، وهي جمعية مسجلة في الوزارة، إلى إقالة **د.سعد الدين إبراهيم** من مجلس إدارة الرابطة. وحينما استلمت الرابطة الخطاب ردت رسمياً على إدارة الرابطة الخطاب ردت رسمياً على إدارة الشؤون الاجتماعية بأن تخبر مباحث أمن الدولة أن مجلس إدارة الرابطة منتخب من الجمعية العمومية للرابطة، وأنها وحدها، التي تملك إسقاط عضوية أي عضو في مجلس إدارة الرابطة... ووقع الخطاب، رئيس الرابطة وهو **سعد الدين إبراهيم**... وفي مقابلة صحفية مع جريدة الأهالي، اليسارية، بمناسبة مناقشة مشروع قانون جديد للجمعيات... وقد صرحت في تلك المقابلة أن الذي يأمر وينهي في أمور العمل الأهلي، ليس وزارة الشؤون

الاجتماعية، كما يظهر في القانون الحالي رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤، والمشروع المقترح، ولكن مباحث أمن الدولة... وذكرت الواقعة الخاصة برابطة خريجي أقسام الاجتماع... وأننا رفعنا قضية بالفعل أمام محكمة القضاء الإداري (مجلس الدولة) ضد وزير الداخلية، ورئيس جهاز مباحث أمن الدولة. والمطالبة بالتعويض والاعتذار... وأن هيئة المفوضين في مجلس الدولة قد أوصى بقبول الدعوى والموافقة على طلبات الدفاع. وتحددت جلسة في الأسبوع الأول من سبتمبر لنظر الدعوى.

وكان غرض زيارة ضابطي أمن الدولة هو أن أتنازل عن الدعوى، حتى لا يضار بسببها زميلهم المسؤول عن إرسال الخطاب لإدارة الشؤون الاجتماعية في عابدين لأنه فعل ذلك خطأ، وأنه أرسل خطاباً آخر لنفس الإدارة، التي أرسلت بدورها إلى الرابطة تطلب عدم الاعتداد بخطابها السابق، الذي يطلب إسقاط سعد الدين إبراهيم من مجلس إدارتها، وأن الرابطة هي التي لم ترد على خطاب التراجع، وبدلاً من ذلك استخدمت الخطابين كمستندات في الدعوى... وأن ذلك سيؤدي إلى توقيع جزاء إداري على زميلهم، وهو "عميد" على وشك التقاعد في العام التالي... وترقيته إلى رتبة "لواء"، وأنه سيفقد الرتبة، بسبب القضية وقد وعدت أن أتنازل عن القضية إذا قام الجهاز برفع اسمي من قائمة المطلوب "ترقب وصولهم" في المطارات والموانئ... وهو ما يؤدي عادة إلى تعطيلي بين نصف ساعة وساعة، كل مرة أعود فيها من الخارج ووعد الزائران أن يفعلا ذلك، في مقابل تنازلي عن القضية. وقد نفذت ما وعدت به وتنازلت عن القضية. ولكنهما لم ينفذا وعدهما... وادعيا بعد ذلك أن المخابرات، وليست أمن الدولة، هي الجهة التي طلبت وضع اسمي في قوائم توقب الوصول"!.

زلزال سكني
من عرابي إلى ميدان النصر

من الأحداث الهامة في عام ١٩٩٨، الإجلاء المفاجئ للأسرة من فيلا ١١ ش عرابي بالمعادي، مساء يوم ٢٩ يوليو.

كانت الفيلا مملوكة لأسرة **بشتلي**، واستأجرتها منهم الجامعة الأمريكية في منتصف الخمسينات بإيجار شهري ٤٥ جنيه... وذلك لأغراض تسكين أساتذة الجامعة، ممن لديهم أطفال... وكانت الإيجارات السكنية من عام ١٩٥٨ تعتبر أبدية بحكم القانون فظلت الجامعة حائزة إيجارياً لهذه الفيلا، إلى أن قررنا أن ننتقل من ٨ ش السلاملك في جاردن سيتي إلى المعادي... وكانت المرحومة

مادلين لامونت، زوجة العميد **(توم لامونت)** وصديقة **باربارا، هي** التي أقنعتها بالانتقال، وهي التي رشحت هذه الفيلا بالذات.

وتغيرت قوانين الإسكان في عام ١٩٨١، بحيث سمحت لأصحاب العقارات أن يستردوها من مستأجريها، إذا احتاجوها أو طلبوها لسكانهم أو لذويهم، إذا أثبتوا أن المستأجر نفسه يملك عقارات سكنية أخرى في نفس المدينة.

وكانت أسرة **بشتلي** قد هاجرت إلى كندا، وباعت الفيلا لأستاذ في كلية الطب **(د. حازم تركي)** الذي حاول استردادها من الجامعة دون جدوى، فباعها بدوره إلى أسرة من أصول لبنانية كانت قد اشترت الفيلا المجاورة قبل عدة سنوات... وتجنب فرصة إخفاق **حازم تركي** في إجلاء الجامعة، ففرضت عليه ثمناً مرتفعاً، بمعايير تلك الأيام. فبينما اشتراها هو بخمسين ألف دولار من وكيل أسرة **بشتلي** قبل خمس سنوات، عرضوا هم عليه مئة ألف دولار، سال لها لعابه. وبدأت أسرة رجال الأعمال اللبنانية إجراءات قانونية في المحاكم لإجلاء الجامعة... وكانت حبال صبرهم طويلة، واستعانوا بفريق ماهر من المحامين... الذين أثبتوا أن للجامعة عقارات سكنية مملوكة، لا فقط في القاهرة ككل، ولكن أيضاً في المعادي ذاتها... فكسبوا الجولة الأولى، واستأنفت الجامعة، وخسرت، وطعنت الجامعة في محكمة النقض... ولكن الأسرة اللبنانية لم تنتظر حكم النقض، واستغلت مادة في القانون تقضي بجواز تنفيذ حكم الاستئناف، حتى لو قُدِّم فيه طعن في محكمة أعلى... فأتوا بقوة من شرطة قسم المعادي بعد الرابعة من مساء يوم خميس... وهم متأكدون أن قضاة وقف التنفيذ، سيكونوا قد غادروا مكاتبهم، وأن اليوم التالي عطلة نهاية الأسبوع... وأعطتني قوات الشرطة ومعهم المحضر، وصورة من حكم محكمة الاستئناف وأحد أفراد الأسرة اللبنانية ست ساعات لترك الفيلا، وأخذ متعلقاتي.

اتصلت بالمحامين **(أحمد عبد الحفيظ)** ومكتب إسكان الجامعة وأمن الجامعة... وأتوا جميعاً... ولكنهم لم يستطيعوا وقف أمر تنفيذ الحكم... فبدأت فرق كاملة تعمل في حزم متعلقاتنا الأسرية الهامة تحت إشراف ابنتي **راندا** وصديقاتها، وأصدقاء **أمير**، وصهري **نبيل**، والشغالة **منى** والجنايني **صالح**، وجارتنا عبر الشارع زوجة المهندس **مروان**... كانت **باربار** في الولايات المتحدة وكان **أمير** في محاضراته المسائية... في الجامعة الأمريكية، التي عاد إليها للحصول على ماجستير في إدارة الأعمال... ووصل الفيلا شبه الخاوية حوالي التاسعة مساء... واهتز للمشهد، ولكنه استوعب ما حدث، وحافظ على هدوء أعصابه ورباطة جأشه.

كان لدى الجامعة الأمريكية مبنى سكني به ثلاثين شقة لسكن الأساتذة في حي دجلة المجاور... وعرضوا أن أقيم مؤقتاً في أحد هذه الشقق، وهو ما حدث... ولم آخذ معي إلى هذا المأوى المؤقت إلا بعض متعلقاتي الشخصية...

وفي حوالي العاشرة مساء، تذكرت أنني مدعو إلى فرح باحث سوداني بالمركز... ولأنه وعروسه كانا لاجئين... فقد كان يعني حضوري لعرسهما الكثير... أخذت دشاً بارداً... وغيرت ملابسي، وتوجهت إلى العرس، حيث وصلت مع الزفة في العاشرة والنصف... كان معظم العاملون في ابن خلدون في العرس... واستقبلت الجميع بحرارة... وقضيت معهم ساعتان هم لا يعرفون شيئاً عن الزلزال السكني الذي حدث لي ولأسرتي في الساعات الست السابقة... حيث لم يظهر تأثير الزلزال على وجهي أو مظهري... قضيت أمسية سعيدة مع سهرة عرس سودانية صاخبة... أنستني الزلزال وتوابعه.

وعدت إلى الملجأ المؤقت... ونمت نوماً عميقاً... وفي اليوم التالي لم أشعر أنني افتقدت الفيلا التي عشت فيها مع أسرتي واحدا وعشرين عاماً، هي ثلث عمري، وكل عمر أولادي. وكلها ذكريات هامة، معظمها جميلة... وأدركت أن الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي هو "البشر" وليس "الحجر"!.

وحينما وصلت **باربارا** من الولايات المتحدة، استقبلتها في المطار لأخبرها تدريجياً، وأعدها للوضع السكني الجديد... ولدهشتي وجدت أنها قد عرفت بما حدث... فقد اتصلت يوماً بتليفون فيلا عرابي، على إخلائنا عنها بأسبوع، ورد عليها أحد الحراس الذين تركهم صاحب المنزل الجديد... فاتصلت **راندا**، وعرفت الحقيقة، وإن لم تكن بتفاصيلها... ولدهشتي كانت أكثر اهتماماً وشوقاً للتأكد من صحتنا أنا و**أمير** و**راندا** و**نبيل**، ورؤية حفيدتها **لارا**... كنت قد ملأت الشقة بالزهور، وحاولت أنا و**راندا** و**أمير** و**منى** جعل المكان جذاباً... وقد نجحنا في ذلك... أو على الأقل تظاهرت **باربارا** بحبها للمكان، وعدم اعتراضها على البقاء فيه... لم نكن قد أقمنا في شقة بمصر منذ عام ١٩٧٧... لذلك فبعد أسبوع بدأت هي و**أمير** و**راندا** البحث عن فيلات للإيجار أو البيع وبعد شهر تقريباً... استقر رأيهم على فيلا ضخمة، تملكها أسرة المرحوم **د.محمد حسن الزيات**، وزير الخارجية الأسبق، وصهر عميد الأدب العربي **طه حسين**، والذي أقام فيها مع ابنته **أمينة**، إلى أن توفاه الله فيها بعد حرب أكتوبر بثلاثة أيام. استأجرنا الفيلا من كريمتي صاحبها **منى ونادية**، التي اتضح أنهما كانتا تلميذتين لي في الجامعة الأمريكية منذ أكثر من عشرين سنة... كانت الفيلا مهجورة لأكثر من سنة... لذلك قمنا بإعادة ترميمها وتأهيلها للسكن... وأصبحت محل إعجاب كل من يزورنا فيها... كانت الفيلا تطل على ميدان النصر بحي

دجلة، وملاصقة لحديقة كلية النصر، التي ذهب إليها **أمير** لعدة سنوات قبل أن ينتقل إلى ؟؟؟ والطريف أننا تعودنا عليها بسرعة، ولم نعد نفكر أو نشعر بالحنين لفيلا ٨ ش عرابي... فسبحان مغير الأحوال!.

عيد ميلادي الستين، وثورة زوجتي

في ١٩٩٨/١٢/٣، وصل عمري إلى الستين... وكانت مفاجأة العاملين في المركز احتفالاً بالمناسبة، هي حفل كبير حضره الأمناء وأصدقاء المركز... وكذلك تخصيص عدد ديسمبر من نشرة المجتمع المدني بالعربية والإنجليزية، للإشارة بالمناسبة.

واتضح أنهم قاموا برحلة إلى قريتي، وقابلوا عدداً كبيراً من أهلي في بدين، ثم في المنصورة، ومن زملائي في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكذلك من الذين رافقني في رحلة دراستي الأمريكية... وكما قابلوا أو استكتبوا عدداً من الشخصيات العامة... كما أدلوا هم أنفسهم بشهاداتهم حول خبرة العمل في مركز ابن خلدون. وحصلوا أو نقبوا على عدد من الصور الشخصية أو مع آخرين في مناسبات مختلفة، في مراحل مختلفة من حياتي.

ونتج عن هذا كله مادة غزيرة، استخدموا بعضها في عددي "المجتمع المدني" العربية، والـ civil society بالإنجليزية.وكان العددان مسرفان في المديح والإشادة، ولكن العدد العربي كان الأكثر إسرافاً.

ولم يكن ذلك من تقاليد وممارسات المركز... حضرت **باربارا** احتفالات عشرية ابن خلدون بصفتها كعضو مجلس أمناء المركز، وكزوجتي... وحين حضرت احتفال عيد ميلادي في المركز، ورأت نشرة المجتمع المدني الإنجليزية، وعبرت عن صدمتها وقرفها مما اعتبرته إسفافاً وسباقاً في النفاق من الباحثين في المركز... ووبخت محرر النشرة الإنجليزية **حازم سالم**... ووبختني على السماح أو التسامح مع المساعدين الذين اقترفوا هذا الأمر، وأن المركز بهذا الشكل قد انحدر إلى مؤسسة من مؤسسات العالم الثالث، بدلاً من أن يظل طليعة للحاق بالعالم الأول، وتساءلت عن الفارق الذي بقي بين ما يصدر عن مركز ابن خلدون والمطبوعات الحكومية الباهتة التي لا تكف عن امتداح الرؤساء، وتتملق كبار المسؤولين؟.

لم أر في حياتي الزوجية، خلال سبعة وعشرين عاماً، لحظات أو مشاهد غضب كثيرة من زوجتي... فهي نموذج في ضبط النفس، والسيطرة على المواقف المتوترة... ولكنها في ذلك اليوم غضبت وثارت... وحمدت الله أنها لا تجيد العربية قراءة، وإن كانت تتحدثها، وإلا كانت صدمتها أشد، وقرفها أقوى.

فإذا كانت نشرة civil society، قد أسرفت قيراطاً في امتداحي أو تملقي فإن النشرة العربية (المجتمع المدني) قد أسرفت أثنى عشر قيراطاً.

في مساء نفس اليوم، كانت الأسرة قد أعدت لاحتفال عائلي بعيد ميلادي الستين... أطفأت ست شمعات، وصالت حفيدتي **لارا** وجالت في طورطات عيد الميلاد... وأخذنا لها عشرات الصور، ووجهها يسيل بالشيكولاتة... وفي غرفة نومها، اعتذرت **باربارا** على إسرافها في نقد النشرة ومحرريها... وقبلت اعتذارها!

الاحتفال بالوحدة الوطنية
١٩٩٨/١٢/٣٠

تزامن شهر ديسمبر في بعض منه مع شهر رمضان الكريم... وفي السنوات الأخيرة كثرت "موائد الرحمن" التي يقيمها الأغنياء للفقراء، و "موائد الوحدة الوطنية"، التي يقيمها الأقباط للمسلمين، أو يقيمها المسلمون ويدعون إليها الأقباط. كان التقليدان جميلين، ويعكسان "التراحم" و "التسامح" في المجتمع المصري... وكان الحس الجماعي اللاشعوري قد استشعر في السنوات الأخيرة أن "الفجوة" الطبقية بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء قد اتسعت بشكل يهدد السلام الاجتماعي، وأن "الجفوة" بين المسلمين والأقباط قد اشتدت... وكانت لموائد الرحمن، ولموائد الوحدة الوطنية، ردود فعل تلقائية رمزية، لهذه الفجوة وتلك الجفوة. وكان أشهر هذه الموائد هي تلك التي يقيمها البابا **شنودة** في المقر البابوي بالكندرائية المرقسية، ويدعو إليها علية القوم من الشخصيات الحكومية والعامة. وكان يدعوني إليها كل عام، منذ عام ١٩٩٤، ويتعمد أن أجلس معه على المائدة الرئيسية، كما لو كان يريد أن يردّ لي الاعتبار، أو يعتذر عن موقفه "المائع" من مؤتمر الأقليات. كذلك كان من تلك الموائد الرمضانية الشهيرة تلك التي يقيمها المرشد العام للإخوان المسلمين، الشيخ **مصطفى مشهور**، ويدعو إليها بجذم المجتمع القبطي والمسلم على السواء، ويحرص أيضاً على دعوتي، وإجلاسي على المائدة الرئيسية.

وكنا في مركز ابن خلدون نقيم إفطاراً رمضانياً حافلاً كل عام في مقر المركز، وندعوا إليه أصدقاء المركز من مسلمين وأقباط، وكان من كبار الأقباط الذين يداومون على حضور إفطارنا، الأسقف الودود الأب **موسى**، أسقف الشباب، وكذلك القس المتمرد، الأب **إبراهيم عبد السيد**.

ولكننا في عام ١٩٩٨، دعونا إلى إفطار وسحور في مركب عائم، هو هابي دولفين، وقد رأينا أن نحتفي "بالوحدة الوطنية" في أمسية رمضانية ممتدة - تبدأ بالإطار، في الساعة الخامسة والنصف، وتنتهي بالسحور في الثانية عشرة

والنصف. ويتخللهما عرض لأهم نتائج مشروع التعليم والتسامح، الذي أنجزه المركز، خلال السنتين الماضيتين.

ودعونا أمناء المركز لاجتماع عمل يسبق الإفطار، ويستمر أثناءه، لمناقشة أحوال المركز عموماً. ودعونا أيضاً **د.حسين كامل بهاء الدين**، وأقطاب وزارته، والباحثون المسلمون والأقباط الذين شاركوا في المشروع وأعدوا المناهج البديلة، وحشد كبير من القيادات القبطية الكنسية والإسلامية والإعلامية. اعتذر الوزير عن حضور الإفطار، حيث يحرص على تناوله مع أسرته فقط، على أن يأتي في تمام السابعة، وإلى موعد السحور. وهو ما كان... وقدمنا عروضاً مختصرة لأهم نتائج ومخرجات المشروع... وعلق عليها عدد من التربويين المتخصصين بالنقد والتقييم، وتحاور حولها عدد كبير من المدعوين... ثم تحدث الوزير في الساعة الأخيرة، وكانت كل دراسات المشروع قد أرسلت إليها قبل الأمسية بأسبوعين... فعبر عن شكره، وإعجابه، وانبهاره بالمشروع، وأنه لم يكن يتوقع حين أوصاني بأن يقوم مركز ابن خلدون بمبادرة المناهج البديلة، أن المركز سينفذها بهذا الاقتدار والاكتمال... ثم قدم بعض ملاحظات نقدية ناقبة... ووعد بأن تقوم الوزارة بتبني ما يمكن تبنيه، بعد عرضه على اللجان المختصة. وتم تسجيل هذه الأمسية التاريخية كاملة بالفيديو. كانت الليلة هي الثلاثين من ديسمبر.

الحملة الصحفية الجديدة
في الصحف الإسلامية والمباحثية
عن مشروع التعليم والتسامح

بمجرد انتشار أخبار الأمسية الرمضانية الخلدونية، ومشروع التعليم والتسامح، وحضور وزير التربية... وتسرب بعض دراسات المشروع، افتتحت على المركز والمشروع والوزير حملة شعواء من صحيفة "عقيدتي" التي تصدر عن الجمهورية (**سمير رجب**)، والشعب (لسان حال حزب العمل)، والأسبوع (مباحثية مستقلة)، وروزاليوسف (حكومية مباحثية) وصحيفة أسبوعية تحمل اسم "الأزهر"، ويرأس تحريرها جمال بدوي، ويكتب فيها الكاتب الإسلامي **محمد عمارة**.

كان واضحاً أن الهجمة في هذه المرة دينية ـ إسلامية، رسمية وانصب الهجوم على أربعة محاور.

ـ أن المناهج البديلة التي يقترحها مشروع ابن خلدون يضعف التربية الدينية الإسلامية ويميعها بدعوى غرس قيم التسامح.

ـ أن المركز (ابن خلدون) "علماني" النزعة، ولا ينبغي له التصدي للكيفية التي تتم بها التربية الدينية لأبنائنا.

ـ إن هناك أيدٍ أجنبية، أمريكية وصهيونية، وراء المشروع لإضعاف الثوابت التي تقنعهم بها الأمة، بدعوى نشر وتكريس ثقافة السلام، وقبول "الآخر"، حتى لو كان يهودياً إسرائيليا.

ـ أن وزير التربية والتعليم يُلام، وينبغي أن يستقيل، لأنه سمح لمركز ابن خلدون أن يلعب "بثوابت الأمة"، وأن على القوى الوطنية الحريصة على بلدها، والقوى الإسلامية، الغيورة على دينها، أن تتضامن لإسقاط هذا المشروع الخلدوني الخبيث، كما أسقطت مؤتمر الأقليات من قبل.

ومجلس الشعب ينضم إلى الحملة

وأثار عدد من النواب القضية، وقدموا بشأنها طلب استجوابات لوزيري التربية والأوقاف حول المخطط المشبوه لمركز ابن خلدون. لم نكن قد تعاملنا مع وزير الأوقاف **د.محمد حمدي زقزوق**، أبداً... ولكن نُقل عنه، حقيقة أو كذباً، تصريحات عدوانية ضد مركز ابن خلدون، ولأنه فيما سمعته عنه ومن أحاديثه وكتاباته، كان يبدو رجلاً مستقراً، ولذلك استغربت أن تنقل عنه مثل هذه التصريحات، وتوقعت أن ينفيها، خاصة وأنه لم يطلع على الدراسات التي أعدها مركز ابن خلدون ضمن مشروع التعليم والتسامح... فكيف له وهو أستاذ جامعي، تلقى تعليمه وحصل على الدكتوراه في الفلسطينية الإسلامية من الجامعات الألمانية، المعروفة بصرامتها المنهجية ودقتها العلمية أن يصدر هذه التصريحات غير المسؤولة؟.

أما صديقنا **د.حسين كامل بهاء الدين**، وزيرا التربية، فقد حاول أن يمشي على سلك رفيع في الهواء، دون أن يسقط... فصرح أن "الوزارة" لم تطلب من مركز ابن خلدون أن يقوم بإعداد مناهج بديلة، وأن الوزارة لها آلياتها ولجانها المختصة والمتخصصة لإعادة النظر والمراجعة الدورية لكل المناهج في كل المواد... وأنها مع ذلك ترحب بأي مقترحات تأتيها من أفراد، أو مراكز بحثية، أو جمعيات أهلية مهمومة بقضايا التربية والتعليم في مصر... وأنه استحدث إدارة في وزارته للعمل مع منظمات غير الحكومية... كان الرجل صادقاً في كل ما قال فالوزارة لم تطلب شيئاً من ابن خلدون. ولكن الوزير هو الذي كان قد طلب شفوياً!.

مواجهة مع روزاليوسف

كان عدد من الصحفيين في روزاليوسف قد تخصصوا في الهجوم على مركز ابن خلدون عموماً، وعلى شخصي خصوصاً. ولأن روزاليوسف هي مجلة ذات ماضٍ عريق في الصحافة المصرية، كنموذج للنقد الساخر والهادف، فإنني كنت أحمل لها كثير من التقدير... بل إنني كنت أكتب فيها مقالاً أسبوعياً دورياً في فترة من الفترات.

كذلك كنت أحرص على الرد على كل ما تكتبه روزاليوسف وكانت هي بدورها تنشر هذه الردود كاملة أو مختصرة، وإن يكن في أماكن وبعناوين لا يلاحظها إلا القارئ والمدقق... وكانت دائماً تعقب على الرد، حتى تكون لها الكلمة الأخيرة ونادراً ما كانت روزاليوسف تعتذر عن، أخطائها أو إهاناتها، إلا إذا كان ذلك بأمر من المحكمة. وقد نوهت في مكان سابق من هذه المذكرات (راجع عام ١٩٩٧) عن أحد هذه المرات حينما ادعت المجلة أنني كنت أحد مهندسي مبادرة كوبنهاجن للسلام... وثبت خطأها، حيث كنت في رحلة أسيوية في الطرف الآخر من العالم!.

كذلك كان رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الوافد للمؤسسة من الأهرام على خلاف مع معظم المحررين، الذين اعتبروه لعدة سنوات دخيلاً عليهم، وأكثر محافظة وحكومية منهم. وقد لاحظ هو أن محرريه متحاملون على مركز ابن خلدون أكثر من اللازم... وانتهز فرصة لقاء في حفل استقبال أحد السفارات ليستفسر هو نفسه عن خلفية هذا التحامل... لم أخبره عن علاقتي الودية القديمة بروزاليوسف، وإنني كنت أكتب فيها دورياً، اقترح عقد حوار بين باحثي ابن خلدون ومحرري روزاليوسف، ورحبت بالفكرة. وفي ربيع ذلك العام عقد حوار دام أربع ساعات بمقر المجلة.

وقد رحب رئيس التحرير بنا وتحدث عن خلفية هذا الحوار، وأنه يرجو أن يكون هذا اللقاء، بداية لممارسة أو تقليد جديد، بين روزاليوسف وهيئات المجتمع المدني المصري. ورددت عليه بالشكر على دعوته الكريمة وعبرت عن تقديري لروزاليوسف ودورها التاريخي المستنير في الحياة السياسية والثقافية المصرية، وأن الأرضية المشتركة بين ابن خلدون وروزاليوسف هي أكبر منها مع أي دار صحفية أخرى. ومن هنا كان ألمنا لتحامل بعض محرريها، وعتابنا عليهم، واستعدادنا للحديث عن أي شيء يحبون الاستشار أو الحديث أو المساجلة بشأنه، فليس لدينا ما نخافه أو نخيفه... وأنني سأترك الباحثين هم الذين

يردون... ولن أتدخل إلا إذا سُئلت شيئاً يخصني أو يعجز الباحثون عن الرد عليه.

وكانت الساعة التالية للحوار متوترة من الجانبين... ولكن حينما اتضح لمحرري روزاليوسف أن أصغر باحث وباحثة في المركز له الحرية الكاملة ولديه القدرة على مقارعة أكبر محرريهم، بدأ التوتر يزول تدريجياً. وقد فوجئوا بسؤال من أحد باحثات ابن خلدون المسيحيات (**ماري جورج**) عن نسبة النساء في المجلة، وعن نسبة المسيحيين، ولماذا لم تدعي أي محررة (امرأة) أو أي مسيحي للحوار من جانب روزاليوسف؟ ولم يكن هناك رد مقنع. ولكن باحثة ابن خلدون استخدمت ذلك كمدخل للحديث عن قضايا الأقليات والتعليم والانتخابات والتمويل، والعلاقة بالدولة، وبالخارج، وإسرائيل. ثم تحدث أكبر الباحثين عمراً، وهو د.**أحمد صبحي منصور**، وهو مفكر إسلامي أزهري... ونوه بالحرب والانفتاح والتسامح الذي وحده في ابن خلدون، ولم يجد مثيلاً له في أي مكان آخر في مصر... وكيف وصل من الأزهر الذي لم يتحمل اجتهاداته غير التقليدية، والتي تنشر روزاليوسف بعضها أحياناً... وتحدث بعده الماركسي **سليمان شفيق**، ونوه بنفس الشيء ولم يجد نفس مساحة الحرية في البحث والتعبير إلا في حزب (التجمع) ولا في صحيفته (الأهالي) ولا في كنيسته، مثلما وجدها في ابن خلدون... وتحدث **أشرف بيدس** عن ضيق مصر ومؤسساتها الرسمية به كإنسان ولد لأم مصرية في مصر، ولكن لأب فلسطيني... وكيف أن ابن خلدون هو الذي فتح له أبواب الفرص للتعلم والعمل وحرية التعبير. وكما تكلمت **ماري** عن موضوع الأقليات، و**أحمد صبحي منصور** عن مشروع التعليم والتسامح، و**سليمان شفيق** عن الانتخابات، تحدث **أشرف بيدس** عن إسرائيل والتطبيع والدور الذي لعبه كفلسطيني في حسم الكفة لصالح الحوار مع اليسار الإسرائيلي في مركز ابن خلدون بعد أوسلو.

وأجبت أنا على كل الأسئلة الخاصة بالتمويل الخارجي، وحجمه (اقل من ربع مليون دولار سنوياً) وجدول المرتبات والمكافآت، والوضع القانوني للمركز (كشركة مدنية) وما ندفعه من ضرائب.

اختفى التوتر تماماً مع الساعة الثالثة للحوار، وكانت الساعة الأخيرة تبادلاً للآراء، أكثر منها ؟؟؟ بين جانبين يجلسان حول مائدة مفاوضات... شكرناهم وانصرفنا ونحن أشبه بالأصدقاء... وقد نُشر الحوار في معظمه، وبدرجة معقولة من الدقة، في الأسبوع التالي في روزاليوسف. لقد كان المشهد مكسباً للفريق ولمصر.

قانون جديد للجمعيات

كان أحد التحديات الرئيسية أمام انطلاق العمل الأهلي وانتعاش المجتمع المدني، وجود قانون عقيم يكبل حركتيها، وهو القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤. وكان هذا القانون واحداً من عدة قوانين استحدثتها ثورة يوليو لأحكام سيطرة الدولة على المجتمع المدني، مثل الأحزاب، والنقابات، والتعاونيات، وأخيراً الجمعيات. ولأن هيئات المجتمع المدني تقوم أساساً على الإدارة الحرة والعمل التطوعي، فإن القوانين - أي قوانين - تحد من الحريات أو تقيدها فإنها تؤدي أوتوماتيكياً إلى الحد من العمل التطوعي. وقد كان القانون ٣٢ نكبة على العمل التطوعي وعلى الجمعيات، في المئة والأربعين سنة، التي بدأ فيها إنشاء الجمعيات منذ تأسست أول جمعية في الإسكندرية عام ١٨٢١، وهي الجمعية اليونانية، لرعاية أبناء الجالية في المدينة... وسرعان ما انتشرت هذه الجمعيات، وخلال قرن من الزمان كان قد نشأ وصلب عود مجتمع مدني تُباهى به مصر الأمم.

لذلك ناديت، مع آخرين منهم المحامي **أمير سالم**، بضرورة تعديل أو إلغاء هذا القانون، والعودة للقانون المدني الذي اجتهد **عبد الرازق السنهوري**، أبو القانون المصري الحديث، في صياغته، وتم إقراره عام ١٩٤٨، وهي نفس السنة التي أقر فيها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وظلت هذه المحاولات بلا جدوى لأكثر من عشرين عاماً، هي مدة بقاء **د.آمال عثمان** وزيرة الشؤون الاجتماعية، وقد كانت مدة توليها الوزارة أطول مدة تشغله وزيرة في تاريخ مصر الحديث... ولم يكن هناك أمل طالما ظلت هذه السيدة في كرسي الوزارة، حيث يبدو أنها بحسها البيروقراطي أدركت أن الجهات الأمنية لا تريد تغيير هذا القانون، أو أي قانون آخر... كذلك كانت شخصيتها من النوع الذي لا يبادر بأي جديد، خوفاً من الخطأ أو استعداء أي أطراف أخرى. فظلت بلا "أخطاء" ظاهرة، لأنها كانت خاملة لا تعمل... ومن لا يعمل، لا يخطئ في عام البيروقراطية المصرية العتيدة.

ولذلك حينما عينت السفيرة **ميرفت التلاوي**، وزيرة للشؤون في عام ١٩٩٧، تجدد أملنا في تغيير القانون، وكانت علاقتي بالوزيرة الجديدة أفضل كثيراً من سابقتها، ولذلك بدأت سعياً مبكراً لتغيير قانون الجمعيات، وحشدت لهذا الهدف دعماً من الصحافة ومن عدد من القيادات النسائية المصرية، في مقدمتهم السيدة الأولى، ود.**أمينة الجندي**، والمحامية **منى ذو الفقار**، والقانوني الضليع **د.فتحي نجيب**. واستجابت الوزيرة فعلاً، وكونت لجنة استشارية لإعداد مسودة

مشروع قانون جديد... وعملت اللجنة بحماس منقطع النظير... وعرضت المسودة الأولى لنقاش، تعرضت فيه للنقد والتمحيص... وأعيدت الصياغة، وجاءت المسودة الثالثة كمشروع قانون، يلبي تسعين في المئة من الاجتماعيين والمهمومين بإنعاش المجتمع المدني ـ من حيث المرونة في تأسيس وشهر الجمعيات، وهامش الحرية المتاحة في تحديد أوجه النشاط والتمويل، وعدم جواز حل الجمعية إلا بحكم من المحكمة المختصة.

ولكن حينما عرض المشروع على مجلس الوزراء، اختفت معظم هذه المزايا الجديدة، وانخفض التحسن الذي أدخل على قانون الجمعيات إلى ٦٠%، ثم عرض المشروع على مجلس الشعب، خلال ٢٤ ساعة من خروجه من مجلس الوزراء، فأعمل فيه بشرطه، وحذف نصف ما تبقى من مزايا مشروع قانون استغرق حوالي ثلاث سنوات، وكان نموذجاً في المشاركة الشعبية على أوسع نطاق، ثم تشويهه في ثلاثة أيام، فأتى مسخاً، ولم يختلف كثيراً عن المشروع القديم (رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤).

وأصيب الذين عملوا في لجنة صياغة القانون، أو آلاف الجمعيات والصحفيين ـ الذين شاركوا في مناقشته في ثلاث جولات ـ بالإحباط الشديد بسبب إهدار جهودهم وتخييب آمالهم... ونصب غضب بعضهم على الوزيرة **ميرفت التلاوي**، التي أسرت لي، ولبعض أعضاء لجنة الصياغة، أنها هي نفسها قد جاءت بما طرأ على المشروع الأصلي من تشويه... أن رئيس الوزراء شكرها على المشروع، وقال لها أن مهمتها قد انتهت بعرض المشروع على مجلس الوزراء... وأن لجنة فرعية مكونة من وزير الداخلية ووزير الدولة لشؤون مجلس الشعب ووزير العدل، ستأخذ ملاحظات مجلس الوزراء، وتعيد صياغة المشروع في ضوئها قبل تقديمه لمجلس الشعب... وهكذا كانت الوزيرة معزولة تماماً خلال الأيام الثلاثة التي سبقت إصدار المشروع... وأنها لا تقل حزماً وإحباطاً عما حدث لمجهود ثلاث سنوات.

وثارت زوبعة في الخارج على إصدار القانون، الذي كانت تتابعه العديد من المنظمات الدولية والحقوقية، من البنك الدولي، لمنظمة العفو الدولية، كالمفوضية الأوربية لحقوق الإنسان! صدر القانون تحت رقم ١٥٣ لسنة ١٩٩٩.

١٩٩٩
الرحلة الرئاسية للولايات المتحدة

بعد صدور قانون الجمعيات الجديد بأسبوعين، حضرت السيدة **ماري روبنسون**، مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان لحضور الاحتفال

باعتراف الحكومة المصرية بالمنظمة العربية لحقوق الإنسان، وتوقيع برتوكول بهذا المعنى... وقد دُعوت إلى الاحتفال بصفتي مؤسساً، وأول أمين عام للمنظمة العربية... وفوجئت مفاجأة سارة، لا فقط بالحدث وبحضور السيدة **رونيسون**، (وهي رئيسة وزراء أيرلندا السابقة)، ولكن لأنها أشارت في كلمتها (في الاحتفال الذي أقيم بفندق هيلتون في النيل) أن القلق يساورها ويساور منظمات المجتمع المدني في العالم، بسبب قانون الجمعيات الجديد في مصر، والذي أتى قاصراً عن التوقعات والآمال التي عقدها العالم على قيام مصر بدور رائد في قيادة المنطقة كلها إلى مزيد من الديمقراطية والسلام. وانفجرت القاعة بالتصفيق. فأردفت هذه السيدة الشجاعة، أنها تنوي في لقائها المرتقب غداً مع الرئيس **حسني مبارك**، أن تثير هذا الموضوع، فالديموقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني، أصبحت من القضايا الكونية العامة... ولم تعد شؤوناً داخلية، تتخفى وراء ادعاءات "السيادة الوطنية"، وانفجرت القاعة بتصفيق حاد للمرة الثانية.

وكان من المقرر أن يغادر الرئيس **مبارك** إلى الولايات المتحدة في غضون عشرة أيام للزيارة السنوية... وأتاني **د.أسامة الباز**، في منزلي صباح اليوم التالي، وكان قد انتقل مع زوجته الثانية (**أميمة**) إلى سكن لا يبعد كثيراً عن فيلاتنا في ١ ميدان النصر... كنت في مكتبي في البدروم، حينما أتى **صالح** الجنايني ليخبرني أن **د.أسامة** يجلس في الحديقة... أسرعت إليه... وبعد تبادل التحيات... قال "إيه موضوع قانون الجمعيات هذا؟ ولماذا يهتم به العالم خارج مصر؟" شرحت له حكاية القانون ومشروع تعديله الذي شوهه مجلس الوزراء والشعب، والغضب الداخلي والخارجي، كوجه "مشرق" من وجوه العولمة! فعلق بطريقته "مشرق"؟ مشرق إيه يا أخويا؟... المهم هل تعتقد أن هذا الموضوع سيثار أثناء زيارة الرئيس للولايات المتحدة؟ وإذا أثير... فبماذا تنصح أن يكون الرد؟" اقترحت أن يكون الرد كالآتي: "إن أي قانون لابد أن توجد به ثغرات وعيوب... وهذا ينطبق على قانون الجمعيات... كما على غيره من القوانين . وأن لدينا صمام أمان في اللائحة التنفيذية للقانون، والتي يمكن خلالها سد بعض الثغرات... وفي كل الأحوال إذا ثبت خلال السنوات القليلة القادمة أن القانون معيب فعلاً، فإننا سنقترح تعديله أو تغييره كليةً.

كان **أسامة** يسجل ملاحظاتي... ويبدو أنه اقتنع بها واقنع رئيسه بها... فقد سمعت **الرئيس مبارك** يردد في مؤتمراته للصحيفة بالولايات المتحدة نفس الإجابات وتقريباً بالحرف... وكانت **ميرفت التلاوي**، وزيرة الشؤون الاجتماعية

سعيدة بهذه الإجابات، حيث اعتقدت أنها تعطيها هامشاً معقولاً من الحركة لإصلاح ما أفسدته الأجهزة الأمنية في مشروع القانون الذي كانت هي واللجنة قد أعدته ولكن ذلك لم يتحقق، بل أنها هي نفسها فقدت مقعدها الوزاري في أول تعديل وزاري في أواخر عام ١٩٩٩، وذهب معها رئيس الوزراء **كمال الجنزوري**، وأتى مكانه **عاطف عبيد**، والصديقين **علي الدين هلال** كوزير للشباب و**أمينة الجندي** كوزيرة للشؤون الاجتماعية.

كان الوزيران عضوان في مجلس أمناء ابن خلدون فقررنا تكريمهما في احتفال بهيج مكتبة **مبارك** بالجيزة، التي كان يرأس مجلس إدارتها السفير **عبد الرؤوف**، وهو أيضاً من أمناء المركز.

كانت تربطني بالدكتورة **أمينة الجندي** علاقة حميمة منذ كنت أشرف عليها في رسالة الدكتوراه... واستمرت هذه العلاقة وهي أمينة للمجلس القومي للأمومة والطفولة. وقد تضاعفت حميمية العلاقة في رحلة إلى الغرب، كنت أنا فيها المضيف لندوة عن الشباب أيام منتدى الفكر العربي.

كشفت معركة تعديل قانون الجمعيات الصراع الخفي بين أجنحة السلطة في مصر، فقد كان الحرس القديم، وعماده جهازي مباحث أمن الدولة والمخابرات ووزيري الإعلام (**صفوت الشريف**) والدولة لشؤون مجلس الشعب والشورى (**كمال الشاذلي**) وأمين رئاسة الجمهورية (**زكريا عزمي**)، يستميت في الدفاع عن الأوضاع القائمة والسيطرة الكاملة على كل الأعصاب الحساسة للدولة والمجتمع وكان ذلك في مواجهة قوى التغيير غير المنظمة وغير المتماسكة... وكان جناح التغيير هذا من الأصغر والأكثر انفتاحاً على العالم... ولكن الحرس القديم كان يثيره بسهولة تحت غطاء المحافظة على "الأمن القومي" وهذا هو الجناح الذي حاول التنكيل بي بشكل سافر في السنوات الثلاث التالية وكانت لي مواجهة مباشرة مع قطبين من الحرس القديم ـ هما **صفوت الشريف** في أواخر عام ١٩٩٩، واللواء **صلاح سلامة** رئيس جهاز مباحث أمن الدولة في ربيع ٢٠٠٠، وسيأتي الحديث عنهما فيما بعد.

١٩٩٨
أحداث الكشح الأولى

الكشح هي أحد بلدان محافظة سوهاج، في عمق الصعيد، مثلها مثل أربعة آلاف قرية مماثلة في مصر... لم يسمع عنها الكثيرون حتى سبتمبر ١٩٩٨. ففي الشهر السابق وقع حادث قتل كان ضحيته شاب قبطي في بلدة، تصل فيها

نسبة الأقباط إلى أكثر من ستين في المئة... وكعادة أجهزة الأمن المصرية، فإنها قبضت على عدد كبير من المشتبه فيهم، وكانوا جميعاً من الأقباط. وسيطرت على هذه الأجهزة فكرة أن الجاني لابد أن يكون أحد شباب الأقباط، فقامت بحبسهم وتعذيبهم لعدة أيام، فاستنجدت عائلات هؤلاء الشباب بأسقف مدينة البلينا، التي تتبعها قرية الكشح... ولكن جهود الأسقف ذهبت سدى أكثر من ذلك تعرض الرجل، طبقاً لروايته، لعبارات تهديد مسيئة. فلجأ الأسقف لرؤسائه في القاهرة وللمنظمة المصرية لحقوق الإنسان للتدخل مع سلطات الأمن للإفراج عن مئات الشباب المحبوسين من أبناء الكشح، وللتحقيق فيما وقع عليهم من تعذيب.

استجابت المنظمة المصرية، وأرسلت فريقاً من العاملين بها للتحقق مما ورد إليها من شكاوي. وبعد أسبوع من التحريات والمقابلات، عاد الفريق إلى القاهرة وأعد تقريراً مفصلاً عن الوقائع، والتي أكدت فعلاً وقوع انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان في الكشح. وبمجرد نشر البيان تلقفته وكالات الأنباء وروابط الأقباط في المهجر، ونفخت فيه بالمزيد من التفاصيل والروايات المباشرة على ألسنة أبناء الكشح أنفسهم وعلى لسان الأب **ويصا** أسقف البلينا. وتبنت صحيفة إنجليزية (الديلي تلجراف) (DailyTelegraph) القضية، وظلت تتابعها لعدة أيام، فتحركت عدة منظمات حقوقية عالمية أخرى، وتوافد العديد من المحققين والصحفيين على بلدة الكشح لتسجيل شهادات حقيقية.

وكالعادة تسبب ذلك في حرج شديد للحكومة المصرية... وبدلاً من الكشف عن الحقائق، ونشر تقارير دورية عن التحقيقات لجأت إلى الإنكار، وشنت حملة مضادة في الصحف المصرية ضد من يروجون إشاعات عن التفرقة والتعصب في مصر، بغرض الإساءة إلى حكومتها بسبب مواقفها الوطنية والقومية في الدفاع عن الحقوق العربية عموماً والفلسطينية خصوصاً.

كذلك شنت صحيفة الأسبوع، الوثيقة الصلة بالأجهزة الأمنية، وبوزير الإعلام **صفوت الشريف** حملة شعواء لا فقط على الجهات الخارجية، ولكن أيضاً على المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، واتهمتها بأنها أصدرت تقريرها عن أحداث الكشح مقابل أموال حصلت عليها من جهة خارجية، هي مجلس العموم البريطاني... واستمرت الأسبوع في حمتها الغوغائية، ونشرت صورة الشيك الذي تلقته المنظمة المصرية من الجهة البريطانية وطالبت المدعي العام المصري بسرعة التحقيق في هذا الاتهام.

١٩٩٨
القبض علي حافظ أبو سعده
الأمين العام للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان

وفي تنسيق محكم وسريع ومريب، تحركت الجهات الأمنية فعلاً، وألقت القبض على الزميل **حافظ أبو سعده**، المحامي، والأمين العام للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان. ووجهت له نيابة أمن الدولة العليا تهمة تلقي أموال من الخارج دون إذن مسبق أو إخطار ملحق للسلطات المعنية، وذلك بالمخالفة للأمر العسكري رقم ٤ لسنة ١٩٩٢. وأودع حافظ أبو سعده الحبس رهن التحقيق في أواخر شهر نوفمبر ١٩٩٨. وقامت المنظمات الحقوقية المصرية والدولية بحملة مضادة للإفراج عن **أبو سعده**، وأعادت تسليط الأضواء على ما حدث في الكشح. على أوضاع الأقباط عموماً وما يشكون منه من تفرقة.

كان حادث الكشح نموذجاً نمطياً للكيفية التي تقوم فيها الأجهزة الأمنية بتوريط الحكومة المصرية... ثم حينما تخسر هذه الأجهزة المعركة تلجأ إلى إجراءات انتقامية تزيد الحكومة تورطاً في الخارج. فقد أرادت مباحث أمن الدولة أن تنتقم من المنظمة المصرية لحقوق الإنسان بسبب إعدادها ونشرها تقريراً عن أحداث الكشح... فاختارت أمينها العام، **حافظ أبو سعده** ليكون كبش فداء... وكما سنرى خسرت هذه الجولة فازدادت انتقاميتها في سلسلة توريطات متتالية، شملت بلدة الكشح نفسها مرة ثانية في أواخر عام ١٩٩٩، ثم شملتني أنا في عام ٢٠٠٠، كما سيأتي تفصيلاً.

ومؤتمر في ألمانيا عن الحكم الرشيد

في أواخر التسعينات تضاعفت الدعوات التي كنت أتلقاها لحضور المؤتمرات في مشارق الأرض ومغاربها. فلم يكن يمر شهر إلا وسافرت فيه مرة على الأقل إلى الخارج.

وقد تصادف سفري في الأسبوع الأول من ديسمبر ١٩٩٨ إلى مدينة لتكولم الألمانية لحضور مؤتمر عن الحكم الرشيد، وكان هذا المصطلح قد شاع استخدامه، مثله مثل مصطلح "المجتمع المدني"، و"الشفافية، و"المشاركة"، و"المحاسبة"... وفي الواقع كانت هذه المصطلحات الخمسة تكوّن منظومة متشابكة كآليات للديموقراطية ولأن البنك الدولي، بريادة الصديقين **إبراهيم شحاته وإسماعيل سراج الدين**، تبنى هذه المنظومة وربط بينها وبين "التنمية"، فقد

كثرت المؤتمرات التي تحمل عناوين من هذه المنظومة، ومنها ذلك المؤتمر الذي نظمته أحد المؤسسات الدينية البروتستانتية. وكنت مع ثلاثة زملاء مصريين ضمن المدعويين . وهم **نجاد البرعي** المحامي، ود.**عايدة سيف الدولة** (طبيبة) والمفكر الإسلامي **فهمي هويدي**.

وكانت هناك عدة شخصيات عربية أخرى، منها الصديقة د.**حنان عشراوي**، المفكرة والناشطة الفلسطينية. وقد كان هذا الوجود الغربي المتميز عاملاً في إثارة القضايا العربية العامة، وطرحها، من منظور إنساني مدني ديموقراطي، جعل من السهل نسبياً تبني المؤتمر لوجهة نظري. ورغم هذا النجاح فإن كلا من **هويدي** (الإسلامي) و**سيف الدولة** (الماركسية)؟؟؟ متباعدين عني طوال أيام المؤتمر، وكأن الاقتراب مني سيلوث نقائهما الأيديولوجي!.

وحملة عالمية للإفراج عن حافظ أبو سعده

وفي مؤتمر لتكولم، اتفقت مع **نجاد البرعي** وهو أمين عام سابق للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، وصديق صدوق **لحافظ أبو سعده**، على أن تنتهز الفرصة لشن حملة عالمية للإفراج عن هذا الأخير... وساعدنا على ذلك قرب الاحتفالات العالمية في باريس بالعيد الذهبي لصدور "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" (Universal Declaration of Human Rights) وقد استجاب المؤتمر بحماس لنداء موجه إلى كل من الرئيس **حسني مبارك** والرئيس الفرنسي **جال شيراك** للإفراج الفوري عن **حافظ أبو سعده**. وقد استجاب الرئيس الفرنسي فوراً، بمنح **حافظ** نيشاناً فرنسياً، ودعوته لاستلامه في حفل تكريم عالمي بمناسبة اليوبيل الذهبي للإعلان العالمي في باريس... وهو ما مثل إحراجاً شديداً للسلطات المصرية، التي لم يكن لديها أدنى فكرة عن المناسبة، أو أن العالم الديموقراطي كله يحتفل بها يوم ١٠ ديسمبر من كل عام، وأن احتفال عام ١٩٩٨ يكتسب أهمية خاصة.

أمر الرئيس **حسني مبارك**، بناء على رجاء قرينه الفرنسي، بالإفراج عن **حافظ أبو سعده**، ووضعه على الطائرة المسافرة إلى باريس يوم ١٩٩٨/١٢/٩... بحيث يصل قبيل موعد الاحتفال العالمي... وحينما وصل الرجل، فوجئ الجميع بأنه حليق الرأس (مثل الممثل العالمي **يول برونز**)، حيث كانت عادة السجون المصرية حلاقة شعر كل من يودع فيها ـ إمعاناً في العقاب أو لدواعي صحية !.

١٩٩٩

خطابي مبارك في الولايات المتحدة

ضمن نفس الرحلة الرئاسية إلى الولايات المتحدة كان مقرراً أن يلقي **حسني مبارك** خطابين في الجامعة الأمريكية وجامعة جورجتاون بالعاصمة واشنطن، وقد طلب مني د.**أسامة الباز** أن أُعد مسودات أو أفكار تصلح للخطابين... وهو ما قمت به فعلاً... فإلى ذلك الوقت كانت هناك "شعرة معاوية" بيني وبين النظام، رغم أن الرئيس كان قد توقف عن دعوتي أو رؤيتي منفرداً به منذ عام ١٩٨٧، وإن كنت قد ساهمت في حضور لقاءاته الجماعية بالمثقفين المصريين في معرض القاهرة الدولي للكتاب... وكان يتبادل معي كلمات مداعبة ودودة حين يزور جناح منتدى الفكر العربي أو جناح ابن خلدون، أو حينما يعطيني الكلمة لتوجيه أسئلة له في لقائه بالمفكرين في المعرض.

وقد ركزت في أحد الخطابين على قيم المجتمع المدني بضرورة الانتقال التدريجي السلمي إلى الديموقراطية. وركزت في الخطاب الثاني على ضرورة المواجهة العالمية لمشكلات البطالة، التي لم تعد مشكلة وطنية تخص هذا البلد أو ذاك العالم الثالث... وأن ثورة العولمة بأبعادها التكنولوجية المتقدمة قد تركت قطاعات بشرية بأكملها خارج التاريخ المعاصر وخارج المستقبل، وإن درء لما يمكن أن يؤدي له هذا التهميش من عواقب وخيمة ينبغي أن تكون هناك مبادرة عالمية للمواجهة الإيجابية.

١٩٩٩

مشروع الحملة الانتخابية لمبارك

كان الطلب الثالث **لأسامة الباز** في صيف ١٩٩٩ هو ورقة للإصلاح السياسي، يمكن **لحسني مبارك** أن يطرحها على الرأي العالم المصري في الخريف في حملته للرئاسة الرابعة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يطلب فيها **أسامه** مني ومن آخرين مثل هذه المقترحات. وأذكر أنه في انتخابات التجديد الثانية (١٩٨٧) اجتمع بي وبصديقنا المشترك **علي الدين هلال** لنفس الغرض. وفي ذلك الوقت اقترحنا أن يكون شعار الحملة الانتخابية هو "الاستعداد لتسليم الرايات" من جيل التحرير إلى جيل التعمير أو من جيل أكتوبر إلى جيل المستقبل... وفعلاً اعتمد الرئيس هذا الشعار، وأرسل لنا كلمة شكر رسالة شفوية مع **أسامه** ألا يتبادر إلى أذهاننا أننا نحن المقصودين بجيل المستقبل.

وفي حملته الرئاسية الثالثة (١٩٩٣) حينما اجتمع بنا **أسامة** لنفس الغرض كانت المواجهة مع المتشددين الإسلاميين في أوجها... لذلك اقترحنا على

الرئيس أن يدير حملته الانتخابية كما لو كان له منافس فعلى وهو "التيار الإسلامي المتطرف"، وأن يطلب من الشعب بتواضع شديد أن يلتف حوله لهزيمة التطرف والإرهاب، وإنقاذ مصر مما يتهددها من خراب.

وحينما جائني **أسامه** بطلبه المذكور للحملة الانتخابية التجديدية الرابعة، كنت قد يأست تقريباً من التغيير أو الإصلاح على يد هذا الرئيس، لذلك لم أتحمس للطلب كثيراً ولكن **أسامه** له طريقته في الإقناع... والتي انتهت هذه المرة، بعبارة بالإنجليزية "وهل هناك ما تخسره من مجرد طرح اقتراحات جديدة للإصلاح" (what have you got to lose).

ولم تساعد زوجتي **باربارا** في الأمر كثيراً، حيث كانت تحمل **لأسامه** بروداً متزايد، لم يخفف منه قليلاً إلا إعجابها بزوجته الجديدة **أميمة**، التي وجدتها أكثر دفئاً ومودة ومرحاً من **أسامه**... واستغربت ماذا وجدت فيه من جاذبية... وكانت قد أبدت نفس الملاحظة على **سها الطويل**، التي تزوجت **ياسر عرفات!**.

كان يساور **باربارا** الشك في أن **مبارك** قد يكون قد كلف **أسامة** أن يقوم شخصياً بهذه المهام، ولكن هذا الأخير يستسهل ويطلب مني، أو من **عليّ**، أو منها (في حالة السيدة **سوزان**) أن نقوم نحن بالعمل، وغالب الظن أنه لو صادف العمل استحساناً من **مبارك** أو قرينته، حظي **أسامه** بالثواب... أما إذا لم يلق أي استحسان فإنه ينسب العمل إلى أصحابه الحقيقيون حتى ينالوا الازدراء!.

كان من رأي **باربارا** أن يتم التعامل المباشر مع أصحاب الشأن ـ أي **حسني وسوزان** ـ دون وساطة **أسامه**... فوافقتها على أن تصر على ذلك مستقبلاً، وهو ما حدث مثلاً حينما طلبت سوزان مشروع كلمة لإلقائها في القمة الاجتماعية في جنيف أوائل يونيو ٢٠٠٠.

ولكني استجبت لطلب **أسامه** (نقلاً عن الرئيس) لخطة الإصلاح السياسي يتقدم بها للناخبين في خريف ١٩٩٩.

وقد أعددت ورقة من حوالي عشرين صفحة استعرضت فيها تجارب ناجحة للانتقال السلمي التدريجي من أنظمة حكم غير ديموقراطية إلى أنظمة حكم ديموقراطية. وركزت في هذه التجارب على بلدين هما المكسيك والمغرب.

ففي حالة المكسيك كان هناك حزب واحد يحتكر السلطة منذ أوائل القرن العشرين، وقد غير اسمه عدة مرات، ولكن كوادره هي هي... ورغم أن ذلك الحزب في آخر طبعاته وهو "حزب الثورة المؤسس" (Revolutionary Institutional Party RIP) قد سمح بعد الحرب العالمية

الثانية بالتعدد الحزبي، إلا أنه دأب على تزوير الانتخابات بحكم وجوده في السلطة بحيث تظل بيده مناصب حكام الولايات وأغلبية مجلس الندوات والشيوخ ورئاسة الجمهورية... ومع ذلك ففي السنوات العشرين الأخيرة خفّت قبضته تدريجياً، وأصبح بعض حكام الولايات يأتون من أحزاب المعارضة - ومع زيادة الضغط الأمريكي والأوربي، وإرسال مراقبين دوليين لمراقبة الانتخابات انخفضت نسبة التزوير والغش تدريجياً. ولعب الرئيس الأمريكي **جيمي كارتر**، والمركز الذي أنشأه ويحمل اسمه بعد تقاعده في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا، دوراً كبيراً في تطوير التجربة المكسيكية، بحيث تتزايد تدريجياً نسبة مشاركة أحزاب المعارضة في السلطة، دون أن يفقد الحزب الثوري المؤسس الرئاسة أو حتى الأغلبية البرلمانية. وقد تم ذلك من خلال اعتماد نظامين متوازيين للانتخابات، بحيث تكون نصف المقاعد على أساس التمثيل الانتخابي النسبي وهو توزيع تلك المقاعد على الأحزاب طبقاً لعدد الأصوات الكلية التي حصل عليها كل حزب، ويقوم الحزب بتوزيع تلك المقاعد طبقاً للقوائم التي كان قد دخل بها الانتخابات. أما النصف الثاني من المقاعد البرلمانية فكان يتم على أساس الانتخاب الفردي في الدوائر بالطريقة المعتادة... وقد ارتضت أحزاب المعارضة هذه الثنائية التي ضمنت لها أن تتم الانتخابات بنزاهة نسبية على نصف المقاعد، حتى لو استمر الغش والتزوير في النصف الآخر. وبالفعل زاد نصيب أحزاب المعارضة المكسيكية تدريجياً من ١٣ إلى ٢٤ إلى ٣١ في المئة في الانتخابات البرلمانية الثلاثة المتتالية منذ تبني هذا النظام في الثمانينات.

لقد كانت التجربة المكسيكية قريبة الشبه بالتجربة المصرية من حيث وجود حزب أو تنظيم سياسي يحتكر السلطة باسم الثورة، منذ عام ١٩٥٢، وقد تغير اسم التنظيم من هيئة التحرير، إلى الاتحاد الوطني، إلى الاتحاد الاشتراكي، إلى حزب مصر، إلى الحزب الوطني الديمقراطي، ولكن الممارسات والكوادر هي هي تقريباً. ورغم استئناف التعددية الحزبية نظرياً منذ أواخر السبعينات، وظهور أحزاب معارضة (وصل عددها إلى ١٤ حزباً في أواخر التسعينات) إلا أنها مجتمعة لا تحصل إلا على فتات المقاعد البرلمانية. لذلك فإذا صدقت النية على الإصلاح السياسي فعلاً، فإن أحد النماذج الجديدة بالدراسة والمحاكاة هو النموذج المكسيكي.

من التجارب التي عرضت لها الورقة أيضاً التجربة المغربية. فقد رأى الملك **الحسن** الثاني منذ بداية التسعينات أن بلاده لن تقبل كشريكة أو حتى كصديقة في النادي الأوربي إلا بإجراء تحول ديموقراطي حقيقي... وقد فعل ذلك على مراحل، بدأت بمرحلة "الميثاق الوطني" الذي توافقت فيه الأحزاب وقوى

المعارضة على قواعد اللعبة السياسية، التي شملت عدم المساس بثوابت النظام الملكي، ولا بنصيبه في اختيار وزراء السيادة: الخارجية، والداخلية، والدفاع، والعدل. على أن تكون بقية السلطتين التشريعية والتنفيذية مجالاً للتنافس الحزبي من خلال انتخابات دورية، يكون فيها للأغلبية أو الأكثرية الحق في رئاسة مجلس الوزراء. ولكن الجزء الأهم في التجربة هو انتخاب مجلس نواب بطريقة الدوائر والانتخابات الفردية، ومجلس شيوخ أو شورى بواسطة رؤساء البلديات أي بطريقة التمثيل غير المباشر. وكان هذا الأخير يضمن للملك وجود مجلس نصير يوازي مجلس النواب، حيث أن العرش كان ومازال يتمتع بشعبية ملحوظة في الأرياف والبادية المغربية، بينما تتمتع الأحزاب بشعبية في المدن الكبرى.

وبالفعل تحدث الرئيس **حسني مبارك** كثيراً في حملة رئاسته الرابعة عن الإصلاح السياسي وتعديل نظام الانتخابات بحيث يعطي المعارضة نصيباً أكبر في المجالس المنتخبة، ولكنه لم يفصح عن تفاصيل محددة. وتفاءلت خيراً بهذا القدر المتواضع والمهم... ولكن السنوات الثلاث التالية أثبتت أن تفاؤلي لم يكن في محله. وحلمي القديم أجهض، حتى هذا التغيير المتواضع.

أكتوبر ١٩٩٩
مؤتمر حوار الأديان في قصر وندسور

منذ سنوات عملي في منتدى الفكر العربي بعمان (١٩٨٥-١٩٩٠) كنت أشارك مع الأمير **الحسن** ولي عهد الأردن في حوار بين ممثلي الأديان السماوية الثلاثة: الإسلام، والمسيحية، واليهودية. وكان الراعيان الثانيان لهذا الحوار هما الأمير **فليب** (زوج الملكة **اليزانيث**) واللورد **روتشيلد**، كأقرب شيء يهودي للارستقراطية الملكية وكانت هذه اللقاءات تتم بالتناوب بين القصر الملكي البريطاني في وندسور، من خلال بيت سانت جورج، والقصر الملكي الأردني، من خلال منتدى الفكر العربي.

وفي جولة حوار خريف ١٩٩٩، طلب مني أن أقدم الورقة الإسلامية عن التعددية والمجتمع المدني في الإسلام. ورغم وجود جهابزة أكثر تجرئاً مني في الإسلام مثل د.**جمال كمال أبو المجد**، ود. **أحمد بدوي**، إمام مسجد لندن، ود.**ناصر الدين الأسد** أمين عام مؤسسة آل البيت، إلا أن الأمير **الحسن** كان يصر على أن أقوم أنا بتقديم ورقة الجانب الإسلامي... ربما لأنه وكذلك المشاركين من الديانات الأخرى كانوا يملّون من الطريقة الوعظية التبشيرية التي ينزع إليها رجال الدين الإسلامي في حوارهم مع الآخرين بينما كانت نزعتي في

الحديث عن الإسلام هما نزعة تاريخية نقدية مقارنة. وكنت قد فعلت ذلك في جولة حوار مبكرة، ولاقت الورقة وقتها استحسانا كبيراً.

في هذه الجولة من الحوار، أعددت ورقة موثقة بالنصوص القرآنية عن اعتقاد الإسلام بالتنوع، والاختلاف من ناحية والحض على التسامح وإدارة الاختلاف والتعايش سلمياً من ناحية أخرى... ولكي أتجاوز النصوص المقدسة، التي يمكن أن يبارينا فيها وبنفس القوة أصحاب كتب مُنزلة أخرى بنصوص مقدسة مماثلة، فقد استعنت بأمثلة علمية من التاريخ السياسي والاجتماعي للمسلمين ـ بداية "بصحيفة المدينة"، التي وقعها الرسول (ص) مع يهود وقبائل يثرب غير المسلمين لتنظيم الحقوق والواجبات بينهم وبين المسلمين. وحيث اعتمد فيها مبدأ "لهم مالنا وعليهم ما علينا" في أمور الدنيا ودواعي العيش المشتركة في مجتمع المدينة، على أن تترك أمور الآخرة (المعتقدات والواجبات الدينية) لله عز وجل، وللآخرة. ثم ذخرت الورقة بأمثلة التعايش السلمي الأخرى في مصر (حيث القبط المسيحيين) والأندلس (حيث أبناء الديانات الثلاث).

جاءت زوجتي معي لحضور المؤتمر والاستمتاع بالحفاوة الملكية الإنجليزية في قصر وندسور، خلال النهار والمساء، وفي الليل كنا نعود إلى فندق صغير، عبر الشارع من القصر الملكي... وفي الليلة السابقة لإلقاء ورقتي، أقام الأمير **فليب** للمشاركين في الحوار حفل عشاء فاخر، استمتعنا فيه كثيراً، وكانت تشاركنا على نفس المائدة أميرة هي **الأميرة بياترس** وكانت جميلة وفارعة الطول ولكنها رقيقة ومثقفة للغاية ومؤلعة بمعرفة الإسلام وأحوال المسلمين. وتبادلنا حديثاً عذباً طوال العشاء مع كؤوس الخمر الفرنسي المعتق. ورأيت أتباع الديانات الثلاث، بما فيهم الربابات (أحبار اليهود) والقساوسة والمشايخ، يحتسون الخمر، وإن بكميات متفاوتة.

عدنا إلى فندقنا وقضينا ليلة جميلة، أعقبها نوم عميق واستيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، حيث كانت ورقتي ستقدم وتناقش في التاسعة وكعادتي في مثل هذه المؤتمرات فإنني أراجع الورقة وألخص نقاطها الأساسية في صفحة واحدة، أضعها أمامي أثناء العرض الشفوي. بحثت عن حقيبة أوراقي، حيث تركتها في الغرفة. فلم أجدها أيقظت **باربارا** لسؤالها، علها تكون قد غيرت مكان حفظها، فأخبرتني أنها لم تفعل... وساعدتني في البحث في كل مكان، وفي كل دولاب، وتحت كل سرير. وكانت المفاجأة الثانية أنها لم تجد حقيبة أوراقها هي أيضاً وكان بها أوراق لا تقل أهمية عما كان في حقيبتي، حيث كانت على وشك القيام برحلة إلى طهران، بعد لندن مباشرة... وفي حقيبتها كل أوراق ومستندات العمل الخاصة بنشاط مجلسها (السكان) في إيران التي تقع ضمن منطقة إشرافها

(الشرق الأوسط وشمال أفريقيا). وتضاعف قلقنا، وأبلغنا إدارة الفندق، التي أبلغت بدورها شرطة مدينة وندسور، التي جاءت للتحقيق، وحررت محضراً بالحادث، وأعطتنا رقمه وتاريخه... كانت الساعة قد أصبحت الثامنة، ولم يتبق إلا ساعة لتقديم ورقتي المفقودة. اتصلت بمكتبي في القاهرة، رغم أنه كان يوم جمعة على أمل أن يكون هناك من يرسل نسخة أخرى بالفاكس... ولا جدوى... فطلبت إفطار في الغرفة، وعكفت على إعداد ما سأقوله من الذاكرة... وتبقت مشكلة وهي تذكّر الآيات القرآنية التي لم أكن أحفظها، وإن كنت أتذكر معانيها، وهو ما يهم المستمعين الأجانب... ولكني كنت أعلم أن الخطأ في استرجاع آية قرآنية أمام مستمعين مسلمين هو أمر لا يغتفر بسهولة!.

وصلت إلى قاعة سانت جورج بالقصر الملكي في تمام التاسعة، حيث كانت **باربارا** قد سبقتني إلى هناك، وكذلك خبر فقد حقيبتا أوراقنا في الفندق، وهو ما تسبب في حرج شديد للأمير **فليب** وهيئة العاملين في قصر وندسور، حيث الفندق يقع لا فقط في مدينتهم، ولكن في جوارهم مباشرة!.

ألقيت ورقتي من الذاكرة... وانفجرت القاعة بتصفيق حاد طويل... وتعجب الأمير **فيلب** الذي كان قد اعتذر لي أمام الجمهور على حادث السرقة، عما يمكن أن يكون عليه أدائي إذا لم تكن الورقة قد فقدت، وإذا لم أكن قلقاً... وشكرني شكراً عميقاً... ثم فتح النقاش... وكان المشاركون الإنجليز الأكثر اهتماماً بهذا الجانب من المحاضرة، وكان المشاركون اليهود الأكثر اهتماماً بالبنود الخاصة في صحيفة المدينة بيهود قبيلة بني قريظة... وحينما جاء دوري في التعليق، أكدت للجمهور أنه لو لم أفقد الورقة مع الحقيبة في الفندق، لجاءت المحاضرة أكثر إملالاً، فضجت القاعة بالضحك... ولكن ذلك وهو الواقع عادة، ففي وجود نص مكتوب، يميل المحاضر عادة إلى القراءة من النص، فيفقد التواصل بالعيون مع الجمهور، ويفقد انتباه الجمهور.

كانت الأكثر إعجاباً بالمحاضرة الأميرة **بياترس** الألمانية... وبمجرد سفر **باربارا** في مساء نفس اليوم إلى طهران، وتولتني الأميرة بصحبتها على كل الوجبات، وبقية أيام المؤتمر... وتواعدنا على أن نلتقي ثانية على أرضها في ألمانيا، وهو ما حدث منذ شهرين.

ديسمبر ١٩٩٩
المنتدى العالمي للتنمية المتواصلة

دأب البنك الدولي على تنظيم منتديات أقلية عن التنمية المتواصلة أو المستدامة، يكون عمادها المراكز البحثية والمنظمات غير الحكومية، أو ما

أصبح يسمى بمؤسسات المجتمع المدني وفي منطقتنا الشرق الأوسط وشمال أفريقيا MENA ـ عقد مؤتمرين في المغرب، وكان مركز ابن خلدون هو أحد الجهات المشاركة. وكان المقرر أن يُعقد مؤتمر إقليمي ثالث في القاهرة، ويشارك في تنظيمه مركز ابن خلدون، بالاشتراك مع منتدى البحوث الاقتصادية Economic Research Foam (ERF)، الذي يديره الاقتصادي الواعد **أحمد جلال**، ويرعاه **جمال مبارك**، نجل رئيس الجمهورية.

وقد رأى البنك الدولي أن ينظم منتدى كونتيا للتنمية المتواصلة، نصبت فيه أعمال وأنشطة المنتديات الإقليمية كل سنتين... وتقرر عقد المؤتمر الكدني الأول في مدينة بون العاصمة السابقة لألمانيا الغربية، والتي كانت تقدم تسهيلات شتى لتشجيع سياحة المؤتمرات، بعد أن انتقلت عاصمة ألمانيا الموحدة إلى برلين من جديد . أي بعد ٥٥ سنة تقريباً.

كان المؤتمر الكدني ضخماً، حيث شارك فيه ما يقرب من ثلاثة آلاف مشارك... فكان أشبه بسوق عكاظ من حيث الهرج والمرج ولم تكن لي ورقة في المؤتمر، ولكن وكّل إليّ رئاسة جلستين والتعقيب على ثلاثة أوراق في ثلاث جلسات أخرى. وكالعادة كانت كل جلسات المؤتمر تتنافس في جذب الحضور مع عشر جلسات أخرى في نفس الوقت... كذلك كان المشاركون في المؤتمر يدخلون ويخرجون من وإلى كل قاعة إلى أن يصادفوا ما يعجبهم أو يجذب انتباههم. لذلك تنفست الصعداء حينما انتهت مهماتي الخمس في المؤتمر، وتركته إلى مهمة وجدانية أخرى كنت أتطلع إليها طوال الشهرين الماضيين.

ضيف الأميرة بياتريس

كانت الأميرة **بياتريس** التي قابلتها في حوار الأديان بقصر وندسور على اتصال دائم بي في القاهرة... وكانت على علم باحتمال زيارتي لألمانيا... وكررت دعوتها لي لزيارتها في قلعتها قرب بون... لذلك حينما أخبرتها في اليوم الأول للمؤتمر بوصولي قالت "سوبر Super"... وكانت هذه هي لازمة الحديث عندها كلما صادفت ما تستحسنه ... وكنت قد سمعتها تكرر هذه اللازمة في إشارتها إلى محاضراتي في وندسور... لذلك أصيبت بخيبة أمل عندما علمت أنني لن القي ورقة في المنتدى الكدني في بون ودعتني لزيارتها في قلعتها بمجرد انتهاء المنتدى... وبالفعل أرسلت السيارة بسائق لينقلني من الفندق لبون إلى تلك القلعة.

لم أكن أعرف الكثير عن الأميرة الألمانية... بل لم أكن أتصور أنه ما يزال في ألمانيا أمراء وأميرات، بعد إعلان الجمهورية في أعقاب الحرب العالمية

الأولى... وسألت، وقرأت، ثم تحدثت مع السائق الذي كان يجيد الإنجليزية. وعرفت أن أبناء وبنات الأسرة المالكة الألمانية، التي كان آخرها في الحكم هو الإمبراطور **ويلهلم** (أو كما يسمونه في كتب التاريخ المصري **غليوم**)... مازالو يحتفظون بألقابهم وقصورهم وقلاعهم وممتلكاتهم الخاصة، رغم زوال سلطتهم السياسية.

يحل الظلام في ألمانيا في ديسمبر مبكراً، لذلك رغم إننا تركنا بون في الثالثة والنصف، كان مع وصولنا إلى القلعة في الخامسة والنصف كانت المنطقة شبه مظلمة مع مطر شديد... ومع الدخول من بوابة القلعة كانت الإضاءة أقوى نسبياً، ولكني شعرت كما لو كانت آلة الزمن قد رجعت بي إلى الوراء ثلاثة قرون على الأقل، ورغم حماسي لرؤية الأميرة إلا أنني شعرت ببعض الهيبة والانقباض... ولكن هذا الشعور سرعان ما تبدد حينما رأيتها في مدخل المنزل الذي تعيش فيه بالقلعة، وحينما سمعت صوتها يجلجل بكلمة (Super).

قضيت في ضيافتها ليلتين... تحدثنا عن أشياء كثيرة... وسألتها عن موضوع الأميرة "هذا... وكانت تشرح وهي تضحك، وتؤكد أنها وزوجها الأمير **فريدرك** لا يأخذون هذه الأمور مأخذ الجد، وأنهم لا بد أن يعملوا لكسب عيشهم أو على الأقل للمحافظة على مستوى المعيشة الذي تتطلبه القلعة وتعليم أطفالها الخمسة! أبديت دهشتي لهذا العدد، ثم دهشة أخرى لأن أكبرهم في العشرين ويدرس في أكسفورد والباقين في مدارس داخلية في سويسرا وزوجها في رحلة عمل طويلة في أمريكا اللاتينية... وهي تعيش وحدها في القلعة هذه الأيام مع عدد من الخدم، ولكنها تتوقع الأسرة كلها خلال أيام لقضاء عطلة الكريسماس.

تناولنا عشاء شهياً على ضوء الشموع مع موسيقى هادئة ونبذ فرش أحمر... وفي اليوم التالي أيقظتني مبكراً... ومشينا في الغابة المحيطة بالقلعة تقول وتشرح لي تاريخ ما نصادفه أو نراه من معالم حول القلعة، التي بنيت في القرن الخامس عشر، وجددت عدة مرات ووعدتني بكتاب عن تاريخ القلعة وعن تاريخ أسرتها، حينما علمت أن عندي بنت تتحدث الألمانية.

تناولنا فطوراً شهياً من المعجنات التي خبزت للتو في القلعة مع البيض الأوملت والعسل الأبيض والقهوة... ثم صحبتني إلى كنيسة قريبة، حيث كان اليوم هو الأحد... وقربتني للعديد من الأصدقاء، ثم طافت بي في البلدة التي توجد فيها الكنيسة إلى ما بعد الظهر، حيث عدنا إلى القلعة واستقبلنا عدد من الصحفيين ورجال الأعمال على الشاي، حيث تحدثنا عن أحوال مصر والعرب والمسلمين ومشكلة الجالية الأجنبية في ألمانيا إلى حوالي الرابعة... وفي المساء

تناولنا عشاء من السمك على ضوء الشموع والموسيقى الهادئة... وكنت أتأمل بجسمها الجميل، ولا أصدق أن هذه الشابة قد أنجبت خمسة أطفال ومازالت بهذه الرشاقة... وحينما عبّرت عن هذا الخاطر ابتسمت، وسألتني إن كنت أحب أن أرقص... وفعلت... ولكني شعرت أنني قزم مع هذه المرأة الشاهقة... غادرت في اليوم التالي، بعد ليلتين لا تنسى.

١٩٩٩
مواجهة مع وزير الإعلام صفوت الشريف

كان المجلس القومي للطفولة والأمومة يُعد لمؤتمر حافل بمناسبة نهاية العقد الأول للطفولة، الذي كان الرئيس **مبارك** وقرينته قد دشناه عام ١٩٨٩، ووقتها كانت **د.هدى بدران** هي الأمينة العام للمجلس... وحينما تركته في أوائل التسعينات لبلوغها سن التقاعد حلت محلها **د.أمينة الجندي**، تلميذتي السابقة وصديقتي الحميمة... وقد اعتمدت عليّ هي والسيدة الأولى اعتماداً كبيراً في إعداد أو مراجعة الخطط السنوية والعقود وتقييم المشروعات. وإجراء البحوث... وكنت أحرص على أن يكون عملي تطوعياً بحتاً، نظراً لإيماني برسالة المركز ولعلاقتي الممتدة بالسيدتين.

وقد تحدد للمؤتمر الأسبوع الأخير من ديسمبر، وكان يشارك فيه حوالي ألف شخص من المهتمين والمختصين والمسؤولين. ويفتحه الرئيس، منهياً العقد الأول، ومعلناً بداية العقد الثاني، ثم يغادر قاعة المؤتمرات الكبرى بمدينة نصر، لتبدأ جلسات العمل بكلمة لرئيس الوزراء، ثم السيدة الأولى، ثم كل من وزراء الخدمات: التعليم والصحة والإعلام والشباب، والشؤون الاجتماعية. وكان من المقرر طبقاً للبرنامج أن يعرض الوزير إنجازات وزارته في العقد الأول وأهم ما يقترحه للعقد الثاني، وأن يفعل ذلك في أربعين دقيقة على الأكثر وأن يترك عشرين دقيقة للحوار والنقاش. وقد التزم وزيري التعليم **(حسين كامل بها الدين)** والصحة **(إسماعيل سلام)** بالوقت المقرر ومرت جلستيهما على ما يرام. وقد قدمت مداخلة تعقيباً على **د.حسين كامل بهاء الدين**، بناء على طلبه قبل الجلسة، حتى أحيي النقاش وأعطيه الفرصة لقول ما لم يتمكن من قوله في الأربعين دقيقة وكان فحوى مداخلتي هو أنه رغم الجهود الجبارة التي تبذلها الوزارة والوزير، إلا أن الشكوى ما زالت مستمرة، بل وفي تزايد، من كل أطراف العملية التعليمية: التلاميذ، المعلمون، أولياء الأمور، الإداريون، والإعلاميون. فما هو السبب؟ وهل يذهب إلى وسائل الإعلام بما فيه الكفاية لشرح وتفسير سياساته وقراراته؟ وأجاب الرجل، بعد أن شكرني، وقدم نقداً ذاتياً مضمونه ما

انطوى عليه سؤالي الثاني، وهو أنه مقصر نسبياً في التوجه للرأي العام لتبصيره ومناشدة تعاونه.

لم أعلق على كلمة وزير الصحة، ولم أكن عندي التعليق على كلمة وزير الإعلام **صفوت الشريف**، لولا أن شيئان حدثا. الأول أنه أخذ ساعة كاملة (ليس أربعين دقيقة). والثاني أن رئيس الجلسة وهو **د.أحمد كمال أبو المجد**، وزير الإعلام الأسبق، فاجأني وفاجأ الجمهور، بإعلان أسفه أن السيد الوزير كان لديه الكثير الذي يقوله، ولذلك أخذ ساعة كاملة ولم يترك وقتاً للنقاش، ولكنه أي **د.أبو المجد** مُصر على أنه يكون هناك نقاش ولو لدقيقة أو دقيقتين مراعاة للقواعد التي رسمها منظموا البرنامج، وأرساها المتحدثان السابقان، لذلك فهو سيسمح بمداخلة واحدة لمدة دقيقة، وسيسمح للوزير بالرد عليها في دقيقة أخرى. ثم أعلن أنه سيعطي المداخلة المقترحة للدكتور/ **سعد الدين إبراهيم**.

شكرت الوزير السابق على إعطائي هذه الدقيقة، والوزير اللاحق على إنجازات وزارته الضخمة، ولكن السؤال هو هل سيدار الإعلام المصري "الرائد" بنفس الطريقة الذي أدير بها في العقد السابق، والذي جعلته إعلاماً من الدرجة الثالثة؟ فلا مدينة الإنتاج الإعلامي المقامة على عشرة آلاف فدان، ولا القمرين الصناعيين اللذان أطلقتهما فرنسا وادعينا نحن ملكيتهما. كأننا صنعناهما وليس مجرد دفع ثمنهما... سيحقق لنا "الريادة" التي ندعيها دون أن نكون جديرين بها... لقد تحدث السيد الوزير عن الإعلام التفاعلي Interactive media، الذي يعتمد على الحوار بين المرسل والمستقبل... ولكن ما خبرناه في الساعة الأخيرة هو نفس الإعلام الذي خبرناه طوال العقود الخمسة الأخيرة هو إرسال فقط دون أن يترك للمستقبل فرصة للحوار، اللهم إلا الدقيقة الوحيدة التي تكرّم علينا بها رئيس الجلسة. وضجت القاعة بتصفيق وصخب، حاول **د.أبو المجد** أن يسيطر عليه... وطلب مني أن أستمر لدقيقة أخرى إرضاء للجمهور! شكرته، وأضفت أن هناك محطة تليفزيونية مقامة على فدان واحد، وليس عشرة آلاف، ولكنها خطفت المشاهدين العرب من المحيط إلى الخليج، وهي قناة الجزيرة، التي وضعت قطر على خريطة العالم، وذلك لسبب واحد وبسيط يوجد لديها ولا يوجد لدينا... هذا السبب، يا سيادة الوزير هو "الحرية"... فهل ستملك هذا في العقد القادم؟ وضجت القاعة بالتصفيق للمرة الثانية ولمدة أطول من الأولى. وأدركت على الفور أنني أرضيت ضميري وأرضيت الجمهور، ولكني أغضبت النظام واكتسبت عدواً لدوداً، سيشارك في الانتقام مني طيلة السنوات الثلاثة التالية.

أنهى **د.أحمد كمال أبو المجد** الجلسة... ولكن **صفوت الشريف** أصر على الرد... ولم يكن قد تبقى إلا حوالي نصف المشاركين وبدأ الوزير رده باستنكار ترتيب الإعلام المصري كإعلام من الدرجة الثالثة... وكيف يجرؤ **د.سعد الدين إبراهيم** على هذا التقييم الظالم لإعلامنا الوطني، الذي كان في طليعة كل معاركنا التحريرية. وصفق بعض الحاضرين للوزير، من موظفي وزارة الإعلام.

لم أدري أن مداخلتي تلك في ذلك اليوم كانت في واقع الأمر هي قطع شعرة معادية بيني وبين **صفوت الشريف** إلى الأبد. فبعد ذلك بعدة شهور تزعم الرجل أحد مراكز القوى التي صممت على التنكيل بي، أو التخلص مني نهائياً.

نهاية عام... نهاية قرن... نهاية ألفية

استعدت مصر والعالم لتوديع عام ١٩٩٩ واستقبال عام ٢٠٠٠ كمناسبة خاصة تستحق احتفاء خاصاً. فقد كان العام متمماً للقرن الحادي والعشرين، وبالتالي للألفية الميلادية الثانية... وكان ضمن استعدادات مصر لتلك المناسبة الترويج السياحي لتذكير العالم بأن تلك هي نهاية الألفية السادسة لمصر، التي بدأ تاريخها الحضاري المكتوب لمحو أربعة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح... وأعدت لهذه المناسبة احتفالاً أسطورياً عند سطح أهرامات الجيزة، مستخدمة الصوت والضوء مع عرض فني استعانت فيه بمخرج فرنسي وموسيقي عالمي لإنتاج ليلة وعروض لا تنسى، على مستوى أوبرا **عايدة** الشهيرة التي أنتجت بمناسبة الاحتفالات بافتتاح قناة السويس في ستينات القرن التاسع عشر.

وحرص التليفزيون المصري وشبكات التليفزيون العالمية على نقل الاحتفال عند سطح الهرم كواحد من اثني عشر احتفالاً حول العالم، بدأت بمدينتي سيدني الاسترالية على أساس أنها كانت ستشهد شعاع شمس أول أيام عام ٢٠٠٠... وانتقلت مع المناطق الريفية عبر العالم، مروراً بطوكيو، ودلهي، والقاهرة، وروما، وباريس ولندن، ونيويورك، ونيوأورليانز، وشيكاغو، ولوس أنجيلوس.

وحضر الرئيس المصري **حسني مبارك** وقرينته، ونخبة منتقاة من ضيوف وشخصيات برلمانية الاحتفالات عند سطح الهرم. وكان ضمن من دعاهم إلى خيمته كل من **د.أحمد زويل**، المصري الأمريكي الفائز بجائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩، والصديق **إسماعيل سراج الدين**، نائب رئيس البنك الدولي، والذي كان يستعد لتولي منصب مدير مكتبة الإسكندرية، التي أعيد بناؤها بعد حوالي ألفي عام من تدميرها.

على المستوى الأسري، احتفلنا بالمناسبة على مرحلتين... الأولى تناولنا فيها إفطاراً رمضانياً معاً، مع **راندا** وزوجها **نبيل** وحفيدتنا **لارا**، التي كانت قد أتمت الثالثة قبل ثلاثة أسابيع، ونجلنا **أمير**... ثم كانت المرحلة الثانية قرب منتصف الليل، حيث افترق عنا الشباب. فذهب **أمير** مع عدد من أصدقائه إلى احتفالات سطح الهرم. وآثرت **راندا**، التي كانت في أواخر أيام حملها أن تظل مع زوجها في منزلهما... وحيث كان أحد هواجسها أن يحدث الوضع في تلك الليلة مع احتمالات انصراف الأطباء من خدماتهم الليلية! أما أنا و**باربارا** فقد مكثنا بدورنا في فيلتنا بميدان النصر، بالمعادي... لنكون على مقربة من ابنتنا **راندا**، توقعاً لأي طارئ... واستمتعنا بدفء فراشنا، ونحن نشاهد احتفالات عواصم العالم على شبكة الـ CNN، وشروق الشمس في كل منها مع بداية العام الجديد في القرن الجديد والألفية الجديدة.

استقبلت العام الجديد يحدوني التفاؤل والرضا والشكر على ما وهبني الله: زوجة صالحة، وأبناء موفقين مهذبين، وصهر طيب محب لزوجته، وحفيدة جميلة، وإنجاز مهني مرموق لكل أفراد الأسرة... لم يدر بعقلي أو خاطري في تلك الليلة، أي مما كان يخبئه لنا القدر، وتدبره مراكز القوى لنا في الظلام، طوال السنوات الثلاث التالية.

مذبحة رأس السنة في الكشح

بينما كانت القاهرة وبقية مصر والعالم تحتفل بنهاية العام والقرن والألفية الميلادية الثانية شهدت بلدة الكشح بمحافظة سوهاج مذبحة طائفية مروعة، راح ضحيتها حوالي ثلاثين نفساً بشرية ومئة جريح، ودمرت عشرات المتاجر والمنازل... وكانت الأغلبية العظمى من الخسائر في الأرواح والممتلكات من نصيب المسيحيين الأقباط من أهل الكشح.

ومثل غيرها من أحداث طائفية شهدتها مصر منذ عام ١٩٧٢ (أحداث الخانكة) فقد كان السبب الظاهر والمباشر هو خلاف حول تعامل تجاري بين تاجر صاحب محل قبطي وعميلة مسلمة... ولكن لأن الوقت كان أثناء رمضان فقد تفاقم هذا الخلاف الفردي البسيط إلى نزاع جماعي، أخذ صيغة طائفية لاعتبارات مصلحية لأطراف أخرى في البلدة لم تكن طرفاً أصلياً في النزاع بين التاجر القبطي والعميلة المسلمة.

وحتى هذه المصالح المتصارعة ما كان لها أن تؤدي إلى اتساع النزاع بالشكل الذي حدث ما لم تكن هناك خلفيات أخرى كانت مباحث أمن الدولة طرفاً محرضاً ومنتقماً فيها. فقد كانت بلدة الكشح مسرح حوادث طائفية أخرى

في صيف ١٩٩٨، وتبين منها أن سوء تصرف مباحث أمن الدولة كان السبب المباشر في انفجارها، وذيوع أخبارها خارج البلاد. وكلما حاولت المباحث في ذلك الوقت البحث عن كبش فداء تحمّله المسؤولية، افتضح أمرها أكثر وأكثر... ولم تنسى المباحث هذا الحرج وصممت على الانتقام من بلدة الكشح وأقباطها... وواتتهم الفرصة في ليلة ١٩٩٩/١٢/٣١.

وحينما تحول الخلاف في تلك الليلة إلى ما ينذر باشتباك مسلح... لم تتدخل قوات الأمن. وحتى حينما بدأ الاشتباك المسلح تراخت قوات الأمن في التدخل لحوالي ٣٦ ساعة، رغم أنها كانت على مقربة من مسرح الأحداث.

ولم يعرف المصريون ما حدث إلا بعد وقوعه بـ ٤٨ ساعة من الصحف اليومية، التي تكتمت على الأخبار في البداية، ثم اضطرت لنشرها بعد أن تناولتها وسائل الإعلام الخارجية، وشبكات الإنترنت. وكالعادة، في غياب بيانات رسمية موثوقة مما حدث، اصطحبت ما تناقلته المصادر الخارجية بمبالغات شديدة، رغم أن ما حدث فعلاً كان ينطوي على ما يكفي من القبح والغوغائية.

وخلال شهري يناير وفبراير لم يكن للدوائر الفكرية والسياسية من أحاديث إلا حول أحداث الكشح.

وبهذه المناسبة دعتني جمعية النداء الجديد في فبراير، والكاتدرائية المرقسية للحديث عما وقع في الكشح... ولبيت الدعوة، وألقيت محاضرتين صريحتين وضعت فيها النقط على الحروف. كذلك ساعدت في صياغة بيان عن الأحداث من حيث المقدمات والأسباب والنتائج. وقد بلغت المحاضرتين بالترحاب وبالتقدير... وتم نشرهما على نطاق واسع.

وكانت المحاضرتان أساس مادة البيان الذي وقعه مئة مثقف وشخصية عامة، وأصبح يعرف من وقتها باسم "بيان المئة"، وأوصى بعدد من التوصيات والسياسات التي من شأنها أن تحتوي الموقف وتخاطب الهموم والمظالم والمطالب المشروعة للأقباط والمصريين.

كان **د.سعيد النجار** هو رئيس اللجنة، وكنت أنا الأمين العام، التي بادرت بإعداد البيان وإعلانه في مؤتمر صحفي كبير ضم مصريين وعرباً وأجانب.

وفي أعقاب صدور البيان شنت الصحف المباحثية الصفراء هجوماً ممتداً على من أصدروا البيان، وخاصة على **د.سعيد النجار** وعلى شخصي. وقد تزعمت حملة الهجوم صحيفة "الأسبوع" و"الميدان". وكذلك عدد من كتّاب الأعمدة في جريدتي "الجمهورية" و"الأخبار" وكالعادة اتهمنا بأننا بإصدارنا لبيان المئة نعطي فرصة للتدخل الأجنبي في شؤون مصر الداخلية... هذا فضلاً عن النفي الكامل لوجود أي هموم أو مشكلات للأقباط! وكالعادة وجدت هذه

الصحف المباحثية من الأقباط من يتسابق لتزلفها بانتقاد "بيان المئة"، وترويج نفس الكيلشهات حول الوحدة الوطنية و"النسيج الواحد" أو "السبكة" الواحدة التي تنكر التنوع أو الاختلاف أو وجود أي هموم خاصة للأقباط.

وبالطبع قامت نشرة المركز "المجتمع المدني" بنشر محاضرتي في النداء الجديد والكاتدرائية المرقسية بعنوان "طريق الأشواك من الخانكة (١٩٧٢) إلى الكشح (٢٠٠٠)، وكذلك توثيق ردود الفعل الأخرى حول تلك الأحداث.

مشروع الأحزاب السياسية العربية

كان مركز ابن خلدون قد بادر قبل عام بمشروع بحثي عن الأحزاب السياسية العربية. ودعي المركز للمشاركة فيه باحثين من مصر، والأردن، ولبنان، وفلسطين المحتلة (عرب ١٩٤٨).

وكان المشروع الذي مولته جزئياً مؤسسة فورد، جزءاً من برنامج المجتمع المدني والتحول الديموقراطي في الوطن العربي كما كان يتم برعاية من عالمة السياسة الأمريكية **كاي لوسون** (Key Laulson) الذي انصب اهتمامها على إصدار أبحاث المشروع في كتاب بالإنجليزية ضمن سلسلة تحت إشرافها عن الأحزاب السياسية في العالم. وكان الوطن العربي هو أخر أقاليم العالم التي لم يصدر عن أحزابها مجلد ضمن السلسلة.

وكنا قد عقدنا للمشاركين في المشروع اجتماعاً في بداية المشروع بمنتجع العين السخنة. كما نظمنا ورشة عمل في فبراير ٢٠٠٠ لمراجعة شبه نهائية لفصول الكتاب المنتظر. وبهذه المناسبة دعونا **د.كاي لوسون** للمشاركة في ورشة العمل التي كانت ستتم على ظهر باخرة نهرية تتوجه من أسوان إلى الأقصر، على امتداد خمسة أيام يتم فيها عرض ومناقشة أوراق المشروع.

ورحبت **د.لوسون** بالدعوة... وقررت أن تأتي مع زوجها، الكاتب الروائي الزنجي طوبي لوسون، إلى مصر مبكرة بأسبوع لزيارة معالم مصر... وبالفعل وصلت واستقبلتها واستضفناهما في منزلنا بميدان النصر، وأعددنا لها برنامجاً حافلاً... ومضى البرنامج طبقاً للخطة إلى يومين قبل بداية ورشة العمل. فقد مرض زوجها طوبي... وطلب أن ينتقل إلى فندق تمهيداً لمغادرة مصر إلى باريس تحسباً لتفاقم حالته الصحية.

من ناحية أخرى تلقيت أثناء إقامة الزوج الأمريكي رسائل تهديد تليفونية وبريدية تنذرني بالويل والثبور وعظائم الأمور بسبب ما تفوهت به في الكاتدرائية. وفي البداية لم أعط هذه التهديدات وزناً... ولكن المكالمات التليفونية التهديدية كانت تأتي طوال اليوم... وما كان يأتي منها ليلاً كان يأتي في أوقات غريبة

ومزعجة... ورغم أن كي وطوبي كان يقيمان في الطابق الثالث من الفيلا، إلا أنهما كانا يسمعان رنين التليفون الطويل وكان يوقظ طوبي المرهق الأعصاب... وحينما استفسرا عن الأمر الذي زاد من قلقهما... وظن طوبي أنه هو المقصود أو هو السبب في هذه التهديدات لأنه زنجي أسود متزوج من شقراء بيضاء... ويبدو أن هذا الهاجس كان وراء مرضه ورغبته في مغادرة البلاد على عجل... وهو ما حدث، رغم محاولاتي وكي (الزوجة) في أثنائه عن رغبته ومحاولة توفير الرعاية الصحية والطبية له.

ورغم ذلك فقد تمت مرشة العمل بنجاح فائق... ولم أفكر مرة واحدة في التهديدات الهاتفية أو البريدية، خلال الأسبوع الذي قضيته مع زملائي بين الأقصر وأسوان

المجتمع المدني والحكم الصالح في جنوب أفريقيا

كان ضمن مشروعات مركز ابن خلدون أيضاً في أواخر التسعينات مشروع عن المجتمع المدني والحكم الصالح (Civil Society and Govenmouw) وشمل أربعة بلدان عربية - هي مصر والأردن ولبنان وفلسطين. وكان جزءاً من مشروع عالمي يحمل نفس الأسم، وتموله أيضاً مؤسسة فورد، ويشمل خمسين بلداً، وينصقه المعهد الدولي للتنمية بجامعة ساسكس في المحكمة المتحدة. وكان لكل مجموعة من البلدان المتجاورة منسق إقليمي... واخترت أنا كمنسق إقليمي للمنطقة العربية، حيث كان مركز ابن خلدون قد ذاعت شهرته كأحد المراكز الرائدة في دراسة كل ما يتعلق بالمجتمع المدني. وساعد على هذه الشهرة نشرته الدورية، التي كانت تحمل هذا الاسم، بالعربية والإنجليزية، وتصدر شهرياً منذ عام ١٩٩٢.

وكان المشاركون في المشروع قد عقدوا مؤتمر تمهيدياً في جامعة ساسكس قبل عام ونصف للاتفاق على الإطار النظري للمشروع (صيف ١٩٩٨). وعقدت المجموعة العربية الرباعية بدورها اجتماعين للمتابعة خلال السنة التالية، راعينا تزامنهما مع اجتماعات المتابعة لمشروع الأحزاب السياسية - بحيث يسبتها أو ؟؟؟ مباشرة، وذلك توفيراً للوقت والنفقات، خاصة وأن المشاركين في المشروع الأول كانوا جميعاً مشاركين في المشروع الثاني.

ولكن الأكثر إثارة في مشروع "المجتمع المدني والحكم الصالح" هذه المرة كان موقع اجتماع التابعة، وهو مدينة كيب تاون (Cape Town) بجنوب أفريقيا. وقد أعطاني ذلك فرصة هذا البلد الأفريقي لأول مرة في حياتي وكان المناضل الأفريقي **نلسون مانديلا**، الذي قضى في سجون النظام

العنصري ربع قرن من حياته قد أعطى لنضال المؤتمر القومي الأفريقي (National African Congress, NA) أبعاداً أسطورية، وضعت حركة التحرير في جنوب أفريقيا في مصاف حركات التحرير الكبرى في تاريخ العالم الثالث، مثل الجزائر وفيتنام.

وكان ضمن من شاركوا معنا في مؤتمر كيب تاون الزميلة **د.بسمة قضماني**، عالمة السياسة السورية الفرنسية، ممثلة لمكتب مؤسسة فورد في القاهرة. وقد أثارت إعجابي الشديد، لجمالها وذكائها ورقتها. رغم أنني كنت قد قابلتها في مناسبات سابقة خاطفة على امتداد السنوات العشر الماضية (في عمان وباريس وبيروت) إلا أن رحلتنا إلى جنوب أفريقيا قد طورت هذه المعرفة إلى صداقة حميمة.

حضر معنا أيضاً **هاني الحوراني** (الأردن) **وريما حماي** (فلسطيني) **وبول سالم** (لبنان). وكان أداء المجموعة الغربية متميزاً. وقد أتيحت لنا فرصة التجول في جنوب أفريقيا، والتعرف على العديد من رموزه السياسية، وعلى مشكلات ما بعد الاستقلال. وعدت من هناك وأنا على يقين أن هذا البلد الجميل بطبعه وتضاريسه وشعبه سيلعب دوراً ريادياً في القارة الأفريقية كلها رغم حداثة عهده بالاستقلال (١٩٩٤).

زيارة شقيقة زوجتي: نانسي

كانت شقيقة زوجتي **نانسي** قد خططت لزيارتنا في شهر مارس ٢٠٠٠... ولم تكن هذه هي زيارتها الأولى لنا في مصر. فقد جاءت أول مرة عام ١٩٧٦، حيث سافرنا معاً إلى الأقصر وأسوان. وأذكر هذه الزيارة جيداً، لأن زوجتي **باربارا** أصيبت في أسوان بمرض الصفراء، واضطررت للعودة بها فوراً إلى القاهرة، وتركنا **نانسي** تكمل بقية الرحلة... وكنا ندرك منذ سنوات بيروت الاستقلالية التي تتمتع بها. وكانت زيارتها الثانية عام ١٩٨٦، أثناء أحداث الأمن المركزي، وكنت أنا في عمان معظم أيام زيارتها... ومع ذلك في مستشفى النيل بدراوي حيث أجريت لها عملية الزائدة الدودية. وكانت زيارتها الثالثة في مارس ١٩٩٥ لحضور عرس **راندا ونبيل** ثم جاءت زيارتها الرابعة في مارس ٢٠٠٠، رغم تحذيرنا لها حول التهديدات التي كنا نتلقاها، والتي زادت وتيرتها بمرور الوقت وأصرت **نانسي** على الحضور، معلنة أنه لو كانت أسرة شقيقتها في خطر، فهي تريد أن تكون معهم كنوع من التضامن والتحدي... وهكذا كانت **نانسي** التي تصغر زوجتي بثلاثة أعوام وأثناء تلك الزيارة حضرنا سوياً إلى منزلنا الصحراوي الجديد في منطقة وادي النطرون، حيث قضينا الليلة وحدهما

في تلك المنطقة المعزولة... لقد كان ذلك تدشيناً للمنزل من ناحية، وإعلاناً عن جسارة الشقيقتين من ناحية أخرى. كنت أنا خارج البلاد في ذلك الوقت. وحينما علمت بما فعلته الشقيقتان قلت لنفسي "يا لها من أسرة... تلك التي صاهرتها"!.

مواجهة مع رئيس مباحث أمن الدولة

مع تضاعف التهديدات التليفونية والبريدية للمنزل ولمركز ابن خلدون، وفي ضوء استخفافي بها، اضطرت زوجتي لإبلاغ أمن الجامعة الأمريكية، الذي أبلغ بدوره رئيس الجامعة والسفارة الأمريكية... وأبلغت أنا جهاز أمن الدولة... بل وأرسلت للجهاز نسخاً صوتية وكتابية مما كان يرد للأسرة من تهديدات وفي خلال أيام من هذا الإبلاغ تحركت الجامعة ووضعت على منزلي حراسة دائمة لمدة أربع وعشرين ساعة كذلك بدأ أمن السفارة الأمريكية يضع حماية عن بعد على زوجتي بصفتها مواطنة أمريكية وقد ساعد على سرعة رد فعل الجامعة والسفارة علاقة الصداقة التي تربطنا بأسرة **د.جون جيرهارت** رئيس الجامعة، والسفير الأمريكي **دان كيرتزر**.

عز عليّ أن تهتم الجامعة الأمريكية والسفارة بحماية مواطنة أمريكية خلال ساعات من إبلاغها بالتهديدات بينما لم يحرك جهاز أمن الدولة المصرية ساكناً من أجل تقديم هذه الحماية لمواطن مصري استنجد بالجهاز وتصادف أن عبرت عن حزني هذا لمجلس الأمناء في اجتماع له في شهر أبريل، فما كان من عضو المجلس **د.مصطفى الفقي** إلا أن تتطوع بتخمين السبب وهو أن الجهاز نفسه قد يكون هو مصدر هذه التهديدات... فهو من خبرته كمساعد لرئيس الجمهورية سابقاً، ولعدة سنوات، قد صادف مثل هذه التهديدات لترويع أو إسكات أحد الشخصيات العامة التي يرى الجهاز أنها تجاوزت خطوطاً حمراء أو حتى برتقالية... وطبعاً تفعل الأجهزة ذلك مُدعية أن التهديدات تأتي من مصادر أخرى بعيدة عنها... ثم إذا لجأ إليها المواطن الذي يقع عليه التهديد بدأت في "مساومته" أو "تصيحته" أو "ابتزازه"!.

ورغم أنني لم آخذ كلام **مصطفى الفقي** محمل الجد في البداية، إلا أنه مع زيادة التهديدات، وتبرع أحدها بأن ينقل إلي تفصيلاً خطة اغتيالي على الطريق الذي يصل الأتوستراد بالمقطم، أثناء ذهابي أو إيابي بين مركز ابن خلدون بواسطة شاحنة ضخمة، تصطدم بسيارتي، وتلقي بها من أحد مرتفعات الطريق إلى سطح مجاور... وفي ضوء ذلك بدأ القلق يساورني فعلاً. فصاحب التهديد يعرف فعلاً منحنيات الطريق وعادات وساعات ترددي على المركز... لذلك طلبت من صديقيّ **د.علي الدين هلال ود. أمينة الجندي** أن يرتبا لي مقابلة إما

مع وزير الداخلية اللواء **حبيب العادلي**، أو رئيس جهاز مباحث أمن الدولة اللواء **صلاح سلامة** وجاء ترتيب لقاء هذا الأخير أولاً، فتوجهت لمقابلته في الأسبوع الثالث من إبريل، في مكتبه بوزارة الداخلية بلاظوغلي، الذي طالما قابلت فيه **سلامة**.

استقبلني اللواء **صلاح سلامة** بمودة جادة. وكانت المرة الأولى التي أقابل فيها الرجل سألته عما إذا كان قد تسلم رسالتي ومرفقاتها من تسجيلات صوتية وكتابية وأجاب بنعم، فسألته، ولماذا إذن لم يرد عليّ الجهاز أو يتخذ أي إجراءات حمائية فأجاب الرجل بأن الجماعات الإسلامية المنظمة هي تحت السيطرة تماماً، منذ حادث الأقصر (نوفمبر ١٩٩٧)، ولا يبدو أن هذه الجماعات هي مصدر التهديدات طبقاً لتحليلات خبراء الجهاز الذين فحصوا التسجيلات، وانتهى إلى أن مصدرها أفراد"مهاويس" دينياً، من النوع الذي يوجد بالمئات من آحاد المسلمين، ولا يمكن معرفة كل "مهووس" ديني في مصر ومراقبته.

وأن أحد هؤلاء "المهاويس" هو الذي قام بمحاولة الاعتداء على الرئيس **مبارك** أثناء جولته الانتخابية في بورسعيد في أكتوبر الماضي (١٩٩٩)... لذلك فنصيحة الجهاز هو "أن أتوقف عن استفزاز هؤلاء المهاويس دينياً"!.

ـ كيف أفعل ذلك يا سيادة اللواء؟.

ـ تفعل ذلك بالكفّ عن الحديث أو الكتابة في الموضوعات التي تستفزهم.

ـ وما هي هذه الموضوعات المستفزة لهؤلاء "المهاويس"؟.

ـ حديثك الدائم عن اضطهاد الأقباط.

ـ ولكني لم أتحدث عن اضطهاد الأقباط.

ـ وماذا عن المحاضرة المستفزة التي ألقيتها في الكتدرائية المرقسية في شهر فبراير الماضي؟

– لم تكن هذه محاضرة عن اضطهاد الأقباط. فهم لا يتعرضون للاضطهاد ولكن فقط للتفرقة في المعاملة.

ـ وما هو الفرق يا دكتور؟.

ـ الاضطهاد هو سياسة رسمية تستهدف إيذاء جماعة بعينها أما التفرقة فهي سلوك عشوائي غير مقصود، ويتم بشكل عفوي لا شعوري، وقد يحدث حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

ـ على كل لماذا تصرّ يا دكتور للإلحاح على موضوع الأقباط؟

ـ أنا لا ألح عليه... ولكن الموضوع هو الذي يلح عليكم وعليّ. فلا يمكن أن يحدث ما وقع في الكشح مرتين في سنتين متتاليتين... وقبله خمسين حالة اصطدام عنيف بين مسلمين وأقباط بين عامي ١٩٧٢ في الخانكة و٢٠٠٠ في

الكشح، ثم يتجاهلها عالم اجتماع سياسي أو مركز بحثي مثل مركز ابن خلدون... مثلما لا يستطيع جهاز مباحث أمن الدولة تجاهل الظاهرة.
ـ نحن نهتم بالظاهرة لأن هذا عملنا ـ حماية أمن الدولة داخلياً، فنحن مباحث أمن الدولة.

ـ ونحن نهتم بنفس الظاهرة لأن هذا عملنا حماية أمن المجتمع فنحن باحثون في شؤون المجتمع السوية والمرضية على السواء... ونحن نشترك معكم في حوالي ٨٠% من العمل. فنحن أيضاً نجمع المعلومات، ونبوبها ونحللها، ونستخلص منها تفسيرات للظاهرة، وهو ما تفعلونه أنتهم أيضاً. أما الفروق ٢٠% فهي في السرية وفي العلنية... أنتم تحتفظون بمعلوماتكم في ملفات سرية، أما نحن فمن فرط سذاجتنا ننشرها في مقالات وكتب.
ـ هل تريد أن تقول لي يا دكتور أن المادة التي استخدمتها في محاضرة الكتدرائية ليست من عمل أجهزة خارجية؟.
ـ أعوذ بالله... إن المحاضرة بنيت على معلومات وبيانات من مصادر رسمية مصرية، وتحديداً من مصادر وزارة الداخلية. إن الفارق بين الباحث و "المباحث" هو حرف "الميم" أي منهج العلنية والسرية!.
ـ على أي الأحوال يا دكتور لن نستطيع أن نحميك من المهاويس، فهذا واجبك نحو أسرتك... لا بد أن تقلع عن موضوع الأقباط الذي يستفز المهاويس!.
. ربما سأفعل ذلك حينما يُقلع جهاز أمن الدولة عن ممارساته التي تستفز سبعة مليون قبطي في الداخل وفي المهجر... وأشكركم لحسن الاستقبال!.

مؤتمر جورجتاون... والقميص المضاد للرصاص

حكيت لأسرتي تفصيلاً عن مقابلتي مع اللواء **صلاح سلامة**، والتي حضر جزءاً منها أحد مساعديه وهو عميد أعطاني أرقام هواتفه للاتصال به إذا تكررت أو تفاقمت التهديدات وقد استخلصنا معاً أن تخمين **مصطفى الفقي** كان هو الأدق. ففي فقرة من الحديث قلت لرئيس الجهاز "ربما لايمكنكم التعرف على كل مهاويس مصر... ولكنكم تعرفون الشخص المستهدف، لماذا لا تحمونه، مثلما حاولتم ذلك في ثلاث مناسبات سابقة، دون أن أطلب منكم..." وكان تعليق ذلك اللواء مدعياً "إن الحماية ممكنة طبعاً... ولكننا لا نريد أن يفهم الناس أننا نؤيد أو نوافق على ما تقوله في محاضراتك ومقالاتك!".

وقد نصحني أحد خبراء الأمن المصريين من أصدقاء صهري **نبيل**، وهو **أيمن مظهر**، أن أشتري قميصاً واقياً من الرصاص أثناء رحلتي المرتقبة إلى الولايات المتحدة، ووافني بعناوين للمحلات المختصة ببيع هذه الأشياء في واشنطن ونيويورك وشيكاغو... كما قدم عدداً من النصائح عن طريقة قيادة السيارة، وأهمية تغييرها وتغيير السائق وطرق الذهاب والإياب، وما إلى ذلك.

وبالفعل كان على قمة جدول أعمالي في رحلتي في الأسبوع الأخير من أبريل ١٩٩٩ شراء القميص الواقي من الرصاص، الذي اختارته معي زوجتي، التي حرصت خلال تلك الفترة على اصطحابي في كل سفرياتي الخارجية ومنها تلك التي حضرت فيها المؤتمر السنوي لمركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورجتاون... وكان في تلك السنة حافلاً، حيث صادف اليوبيل الفضي لإنشاء المركز قبل ربع قرن (١٩٧٥).

كان من المدعوين معي إلى المؤتمر الأصدقاء: **د.حازم الببلاوي**، الذي كان وقتها مساعداً للأمين العام المتحدة ومدير اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغرب أسيا، و**د.جلال أمين**، زميلي في الجامعة الأمريكية، و**د. إبراهيم كروان**، أستاذ العلوم السياسية بجامعة يوتا.

كان موضوع محاضرتي هو ماذا تبقى من حلم الوحدة العربية، وقد بدأتها بإسماع الجمهور المشارك في المؤتمر شريط أغنية ذاع صيتها بشكل غير مسبوق طوال العشرين سنة الأخيرة وعنوانها "الحلم العربي" ويغنيها مجموعة من المطربين والمطربات من كل أنحاء الوطن العربي من الخليج إلى المغرب... وهي تذكر الأجيال الأكبر بأغنية مشابهة ظهرت قبل أربعين عاماً بعنوان "وطني حبيبي... الوطن الأكبر" وكان تركيزي هو على أن حلم الوحدة مازال حياً... ولكن يظل "حلماً" يتجدد مع كل جيل، بدليل الانتشار غير المسبوق للأغنية الجديدة في كل أنحاء الوطن العربي... وأضفت من عندي أن إمكانيات تحقيق هذا الحلم ولو جزئياً ترتبط بانتشار الديموقراطية ولكن يكتب لأي مشروع وحدوي عربي النجاح والاستمرار ما لم يكن بين أقطار عربية ديموقراطية... وهو ما يفسر نجاح الأوربيين في تحقيق تكاملهم الذي يمضي بثبات نحو الوحدة الفيدرالية الكاملة... وانني متفائل بمستقبل التحول الديموقراطي العربي خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، وبالتالي بتحقيق تكامل عربي تدريجي، يؤدي إلى وحدة عربية فيدرالية مع النصف الثاني من نفس القرن (٢٠٢٥-٢٠٥٠).

محاضرة في جمعية النداء الجديد
الرد على أعداء مركز ابن خلدون

رأينا أصدقائنا في واشنطن ونيويورك على هامش رحلتنا لمؤتمر جورجتاون... واشترينا قميصاً واقياً من الرصاص، وزنه حوالي ٥ كيلو جرام... وحينما جربته وجدّته غير مريح بالمرة، وأيقنت لماذا لم يرتديه الرئيس الراحل أنور السادات **كل الوقت. وأذكر أنني أرتديته بدوري ما لا يزيد عن خمس مرات كنت أحضر فيها مناسبات عامة... وبعد ذلك أهملته... ولكني احتفظت به لدى مرحلة التهديد والترويع... ولوقت الطوارئ حقيقية.**

مع عودتي إلى الوطن وجدت أن الحملة في صحف المباحث الصفراء ما زالت مستمرة... وقبلت دعوة من روز اليوسف للاجتماع مع هيئة تحريرها والرد على كل تساؤلاتهم... ثم قبلت دعوة من جمعية النداء الجديد لإلقاء محاضرة عن فلسفة ومنطلقات وممارسات مركز ابن خلدون. وامتلأت القاعة بالمستمعين وفاضت إلى خارجها كما حرصت بعض وسائل الإعلام العربية والأجنبية على تغطية المناسبة، والحوار الساخن الذي أعقب المحاضرة، الذي استمر حوالي ثلاث ساعات.

وكالعادة أثيرت مسائل التمويل، والعلاقات بالخارج، والموقف من "التطبيع" والسلام، والتطرف، والديموقراطية، وحالة المجتمع المدني مصرياً وعربياً.

د.سعيد النجار

لم تكن محاضرة النداء الجديد عن مركز ابن خلدون إلا تعبيراً عن مشاعر التقدير والاحترام والحب المتبادل بيني وبين **د.سعيد النجار**. وقد تزايدت هذه المشاعر بمرور السنين، حتى أصبحت أعتبره أصدق أصدقائي، رغم فارق العمر، الذي يصل إلى حوالي عشرين عاماً، بيني وبينه. وقد جمعنا معاً الاهتمام بالشأن العام، والليبرالية الحقيقية، التي كانت متأصلة فيه منذ بداية حياته، بينما لم أعتنقها أنا إلا في نهاية الثلاثينات من عمري. وكانت تجربة اللجنة المصرية المستقلة لمراقبة الانتخابات عام ١٩٩٥، والتي انتخب هو لرئاستها، وانتخبت أنا لكي أكون أمينها العام، هي المناسبة التي توثقت من خلالها علاقتنا... ثم تدعمت العلاقة أكثر وأكثر من خلال عملنا في اللجنة الوطنية للتضامن مع الشعب العراقي، ثم اللجنة المصرية ؟؟؟ الإسلامي القبطي التي أصدرت "بيان المئة" في أعقاب أحداث الكشح الثانية (فبراير ٢٠٠٠)، والتي أصبحت من وقتها تعرف باسم "لجنة المئة" وتعرفت زوجته، **جيرتا** النرويجية الأصل بزوجتي **باربارا**، الأمريكية الأصل، وتصادقتا.

وكـان لنـا أصـدقاء مشتركيـن عديديـن ـ منـهم **د.إبراهيـم شـحاته** و**د.رشـدي سعيـد**، و**د.إسـماعيل سـراج الـدين**، و**د.فـوزي هيكـل**، والـذين كـانوا يعيشـون فـي واشـنطن، وكانـت زيـاراتهم الدوريـة لمصـر مناسـبة إضـافية لرؤيـة **سعيد وجيرتا**، في منزلي أو منزلهما أنني أعتبر صداقة هذا الرجل تفويضاً عن صداقات أخرى ؟؟؟ في السنوات الأخيرة مثل (**السيد يس**، و**علـي الدين هـلال**، و**خير الدين حسيب**).

خطاب سوزان مبارك للقمة الاجتماعية

من الأشياء التي كنت أقوم بها بين الحين والآخر هو إعداد كلمات السيدة **سـوزان مبـارك** للمناسبات العامـة التـي تزايد اشـتراكها فيها فـي السنوات الأخيرة وكـان ذلـك يسعدني لا فقد لأنـها تلميذة سابقة لـي، ولكـن أيضـاً لتبنيهـا المستمر لقضـايا اجتماعيـة ومشـروعات قريبـة إلـى عقلـي وقلبـي... وزاد مـن قيـامي بهـذا الـدور، وإعـداد أوراق عمـل لهـا وجـود تلميـذة سـابقة أخـرى قريبـة منهـا وهـي **د.أمنيـة الجنـدي** وزيرة التأمينات والشؤون الاجتماعيـة... وأصبحت هذه الأجهزة هي حلقة الوصل بيننا بدلاً من **أسامة الباز**، أو سكرتير **سوزان** اللواء **بدر**.

وقد طلبت مني **أمينة** أن أُعد كلمة **لسوزان** في مؤتمر "القمـة الاجتماعيـة"، الـذي يعقـد فـي جنيـف فـي منتصـف يونيـه ٢٠٠٠، والـذي كنـت بـدوري مـدعو للمشاركة فيه... كذلك كنت قد تقدمت بورقة للقمة الاجتماعيـة الأولـى فـي مـارس ١٩٩٥، ولكنـي لم أشارك فيها شخصياً لتزامنها مـع عرس ابنتـي **رانـدا**... فقدمها اثنان من باحثي ابن خلدون وقتها وهما **أيمن خليفة ونجاح حسن**.

كنت أرى **أمينة الجندي** مرة كل أسبوع تقريباً، منذ تعيينها وزيرة قبل سبعة شهور، حيث كنت مستشار غير رسمي لها. كانت قمة كوبنهاجن الأولـى للتنمية الاجتماعية عن البطالة والفقر والتفسخ الاجتماعي وكانت قمة جنيف الثانية هي لمقاومـة مـا أنجزتـه كل دولـة والعالم كلـه حول مواجهتـه هذا الثالوث. وقد أعدت ورقـة **لسـوزان** حـول الموضـوع، ولكنـي تخلفت عن الذهاب إلـى جنيـف هذه المرة أيضـاً.

يونيو ٢٠٠٠
رحيل الأسد، الجملوكيات العربية، القبض على ابن خلدون

كـان شـهر يونيـه شـهراً حـافلاً بالأحـداث علـى المستوى الإقليمـي، وعلـى المستوى الشخصـي.

ففي بداية الشهر (١٠ يونيه ٢٠٠٠) انتقل الرئيس السوري **حافظ الأسد** إلـى الرفيق الأعلـى، بعد مرض طويل. ورغم أن الوفاة كانت متوقعـة، إلا أن الحـدث

هز المنطقة. فقد كان الرجل رئيساً لبلد عربي هام في المشرق، لما يقرب من ثلاثين عاماً. أي أن معظم السوريين والعرب لم يعرفوا رئيساً لسوريا سواه. كما أن رئاسته تمثل أكثر من نصف تاريخ سورية الحديث، وجاءت بعد سلسلة طويلة من الانقلابات العسكرية، التي كان أولها عام ١٩٤٩ في أعقاب أول هزيمة عربية في الصراع على فلسطين (١٩٤٨/١٩٤٩). لذلك فمن حسنات الرجل أنه أعطى سوريا، أطول فترة استقرار سياسي في العصر الحديث. ولأن سوريا تجاور حدودياً ست بلدان هامة في الشرق الأوسط، بعضها عربية وبعضها ليس كذلك، تركيا، وإسرائيل (فلسطين)، فإن استقرارها ينطوي على مساهمة في الاستقرار الإقليمي، والعكس صحيح. وقد لعب **حافظ** بورقة الموقع الإقليمي الهام لسورية بمهارة منقطعة النظير. فقد شارك مع مصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣. ثم في الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٦-٢٠٠٤)، وفي حرب تحرير الكويت (١٩٩٠/١٩٩١).

لذلك لم يكن مستغرباً أن يهرع عشرات من زعماء العالم للمشاركة في جنازة **الأسد**. واستعدت لذلك كل وسائل الإعلام العربية والعالمية، ومنها "أوربت" أحد الفضائيات العربية الرئيسية، والتي دعتني للمشاركة في تغطية الجنازة، مع أحد مذيعيها المرموقين، **عماد الدين أديب**، الذي يقدم برنامجاً حوارياً يومياً، بعنوان "على الهواء". وكنت قد ظهرت ضيفاً في البرنامج عدة مرات... كما كان لي دور في إنشاء هذه الفضائية أصلاً من خلال دراسة كنت في أعددتها للأمير **خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود**، شقيق أحد أصدقائي من أيام الدراسة في سياتل، وهو الأمير **بندر**. وافقت على الدعوة، دون أن أدرك أو يدرك المسؤولون عن الشبكة، أن الحدث سيستمر ١٢ ساعة، منذ الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساء. فقد استغل المسؤولون السوريون المناسبة إعلامياً للترويج للنظام داخلياً وعربياً وعالمياً.

وطوال هذه الساعات، كانت الكاميرا تتابع المعزين من مختلف الدول، منذ الوصول إلى المطار، إلى القصر الجمهوري، حيث مقر العزاء. وكان عليّ أن أعلق على العلاقات بين البلد الذي أتى منه هذا الزعيم أو ذاك، وسورية، وأن أجيب على أسئلة المشاهدين من كل أنحاء العالم. وضمن ما أثير من تساؤلات بهذه المناسبة كان حول "الخلافة"، من سيخلف **حافظ الأسد** كرئيس لسورية. لم تكن الإجابة صعبة أو تحتاج إلى خبير. فقد كان **بشار الأسد**، نجل الرئيس الراحل، هو الذي يستقبل الرؤساء والزعماء، رغم أنه لم يكن يشغل منصباً رسمياً يؤهله لذلك. فقد كان هناك نائب رئيس ووزير خارجية، وكانوا جميعاً مؤهلين بروتوكولياً لاستقبال الزعماء الأجانب. المهم أنه ضمن ما قلته رداً على من

أثاروا هذا التساؤل، هو أننا بصدد ظاهرة جديدة في العالم العربي، وهي إعداد الرؤساء لأحد أبنائهم، لكي يخلفه في السلطة. وتلقيت عدة أسئلة على هذه الملاحظة، وكان الوقت يسمح للمشاهدين ولي بالاستطراد في التعليق... ومع قرب نهاية تغطية الحدث، كنت والمشاهدين قد طورنا نظرية عارضة، تحت اسم "الجملوكية"، وهي كلمة منحوتة من طبيعة هذه الظاهرة الجديدة في الجمهوريات العربية، التي جعلها تقترب من الملكيات الوراثية. وبذلك فهي جمهورية اسماً، وملكية فعلاً، ووجدت أن أقرب كلمة لهذا المفهوم هو جملوكية.

وضمن ما قلته في تطوير هذه الملاحظة، هو أنه يبدو أن أي حاكم عربي يظل في السلطة أكثر من عشر سنوات، يشعر هو وأسرته، أنهم أصبحوا يملكون البلد، كضيعة أو غنيمة، وكأي "ملكية خاصة"، من حق ذويه أن يرثوها من بعده. فإذا كان من بينهم ابنٌ قد تجاوز الثلاثين، فستكون الرئاسة من نصيبه!.

بعد هذا التطوير في الصياغة تلقيت سؤالاً مداعباً أو شاغباً من **د.غسان سلامة**، أستاذ العلوم السياسية في السوربون بباريس عن البلدان العربية الأخرى التي يمكن أن تنطبق عليه نظرية "الجملوكية" هذه، فقلت يبدو لي أنه إلى جانب سوريا، فإنها تنطبق على العراق واليمن وليبيا. أما تونس، فلا يوجد للرئيس **زين العابدين بن علي ولدٌ ذكر**. فتلقيت سؤالاً آخر على الفور: وماذا عن مصر؟

ورغم محاولة التهرب من الإجابة، بدعوى أن مصر مختلفة، وأنها دولة مؤسسات، وأن الرئيس **مبارك** نفسه كان قد نفى هذا الاحتمال، إلا أن السائل أصرّ على أن سوريا والعراق أيضاً به نفس المؤسسات. فأذعنت، وقلت هذا صحيح، ويمكن أن نرى نفس الشيء في مصر أيضاً.

في اليوم التالي اتصلت بي مجلة "المجلة" الأسبوعية التي تصدر من لندن، وألح عليّ رئيس التحرير أن أكتب لهم مقالاً عن "الجملوكيات العربية". واستجبت. وفي اليوم الذي ظهر فيه المقال في الصباح، تم القبض عليّ في المساء.

التخطيط لمراقبة انتخابات ٢٠٠٠

كان سبب تخلفي عن القمة الاجتماعية في جنيف سنة ٢٠٠٠ هو انشغالي بالتخطيط لمراقبة الانتخابات البرلمانية، التي كانت ستعقد في أكتوبر.

وكالعادة اشترط **د.سعيد النجار** للمشاركة في اللجنة المصرية المستقلة ورئاستها أسوة بما حدث في ١٩٩٥ هو أن أقوم بدوري بمهام الأمانة العامة...

وحينما اقترحت أن يقوم بهذا الدور أحد الشباب من المنظمات الحقوقية التي تكاثرت في السنوات الأخيرة... قال: جرياً على نفس المنطق، ليتولى الرئاسة أحد الوجوه الأخرى أيضاً... وبعد فترة من المشاورات مع المنظمات الست التي شاركت في ١٩٩٥، اتضح أن دعوة شخصيات عامة وإجراء انتخابات أخرى قد يستنفذ الطاقة ويؤدي إلى مزيد من الفرقة بين المتنافسين من مديري المنظمات الحقوقية... حيث كان أحدهم وهو **أمير سالم** في صراع دائم مع آخرين ومنهم **نجاد البرعي وحافظ أبو سعده**، وكان ثلاثتهم لا يستريحون لرابع وهو **بهي الدين حسن** رئيس مركز القاهرة لحقوق الإنسان... ولكنهم جميعاً يجمعون على د.**سعيد النجار**، وبدرجة أقل على شخصي... وانضم إلى المؤسسات الست الأهلية مركزين جديدين، أحدهما يحمل اسم المرحوم **هشام مبارك**، الذي اختطفه الموت وهو في ريعان الشباب، وكان أحد أعمدة اللجنة المستقلة عام ١٩٩٥... وتخليداً لذكراه قام أحد أقربائه وخلصائه وهو الشاب الواعد **جاسر عبد الرازق** بإنشاء هذا المركز الجديد.

اتجهت النية إلى توسيع قاعدة اللجنة المصرية المستقلة سواء من حيث عضوية المنظمات أو عضوية الشخصيات العامة. كذلك اتجهت النية إلى مضاعفة عدد المراقبين من ستمئة إلى ٢٤٠٠، وبحيث تشمل المتابعة في عام ٢٠٠٠ كل الدوائر الـ ٢٤٤، أي بمعدل عشرة مراقبين مدربين لكل دائرة، على أن يستعين هؤلاء بدورهم بمتطوعين محليين، بنفس العدد على الأقل. أي أننا كنا نتحدث عن حوالي خمسة آلاف مشارك في عملية المتابعة.

وكانت الخطة هو أن يقوم الستمئة الأصليين بتلقي متابعة تدريبية في القاهرة أو في معسكر عمل في العين السخنة لمراجعة أساسيات المراقبة في المراحل الخمسة للعملية الانتخابية وهي فتح باب الترشيح، الحملة الانتخابية، التصويت، فرز الأصوات، إعلان النتيجة. ثم يتم تقسيم هؤلاء الستمئة على مناطق القطر: القناة/سيناء/الدلتا/الإسكندرية/مطروح/الوادي الجديد/القاهرة الكبرى/الصعيد، ليقوموا هم بمهمة التدريب للمتطوعين الجدد. كذلك اتجهت النية على أن يقوم كل مركز أو منظمة من أعضاء اللجنة بمهمة الإشراف على أحد المناطق الكبرى من البداية إلى النهاية، ويقوم مركز **أمير سالم** ودار المحروسة بتوثيق كل ما يتعلق بالانتخابات من قرارات إدارية، وحزبية، وإعلامية.

واتجهت النية أيضاً أن يتم التمويل بشكل لامركزي، بحيث يقوم كل مركز بتوفير الاعتمادات اللازمة، على ألا يتكرر التقدم للممولين الخارجيين من أكثر من منظمة مصرية... وأن يتم كل ذلك في شفافية كاملة.

كان من الواضح أن متابعة انتخابات ٢٠٠٠ ستكون مهمة جبارة، يقع معظمها على عاتقي وعاتق مركز ابن خلدون الذي أوكلت له مهمة الأمانة الفنية للجنة. وكنا سنبدأ أول مراحل الخطة يوم ٢٠٠٠/٧/١.

بناء مركز ابن خلدون

١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠

أسست مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية رسمياً عام ١٩٨٨، مستخدماً في ذلك القيمة المالية لجائزة الكويت في العلوم الاجتماعية والاقتصادية التي حصلت عليها عام ١٩٨٥، ومدخرات أخرى، أوصلت المبلغ الإجمالي لحوالي مليون جنيه مصري، بأسعار تلك الأيام. كما استخدمت للغرض ذاته فيلا كنا نملكها في هضبة المقطم. وكنا قد بنيناها على الطراز الأندلسي، حول فناء تتوسطه نافورة، من طابقين فوق الأرض، وطابق تحت الأرض، وصممها **عمر الحكيم**، أحد تلاميذ المعماري المصري **حسن فتحي**، وتحت إشرافه.

اخترت للمركز صيغة قانونية فريدة، وهو شكل الشركة المدنية، غير الهادفة للربح. وقد اهتدينا لذلك بالتنقيب في مواد القانون المدني المصري، الذي أبدعه علامة القانون **عبد الرازق السنهوري** باشا، عام ١٩٤٨. فقد كانت المادة ٥٠٥ من هذا القانون تسمح بإنشاء هذا النوع من الشركات، التي لا تتاجر بالسلع أو تنتجها، ولكنها تعمل في المجالات المهنية، وعمادها الأفكار والخبرات والمهارات والخدمات. فإذا فاضت إيراداتها عن نفقاتها، فإن الشركة تدفع ضرائب على هذا الفائض، كضرائب مهنية غير تجارية، وقد وجدت أن هذا أفضل للأغراض التي من أجلها أنشأت المركز، حيث يعطيه هذا الشكل القانوني حرية الحركة والتعامل مع أي أطراف داخلية أو خارجية دون الحاجة إلى تصريح من أي جهة حكومية. وكان من شأن ذلك تجنب وزارة الشؤون الاجتماعية والقانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤، الذي قتل العمل الأهلي والمجتمع المدني المصري. وبمجرد معرفة آخرون بهذا الشكل القانوني فإنهم قاموا بمحاكاته، وانتشر مصطلح الشركات المدنية، وممارساتها لأنشطة مماثلة لأنشطة مركز ابن خلدون.

لم يكن كثيرون يصدقون أنه يمكن القيام بأنشطة عامة دون إذن أو تصريح من جهة ما في الدولة. كذلك لم تصدق الأجهزة الأمنية أنه يمكن لأحد أن يقوم بنشاط عام ـ مثل الندوات والمؤتمرات ـ دون إذن منها. وحينما كثر عدد هذه الشركات المهنية على شاكلة مركز ابن خلدون، بدأت الجهات الأمنية تفتش في الستين ألف قانون الذين تزخر بها مدونة القوانين المصرية أو تفكر في صياغة قانون جديد أو إضافة لقانون قائم حتى تستعيد سيطرتها على كل القضاء المصري العام. وهو ما فعلته بعد إثنى عشر عاماً من إنشاء المركز، حينما

عثرت على أمر عسكري (رقم ٤ لسنة ١٩٩٢) يمكنها من ذلك. ولكن هذه قصة أخرى لم يحن أوانها بعد.

رغم تأسيس المركز رسمياً سنة ١٩٨٨، إلا أنني أتفرغ له منذ البداية، كما كنت قد خططت وعزمت. وذلك لاستمرار مسؤولياتي عن منتدى الفكر العربي في عمان، والتي استمرت فعلياً، نتيجة إلحاح الأمير **الحسن** وأمناء المنتدى، إلى النصف الثاني من عام ١٩٩٠.

خلال السنتين الأولتين، كان المركز يعمل أعمالاً خفيفة أو ما يسمى في لغة تشغيل المؤسسات "افتتاح خفيف". وكانت تديره مساعدتي الوفية **نعمت جنينة**. وإليها يرجع الفضل في استكمال تجهيزاته خلال أعوام ١٩٨٨،١٩٨٩، و ١٩٩٠. وقد كانت قد اكتسبت خبرة واسعة في هذا الصدد من دور مشابه قامت به من قبل في تأسيس مكتب مركز دراسات الوحدة العربية (في ١١ شارع رشدان بالدقي)، ومقر المنظمة العربية لحقوق الإنسان (١٩ ميدان أسوان بالعجوزة). وكانت **نعمت** ذات ذوق فني رفيع، وقدرات إدارية فذة، وأمانة شديدة... وأهم من ذلك كله كانت، ربما بسبب الحب، متفانية في خدمتي. لذلك كنت أسلم لها أي مهمة، وأنا متأكد تماماً أنها ستقوم بها على خير وجه.

حينما عدت نهائياً لمصر، تفرغت لبناء مركز ابن خلدون. كانت خلفي خبرات بناء وإدارة أربع منظمات غير حكومية سابقة: مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، منتدى الفكر العربي، والمجلس العربي للطفولة والتنمية. وكانت كل من هذه المنظمات السابقة مختلفة ـ إما في الأهداف، أو المؤسسين، أو نوع النشاط أو التمويل، أو الجمهور المستهدفة وكذلك سيكون مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.

بعد الإطار القانوني والتنظيمي، كان لا بد من نقاط ارتكاز تميز نشاط المركز الجيد، وتجعله رائداً، ومتميزاً، ومفيداً. كانت التنمية المتكاملة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية هي مجالات نشاط المركز. ولكن مفهوم "التنمية" كان قد أصبح دارجاً، وشائعاً، ومائعاً من كثرة الاستخدام، وليس بالضرورة من كثرة الممارسة.

وقد وجدت ضالتي المنشودة في مفهوم "المجتمع المدني"، فأصبح ذلك هو علم ابن خلدون. وكان المفهوم جديداً، لا فقط على الساحتين المصرية والعربية، ولكن على الساحة العالمية أيضاً. وفي خلال عام من استخدامنا له، بدأ تدور مساجلات حامية الوطيس، حول ما يعنيه المفهوم. المهم أن المركز الجديد أصبح رائداً منذ البداية، على الأقل في شيئين: إطاره القانوني المبتكر كشركة

مدنية، طبقاً لمادة في القانون المدني منذ عام ١٩٤٨، ولكن لم يستخدمها أحد تقريباً، قبل مركز ابن خلدون.

وتكرست زيادة المركز بنوع البرامج المستحدثة والجرئية، والتي لم يجرؤ كثيرون على الاقتراب منها ـ على الأقل بالطريقة التي اقتحمها ابن خلدون. وخلال السنوات الثلاث الأولى كانت هناك خمسة برامج رئيسية، هي:

- المجتمع المدني والتحول الديمقراطي.
- المِلَل والنِحَل والأقليات.
- الحركات الإسلامية الاحتجاجية.
- السكان والتنمية.

وكل من هذه البرامج ينطوي على مشروع أو أكثر. وتوقف عدد المشروعات في كل برنامج على التمويل المتاح. كما كانت هناك مشروعات منفردة، أي ليست مندرجة تحت أي من البرامج الخمسة، وكان المشروع، ـ سواء كان منفرداً أو جزء من برنامج أكبر من البرامج الخمسة الرئيسية ـ هو نشاط بحثي أو تنظيمي أو ترويجي، له ميزانية، وبداية، ونهاية، ومنتج نهائي. وكان هذا المنتج النهائي هو مؤتمر، أو ندوة، أو كتاب، أو نشاط ميداني، مثل مراقبة الانتخابات.

لم يكن مركز ابن خلدون معروفاً في البداية للمراكز البحثية الأخرى، أو الهيئات الدولية، أو جهات التمويل. ولكن مؤسسه كان معروفاً لدى هذه الأطراف. فلجأت لتحويل ما يدني أو يعرض علي من مشروعات بصفتي الشخصية إلى مركز ابن خلدون. فكانت فرصة لتمويل المركز من ناحية، وتعريف الجهات المانحة به ـ حيث كنت أخبر هذه الجهات أنني سأنفذ العمل المطلوب مني من خلال هذا المركز الجديد، الذي أصبحت أنا منتمياً إليه. وأعددنا لهذا الغرض كتيباً تعريفياً بأهداف المركز وبرامجه، وعلى غلافه صورة ملونة لمبنى المركز الجذاب بالألوان.

وكان من أوائل العقود الشخصية مع أطراف خارجية، والتي حولتها باسم المركز عقدين مع الشركة العربية الكبرى للمشروعات، ومقرها الرياض بالسعودية، وعقد مع المنظمة العربية للعمل في بغداد، وعقد مع منظمة الصحة العالمية في جنيف. وبعد ذلك، وابتداء من سنة ١٩٩٠ كانت التعاقدات تتم باسم المركز مباشرة. ففي هذه السنة مثلاً، تعاقد المركز مع مؤسسة فورد، ومجلس التعاون الخليجي، ومنظمة اليونيسكو، ومع **سعاد الصباح**، والمعهد الدولي الكندي لبحوث التنمية.

وكانت الأنظمة الداخلية للمركز، تفصل بين الملكية التي كانت لأسرتي، والإدارة، التي تولي رسم السياسات والمتابعة فيها مجلس أمناء يتكون من شخصيات عامة، ثم مجلس خبراء من مديري البرامج، ثم هيئة عامة من كل العاملين في المركز.

كان مجلس الأمناء يجتمع ثلاث أو أربع مرات سنوياً. وقد بدأ أول مجلس أمناء بسبعة أعضاء ـ **د.عبد العزيز حجازي** (رئيس وزارة أسبق) و**د.إبراهيم حلمي عبد الرحمن** (وزير تخطيط أسبق)، و**د.أسامة الخولي** (أستاذ هندسة ومفكر)، و**د.حامد عمار** (تربوي ومفكر)، و**د.على الدين هلال** (أستاذ العلوم السياسية)، و**د.عمر محي الدين** (أستاذ اقتصاد مرموق). وضم آخر مجلس أمناء خمسة وعشرين عضواً ـ منهم سفراء (**محمد شاكر، مراد غالب، أحمد خليل**)، ووزراء سابقين (**د.أحمد كمال أبو المجد، ود.محمود محفوظ**)، وفنانين (**محمد نوح، وحسين فهمي، وصفية العمري**)، ومديري مراكز بحثية شقيقة (**عبد المنعم سعيد**) ورؤساء جامعات (**محمد الجوهري**). كما انضم إلى المجلس السفير **مصطفى الفقي**، بعد التآمر عليه وإخراجه من العمل في رئاسة الجمهورية.

كان مركز ابن خلدون يدعو للديمقراطية والشفافية، ويمارسها عملياً، بشكل غير مسبوق وغير معهود في أي مؤسسة مصرية أو عربية وقد تجلى ذلك في الاجتماعات الأسبوعية لمجلس الخبراء، وكذلك هيئة العاملين، طوال يوم الثلاثاء من كل أسبوع. ومساء اليوم نفسه كان لقاء مفتوحاً للعاملين والأصدقاء والمريدين من خارج المركز فيما كان يسمى "رواق ابن خلدون"، والذي أداره في سنواته الأولى الصحفي **سليمان شفيق الماركسي**، وفي سنواته الأخيرة الأزهري الدكتور **صبحي منصور**. ومن الذين تحدثوا في رواق ابن خلدون المفكر المغربي **محمد عابد الجابري** ومفكرون وأساتذة عرب آخرون ـ مثل **الرميحي وأحمد الريفي وخلدون النقيب** (الكويت)، و**سليم نصر، وغسان سلامة** (لبنان)، و**منيرة فخرو** (البحرين)، و**السيد صادق المهدي** (السودان)، وسفراء من هولندا والصومال وأريتريا، والهند والولايات المتحدة ومسؤولين مصريين مثل وزير التعليم (**د.حسين كامل بهاء الدين**)، ووزير السكان (**د.ماهر مهران**).

حينما بدأ مركز ابن خلدون ينتقل بنشاطه من مرحلة الدراسات إلى "الدعوة"، بدأت مشكلاته ـ مع عدد من التيارات الفكرية والسياسية، أولاً، ثم مع الأجهزة الأمنية. ولكن العاملين في المركز كانوا قادرين لعدة سنوات من التعامل مع هذه المشكلات. وكان شعار الشفافية الذي استحدثه المركز في لغة الخطاب العربي العام، مصدر قوة لنا. فقد كان الباحثون في داخل المركز يسألون

ويناقشون كل شيء يقوم به المركز، والذي كان يعني علمياً ما يقومون هم أو زملاؤهم به كذلك لم يجد مني الباحثون أي امتعاض أو تحفظ في الإجابة عن أي سؤال أو مناقشة أي موضوع.

واتضح أن هذه الممارسات داخل المركز هي التي جعلته جذاباً لهم من ناحية ثانية. ووضع كل منهم على الحائط خلف مكتبه، لافتة بخط كبير تقول "ليس لدينا أسرار، أسأل عما تريد أن تعرفه عن عملنا". وبعضهم فضل إعلاناً آخر "ليس لدينا ما نخافه أو نخفيه" كذلك استحدثنا ممارسة أن يقوم الباحثون أنفسهم، وليس فقط رئيس المركز، أو المدير، أو منسق المشروع بالرد على ما يوجه للمركز أو أحد أنشطته من نقد أو هجوم.

كذلك تعود باحثوا المركز على آداب ومهارات الحوار، وفي مقدمتها الاستماع النشط، وعدم مقاطعة الآخرين، والتوقف عن النقاش والكلام إذا قاطعهم أحد، وطلب الحماية من بقية الحاضرين، أو من رئيس الجلسة أو الاجتماع طبعاً، حينما كان ينضم عضو جديد، كان يأتي "بعبلة"، مُحمّلاً بكل أمراض الثقافة المصرية ... ولكنه سرعان ما يتعود على الممارسات الخلدونية، يستمتع ويفخر بها. وأصبح ذلك طابعاً مميزاً للباحثين... الذين بدأوا من السنة الثالثة يلقبون أنفسهم "بالخلدونيين". وكانت مشاركتهم في أي أنشطة خارج المركز، تميزهم على الفور بالأسلوب (Style)، حتى لو لم يعلنوا عن هويتهم المؤسسية في البداية.

لا يعني ذلك أن المركز كان بلا مشاكل داخلية... فما أكثر ما كانت تظهر المشكلات ـ إما نتيجة التنافس بين البرامج، أو بين المشروعات داخل نفس البرنامج، أو نتيجة ضغط العمل، أو الغيرة "الجنسوية". ولكنا نجحنا إلى حد كبير في إبداع آليات مختلفة للتعامل مع هذه المشكلات كانت أهم الآليات هو الاجتماعات الدورية، التي كانت بمعدل اجتماعين أسبوعياً على مستوى كل برنامج، واجتماع واحد أسبوعياً، على الغداء، كل ثلاثاء. وبين الحين والأخر، كنا نصادف باحثاً لا يستطيع التكيف مع زملائه، رغم تغيير المشروع أو حتى البرنامج الذي يعمل به. وفي هذه الحالة، كنا نستغنى عن خدماته أو خدماتها، بشكل مهذب. وهناك من استغنينا عن خدماتهم وعادوا. وهناك من استغنينا عنهم، وشعروا بألم الفراق.

طريقة الإدارة الديمقراطية لمركز ابن خلدون كانت سر قوته، وأيضاً أحد أسباب مشكلاته مع المراكز البحثية الشقيقة والقوى السياسية المتربصة والأجهزة الأمنية المتشككة، وهو ما سنتعرض له حينما نتحدث عن معارك ابن خلدون...

فقد كان بعضها بسبب بعض العاملين في المراكز وبسبب أسلوبه الديمقراطي التعددي.

كنت حريصاً في بناء مركز ابن خلدون أن يجسم هيكله، والعاملين فيه، وبرامجه وطريقة إدارته كل ما ندعو إليه من قيم وممارسات المجتمع المدني فقد كان المركز حريصاً على "شبابيته"، وتنوعه "الأيديولوجي" و"الجنسوي" و"الديني". فإلى جانب غلبة الكوادر الشبابية، كان المركز يضم ماركسيين (مثل **سليمان شفيق**)، وإسلاميين (مثل **كمال حبيب** أحد المتهمين في قضية اغتيال الرئيس **السادات**، والأزهري **د.أحمد صبحي منصور**). وتراوحت نسبة الكوادر النسائية بين ٤٠ و٦٠ في المئة وكذلك مثل المسيحيون والأقباط ما بين ٣٠ و٤٠ في المئة من العاملين (أي ثلاثة أو أربعة أمثال تمثيلهم في المجتمع المصري).

معارك ابن خلدون
١٩٩٠ - ٢٠٠٠

كانت الأنظمة واللوائح والبرامج واختيار الباحثين وتوفير الموارد، عناصر أساسية في بناء مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، ولكن الذي شيد القامة المعنوية والعلمية للمركز كانت المعارك التي خاضها بتلقائية، اعتبرها كثيرون "رعونة"... وربما كانوا على حق في هذا التوصيف، لأنها في النهاية أودت بمؤسس المركز - كاتب هذه السطور - وعدد من العاملات والعاملين معه إلى السجن في يونيه ٢٠٠٠، ثم في مايو ٢٠٠١، وأخيراً وربما ليس آخراً، في يوليه ٢٠٠٢. كما أدت هذه "الرعونة" إلى إقفال المركز بالضبة والمفتاح، ووضع حراسة أمنية مشددة على مقره في أعلى هضبة المقطم. وتوقفت بالتالي نشرته الشهرية "المجتمع المدني" "Civil Society"، كما توقف صدور تقاريره السنوية عن "التحول الديمقراطي في الوطن العربي"، و"الملل والنحل والأعراق"، هذا فضلاً عن مطبوعاته الأخرى، ولقاءاته الأسبوعية في رواق ابن خلدون، وندواته ومؤتمراته. ولكن لي أنا شخصياً تقييم آخر، وهو أن ما حدث لمركز ابن خلدون والعاملين فيه في يونيو ٢٠٠٠، قد هز أعمدة النظام الحاكم، ونبه العالم لطبيعة الاستبداد في الوطن العربي... ثم جاءت أحداث إقليمية وعالمية أخرى، جعلت تجربة ابن خلدون تبدو لكثيرين كبديل طبيعي عصري لكل من الأنظمة الأوتوقراطية العسكرية التي تحكم أو القوى الدينية المتزمتة التي تريد أن تحل محلها... ولكني لا أريد أن أستبق القصة في هذا الجزء من المذكرات، عن معارك ابن خلدون.

معركة الكويت

لقد كان عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩ تمهيد الأرض ووضع الأسس للمركز الجديد. وقامت بالدور الرئيسي في هذا الصدد مساعدتي الوفية وصديقتي الحميمة **نعمت جنينة**.

ولكن ابتداء من ١٩٩٠/٩/٢ ـ تاريخ غزو العراق للكويت ـ بدأت أول معركة خاضها المركز الوليد.

كان موقفي مبدئياً وواضحاً، وهو إدانة الغزو والمطالبة بجلاء قوات **صدام حسين** من الكويت فوراً... ولكن لم يكن كل العاملين في المركز من هذا الرأي ، وكان بعضهم ينطلق من أرضيات أخرى. أحدها اشتراكي عدالي مناهض للأغنياء، ومع مصادرة ثرواتهم وإعادة توزيعها على فقراء العرب، ونظروا "لدخول" القوات العراقية من هذا المنطلق. وكانت هناك وجهة نظر "قومية ـ وحدودية"، رأت في احتلال الكويت وضمها للعراق خطوة وحدوية، من شأنها تقوية باع الأمة. وعملاً بالتقاليد التي كنا نحاول إرسالها في المركز لم أحجر هذا الاختلاف في الآراء.

كان الباحث **محمد عبد الرسول**، وهو ماركسي قديم، وعضو في التجمع اليساري، يمثل وجهة النظر العدالية ـــ التوزيعية. وكان الفلسطيني **أشرف بيدس**، يمثل وجهة النظر القومية ـ الوحدوية. ومع التدخل الأمريكي لنصرة الكويت، وإرسال قواتها للسعودية، توحدت وجهتي النظر اليسارية والقومية، فيما يشبه "تحالفاً معادياً للإمبريالية"، ولم يكن هذا يختلف كثيراً عما كان يتردد على الساحتين المصرية والعربية خارج مركز ابن خلدون... ولم يكن يمر اجتماع من الاجتماعات الأسبوعية (كل ثلاثاء) دون جولة مناقشات عاصفة...

ثم تعقد الموقف في المركز حينما اقترحت مشروعاً بحثياً لرصد ولتحليل مضمون الحوار الدائر حول ما أصبح يسمى مع الشهر الثالث للغزو بأزمة الخليج الثانية، تمييزاً لها عن أزمة الخليج الأولى، التي تخللتها الحرب العراقية ـ الإيرانية. وكالعادة تركت للباحثين حرية الاختيار والمشاركة في المشروع البحثي الجديد من عدمه. كذلك تعقد الموضوع أكثر لأنني كنت قد عرضت على اللجنة المصرية للتضامن مع الكويت، أن يقوم مركز ابن خلدون بأعمال أمانتها العامة.

وكان العاملون في مشروع جوائز **عبد الله وسعاد الصباح** للإبداع بين الشباب العربي هم عموماً المنحازين لوجهة نظري، والأكثر حماساً للتطوع في

أمانة اللجنة المصرية للتضامن مع "شعب الكويت". وهم الذين اقترحوا تعديل اسم اللجنة ليتضمن "شعب الكويت"، حتى يقطعوا الطريق على أي نقطة أنهم يفعلون ما يفعلون من أجل "الأسرة الحاكمة" الكويتية!.

ومع ذلك لم يخلو الأمر من بعض الانتهازية. فأولئك الذين كانوا يعملون في مشروع جوائز الإبداع كانوا يتلقون مكافآت تشجيعية، والآن ماذا سيكون موقف هذه "المكافآت" إن هم انحازوا للغزو العراقي. وكان الأكثر تمزقاً في هذا الصدد هو الفلسطيني **أشرف بيدس** الذي يؤيد **صدام** بقلبه، ولكنه الأحرص على جيبه، وما كان يجنيه ما مكافآت مشروع الإبداع الذي كانت تموله **د.سعاد الصباح**... وراقبت هذا الصراع الصامت عند البعض... وكنت أنا و**نعمت** نراهن على الكيفية التي سيحسم كل منهم بها هذا الصراع... وكانت هي الأدق في تخميناتها حول سلوك زملائها. وبالمناسبة كانت **نعمت** وكذلك **مايسة الجمل** من وجهة النظر الأكثر تأييداً للعراق... وربما كانت أحد أسباب ذلك أنهما لم يكن مستريحات لعلاقتي الوثيقة بالدكتورة **سعاد الصباح**.

استمرت معركة الكويت مشتعلة في ساحة مركز ابن خلدون، كما كانت مشتعلة على الساحتين المصرية والعربية والعالمية... ولكن أكثر الساحات تمديناً في إدارة المعركة سلمياً كانت مركز ابن خلدون.

مواجهة مبكرة مع محمد حسنين هيكل

كتبت كثيراً في الصحف المصرية والعربية حول أزمة الخليج الثانية... وتحدثت كثيراً في وسائل الإعلام العالمية مع تطورات الأزمة. وكان من طرائف الصحافة العربية ومآسيها في نفس الوقت هو الاستقطاب الحاد. من ذلك، مثلاً، أنه إلى بداية الأزمة كان لي مقال أسبوعي يظهر في نفس الوقت تقريباً (بين السبت والإثنين من كل أسبوع) في خمسة عشر مطبوعة عربية ـ من عمان وأخبار الخليج شرقاً إلى الإتحاد الاشتراكي المغربية والصباح التونسية غرباً، والشراع اللبنانية والعرب اللندنية شمالاً. وحينما انفجرت الأزمة، توقفت نصف هذه الصحف عن نشر مقالاتي الأسبوعية، وبدون اعتذار، مع أنها هي التي كانت قد ألحت علي لكي أكتب لهم. وكان ذلك مقاساً لعمق الانشقاق الذي حدث على الساحة العربية من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر"!.

وكانت الـ BBC اللندنية تحرص على تعليقاتي على الأزمة سواء لإذاعتها العربية أو الإنجليزية... وضمن ذلك كان برنامج Point and Counter Point (أو نقطة ونقطة مضادة)، وكانت فكرته توجيه نفس الأسئلة لعدد من المعلقين، ثم قيام معد البرنامج نفسه بعمل مونتاج لأكثر المعلقين

اختلافاً أو تضاداً، وبثها فتظهر كما لو كانت مساجلة حية بين خصمين سياسيين. ولم يخبر معد البرنامج من يوجه لهم الأسئلة مقدماً من سيكون الغريم. في كل الأحوال شاركت في خمسة مقابلات من هذا النوع، وكان غريمي في أربعة منها هو الأستاذ **محمد حسنين هيكل**، وفي الرابعة كان الأستاذ **عادل حسين** (حزب العمل) ولم يختلف مضمون وجهات النظر في راديو لندن عنه في مركز ابن خلدون... ولأننا في هذا الأخير، كنا نجري "بروفة" أسبوعية منذ بداية الأزمة، فقد كنت مستعد تماماً لأي سؤال... وأعتقد أن من استمعوا لهذا البرنامج في تلك الأيام اندهشوا كثيراً لنوعية التفكير الجديد الذي انطوى عليه ما أدليت به من آراء... بينما كان **هيكل وعادل حسين** يرددان نفس الخطاب الناصري أو الإسلاماوي المشحون عاطفياً، الخاوي مضمونياً.

ومع نهاية عام ١٩٩٠، كانت كل عناصر المواجهة المسلحة قد اكتملت على الأرض، ولم يبق إلا أعطاء إشارة البدء...

وتصادف أن دعاني الصديق **محمد سيد أحمد** لحفل من حفلات أعياد الميلاد (الكريسماس) العديدة التي كان يقيمها الأصدقاء مسلمين ومسيحيين بهذه المناسبة. وحينما وصلت أنا و**باربارا** إلى مسكنه الفخم في الزمالك، وجدنا ما لا يقل عن مئة شخص... معظمهم أصدقاء مشتركين وأقلهم معارف أو وجوه جديدة بالمرة... وكان من ضيوف الحفل الأستاذ **هيكل**، والذي كانت ما تزال تجمعني به مودة ظاهرة، رغم خلافاتنا الفكرية المتزايدة... منذ مراجعتي لكتابه خريف الغضب (١٩٨٢)، وتعثر مشروع الصحيفة الذي كان يتبناه صديقنا المشترك **خير الدين حسيب**، وتموله **د.سعاد الصباح**. وكان هو دائب المداعبة على تلقيبي أمام الناس أما "بأستاذه" (إشارة إلى دراسته معي في العام الدراسي ١٩٧٩/١٩٨٠) أو "براسبوتين" (في إشارة خبيثة إلى علاقاتي النسائية وخاصة بالأميرات والأرستقراطيات). وفي تلك الليلة اختار هو مداعبتي "براسبوتين"، كما لو كان يريد الإيحاء للموجودين بأن موقفي في أزمة الخليج ليس منزهاً عن "الهوى"، أي له علاقة بعلاقتي مع **د.سعاد الصباح**... ولم أعلق... ولكني توقعت مساءً أو ليلة ساخنة.

وجاءت اللحظة... سألت صديقتنا الصحفية اللامعة "**إنجي رشدي**" الأستاذ **هيكل** عما إذا كان يتوقع حرباً في الخليج، حيث أن الأيام تمضي بسرعة نحو ١٥ يناير، وهو التاريخ الذي حددته الولايات المتحدة كأجل نهائي **لصدام حسين** للخروج من الكويت... وكان الموضوع على بال كل الناس في تلك الأيام... وجاء سؤال **إنجي** الفارعة الطول المجلجلة الصوت، الجريئة الطرح، وللأستاذ **هيكل**... فتوقف الجميع ليصغوا للمحلل الكبير بفتاويه السياسية. قال الأستاذ "لا

أعتقد أن حرباً ستنشب... لقد تعلم الأمريكان دروساً لن ينسوها في فيتنام، ولبنان... وبالتالي لن يقامروا بأرواح مزيد من أبنائهم من أجل بعض شيوخ النفط... ربما سيمارسون ضغوطاً أخرى إلى أن يصلوا إلى حافة الهاوية، ولكنهم لن يغامروا بالوقوع في الهاوية... إنهم يدركون أن **صدام** لديه أقوى رابع جيش في العالم، وهو لا يبالي بأرواح العراقيين، كما رأت هي في حربه مع إيران... أنه مستعد للتضحية بمليون أو مليوني عراقي آخرين... ولا أظن أن الأمريكان مستعدين حتى للتضحية بأرواح ألف أمريكي... أن الكلام عن حرب في الخليج هو تهويش في تهويش...".

وتنفس الناس الصعداء... ولكن **إنجي رشدي** العملاقة لم تترك الناس تهنأ بطرد خاطر أو كابوس الحرب بعيداً والعودة إلى الاستمتاع بمباهج الحفل العامر بالطعام والشراب... فاستدارت وسألت "وأنت يا دكتور **سعد**... ماذا تظن؟".

حاولت التهرب من السؤال بلباقة مدعياً أنه "لا يفتى ومالك في المدينة... ومادام الأستاذ **هيكل** قد تكلم، وطمأننا فلا يصح أي حديث آخر" وأوشكت أن أقفل الموضوع عند هذا الحد، لولا تدخل **هيكل** وإصراره على أن يسمع ... فأدركت على الفور أنه كان يهتم ببرنامج الـ BBC، Counter Point ويتابع ما أدلى به من تصريحات... ولما رآني ما زلت متردداً، استفزني بقوله "يالا يا صاحب القداسة راسبوتين..." كان قليلون في الحفل يعرفون هذه المداعبة ولكن أغلبهم لم يكونوا يعرفون، ولكن العبارة شدت انتباهم، فأطبق على الحفل الصمت من جديد ترقباً لما سأقوله:

"كنت بقلبي أتمنى أن يكون تنبؤ أستاذنا الكبير صحيحاً... ولكن بعقلي لا أظن ذلك... وأتوقع نشوب الحرب، إذا لم يخرج هذا الأحمق العراقي من الكويت قبل ١٩٩١/١/١٥... إن أمريكا تخاطر بدخول حرب في الشرق الأوسط إذا ما هددت مصالحها النفطية أو إسرائيل... وهذا الأحمق قد هدد الإثنين معاً... كذلك فإذا استمر في الكويت فإن الحرب واقعة لا محالة... ولم تنقل أمريكا نصف مليون مقاتل إلى منطقة الخليج لمجرد التهويش... فالرئيس الأمريكي لديه تفويض من مجلس الأمن ومن الكونجرس الأمريكي باستخدام القوة لتحرير الكويت إذا لزم الأمر... أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولأحمق العراق... اليوم خمر... وغداً أمر".

وحاولت فعلاً أن أوقف النقاش، وأن ينصرف الناس إلى الحفل... فانسحبت أنا شخصياً إلى شرفة كبيرة مطلة على النيل... ولم أتحدث مع **هيكل** لسنوات بعد هذا المشهد... ولكن كان لنا جولات اشتباكية عن بعد... سيأتي الحديث عنها في مواقع أخرى من هذه المذكرات.

اندلاع الحرب وزيادة الاستقطاب

انفجرت حرب الخليج الثانية ليلة السادس عشر من يناير ١٩٩١، أي بعد ٣٦ ساعة من انتهاء إنذار التحالف الدولي، الذي تقوده الولايات المتحدة وتشارك فيه ثلاثين دولة أخرى منها مصر وسورية والمغرب ودول مجلس التعاون الخليجي. ولأول مرة في التاريخ يشاهد العالم لحظة انفجار حرب بالصوت والصورة. فقد كانت شبكة الـ CNN الأمريكية مسموحاً لها بالإرسال من بغداد، وهو أمر غريب وغير معتاد إلى ذلك الوقت ـ أي أن يسمح لصحفيين من دولتاً معادية ـ الولايات المتحدة ـ أن ينتقلوا بحرية، ويبثوا تقاريرهم إلى الخارج من الدولة المستهدفة بالهجوم ـ وهي العراق. ومما ضاعف من غرابة الموقف أن النظام العراقي لم يعرف عنه احترامه لحرية التعبير عموماً ولحرية الإعلام خصوصاً. ولم يكن هناك من تفسير لهذه الحرية المفاجأة إلا أحد احتمالين. أولهما، تسجيل ما اعتبره الرئيس العراقي عدواناً أمريكياً على العراق، ونشره على العالمين، آملاً أن تقوم مظاهرات شعبية عارمة في العواصم الغربية والعربية مناهضة للحرب، وضاغطة من أجل وقفها. وهذا هو سيناريو وقف العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، في أعقاب تأميم قناة السويس. وهو نفسه سيناريو حرب فيتنام. ولو تحقق ذلك فإن **صدام** يخرج منتصراً سياسياً، لأن يبقى في الكويت، رغم ما يصيب العراق من دمار، يمكن له أن يمتصه، كما حدث في حربه مع إيران. والاحتمال الثاني هو أن **صدام** اعتقد فعلاً أنه يستطيع أن يهزم قوى التحالف الدولي عسكرياً، وأراد لبقية الأمة العربية وللعالم مشاهدة هذا الانتظار، على شاشات التليفزيون، فتعقد له قيادة الأمة من المحيط إلى الخليج إلى الأبد!.

تعمدت شبكة CNN من ناحيتها أن تبث للعالم العربي مجاناً، ولمدة ٢٤ ساعة. وقد كانت هذه تجربة متعددة الآثار، القصيرة والمتوسطة المدى. وسأتحدث عن هذه الآثار الوسيطة والبعيدة في مواضع أخرى قادمة من هذه المذكرات. ولكني سأتحدث هنا عن بعض الآثار الآنية لبث الـ CNN.

كان من حسنات هذا البث الإعلامي هو لا فقط رؤية المواطنين العرب لهذه الحرب مباشرة، دون إعطاء الفرصة للإدعاءات العنترية الكاذبة من أي طرف محارب ـ مثلما كان يحدث في الأيام الأولى لحروب العرب الحديثة، وخاصة مع إسرائيل، مثل إسقاط عشرات من طائرات العدو، وتدمير مئات من دباباته يومياً، خلافاً للحقيقة. ولكن كان أيضاً من هذه الحسنات رؤية المواطنين العرب واستماعهم لوجهات نظر متعددة في الإعلام الأمريكي والغربي، بما في

ذلك المعارض لسياسة الولايات المتحدة من الأمريكيين أنفسهم. وكان ذلك جديداً بالنسبة للأغلبية العربية التي اعتادت الإعلام الشمولي السلطوي.

ومن الآثار السلبية، رؤية المواطنين للهوة التكنولوجية الهائلة بينهم وبين الغرب. لم يكن ذلك مجهولاً للنخبة العربية المثقفة والمتابعة للشأن العالمي، وهم قلة لا تتجاوز خمسة في المئة من الرأي العام العربي... ولكن رؤية هذه الهوة بالصوت والصورة كان جديداً ومريعاً بالنسبة للأغلبية. ومع الأسبوع الثاني للحرب، أصبح واضحاً للقاصي والداني أن هزيمة العراق قد حدثت بالفعل... وكان استمرار القصف الجوي من طائرات التحالف هي مثل "الضرب في الميت"، والذي هو حرام "في الفلكلور الديني العربي. فحتى أولئك الذين كانوا طوال شهور الأزمة ناقمين على النظام العراقي، تضامناً مع الشعب الكويتي، بدأوا يتعاطفون مع العراق ـ بلداً وشعباً كما بدأت "الأنا القومية العربية" تطفو على سطح الوعي. من ذلك الشعور بالمهانة لانعدام المقاومة العراقية. أي أن الهزيمة قادمة بلا قتال فعلي، وهو ما أشبه بهزيمة يونيه ١٩٦٧.

مع الأسبوع الثالث بدأ الانسحاب العراقي غير المنتظم من الكويت، مع آلاف القتلى الذين حصدتهم طائرات التحالف، وعشرات الآلاف الذين استسلموا، وتم أخذهم كأسرى في معسكرات بالسعودية.

كان الوجدان العربي يتمزق لرؤية الدمار الواسع النطاق في داخل العراق، وللمهانة في ميدان المعركة الممتد من الحدود العراقية الجنوبية إلى الحدود السعودية الشمالية الشرقية.

انشطار أسرتي

كانت أسرتي متضامنة تماماً مع الكويت... ولكنها، بما في ذلك زوجتي الأمريكية **باربارا**، بدأت تتعاطف ـ ابتداء من الأسبوع الثاني للحرب ـ مع محنة الشعب العراقي، الذي بدا لنا، كأسرى، مطحونين بين شقي الرحى، أي بين قهر نظامه المستبد، الدموي، الذي لا يرحم من ناحية، وآلة الحرب الأمريكية الجهنمية التي لا ترحم بدورها، من ناحية أخرى.

ومن المواقف التي هزتني من أعماقي رد فعل إبني **أمير**، الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشر بعد... كان أمير، مثل بقية الأسرة متعاطفاً نشطاً في لجان التضامن مع الشعب الكويتي... ولكنه كان يعرف أن أمه قد حملت فيه أثناء إقامة وعمل والديه في العراق، صيف ١٩٧٤. لم يكن قد زار العراق، ولكنه كان يعرف عراقيين من أصدقاء الأسرة، بما فيهم **د.خير الدين حسيب** كان كثيراً ما يداعبه، ويحضر له الحلوى والفستق من بيروت، حيث كان يقيم... كذلك لم يكن

أمير قد زار الكويت، ولكنه كان يعرف كويتيين كثيرين من أصدقاء الأسرة وخاصة عائلة **د.سعاد الصباح** جميعاً، والذين كانوا بدورهم يفيضون عليه بالهدايا وبالطريقة الخليجية المسرفة. كان **أمير** مع "المعركة" على شاشة التليفزيون، مثلنا جميعاً، في صمت تتخلله تعليقات متباعدة، ولكنها حيادية. فقد كان من الصعب أن يأخذ أي منا موقفاً مؤيداً لهذا الطرف أو ذاك، خاصة أن مصر كانت جزءاً من التحالف الدولي، أي أنها كانت تحارب مع دول غير عربية ضد دولة عربية. من المؤكد أن كل منا كان يتمزق في صمت: نعم كنا نريد للكويت أن تحرر، ولكنا لم نكن نريد للعراق أن يذبح.

في اليوم قبل الأخير للحرب، ثبت CNN منظراً لآلاف الجنود العراقيين يستسلمون جماعياً... ومنهم سرية عراقية شاردة، أو تائهة في صحراء الكويت... وقد نفذ طعامها وماؤها وذخيرتها... وفجأة وجدت نفسها مُحاصرة بكتيبة أمريكية ولم يكن بالتالي أمامها إلا أن تستسلم، ولكنها بدلاً من أن تستسلم بشكل منظم طبقاً للتقاليد العسكرية، انهار فيها الضبط والربط، وبدأ أفرادها يجرون هرباً في اتجاهات مختلفة، ومجموعات من الجنود الأمريكية يطاردونهم، ويطلقون النار فوق رؤوسهم. وكان بعضهم، يقف، ويرمي سلاحه، ويرفع يديه. ولكن المشهد الذي تأثر به **أمير** بشكل هزه من أعماقه، كان لجندي عراقي يركع على الأرض، ويقبل حذاء جندي أمريكي...

انفجر **أمير** في بكاء هيستيري، وتركنا مندفعاً إلى غرفته، ودفع باب الغرفة من ورائه وأوصده بالمفتاح، واستمر في البكاء بصوت مسموع... كلنا ـ **باربارا وراندا وأنا** ـ تأثرنا بالمشهد... ولكن الذي جُرح من المشهد جرحاً نافذاً كان **أمير**... وقد أذهلنا وأخافنا رد فعله، الذي لم نكن قد رأينا له مثيلاً من قبل (ولم أر له مثيلاً من بعد). وانزعجنا جميعاً من رد فعل **أمير**... وحاولت أمه الأكثر انزعاجاً أن تتبعه في غرفته... ولكنَ الباب كان موصداً طلبت منها أن تنتظره عدة دقائق إلى أن يفرغ الشحنة العاطفية التي تجاوز ثقلها قدراته المعتادة... وبعد ساعة كاملة... خرج من الغرفة... وتأسف لأمه عما صدر منه ألفاظ نابية ضد أمريكا في ثورة غضبه... وحقيقة الأمر أننا لم نسمع لعنته النابية لأمريكا... ثم إذا كان قد لعن أمريكا... فلماذا يعتذر لأمه، كما لو كانت هي "العدو"... وحزنت **باربارا**، وأجهشت بدورها في البكاء... ونظرت **لراندا**، نظرة تساؤل، وفي خاطري متى سيأتي دورها في البكاء ؟ وكأنما قرأت أفكاري... فسبقتني بالسؤال "ماذا حدث لابنك وزوجتك ؟" فاقترحت عليها أن نتركهما معاً لتسوية "المشكلة"... ونزلت أنا و**راندا** إلى الطابق الأول من الفيلا... وأعددنا معاً طبقاً من "الأومليت... ثم أخذناه مع عصير البرتقال والخبز والماء إلى غرفة الجلوس،

وجدنا التليفزيون قد أغلق... وأمير يصالح أمه لا فقط على الكلمة النابية، ولكن أيضاً على إيحائه غير المقصود أنها تمثل "العدو" !.

كان هذا المشهد العائلي تكثيفاً دramياً للموقف العربي كله من المحيط إلى الخليج: الانشطار - بين الأقطار والأنظمة، وداخل كل جماعة وكل أسرة وكل مواطن.

سيناريو مبكر لعراق بلا صدام

كنت منشغلاً طوال أسابيع الحرب الثلاثة بمستقبل العراق ومنطقة الخليج والوطن العربي كله وكتبت في هذا الشأن عدة مقالات نشرتها الصحف والمجلات المصرية.

كانت بداية المشكلة لهذه الدوائر الثلاث هي **صدام حسين** ونظامه المستبد. لذلك كان رأيي، بلا مواربة، ضرورة إسقاطه عسكرياً بواسطة التحالف أو من خلال انتفاضة داخلية مشابهة لما حدث في رومانيا مؤخراً. ولأنني كنت أعرف العراق جيداً، من حيث طبيعته التعددية عرفياً ومذهبياً وقومياً، فكنت أُدرك صعوبات ما بعد إسقاط **صدام** لذلك عكفت على إعداد سيناريو لمرحلة انتقالية تمتد من سنة إلى ثلاث سنوات، يحكم فيها الجيش، حالما يعاد بناء البنية الأساسية التي دُمرت، وإعداد دستور لدولة فيدرالية ديمقراطية لكل العراق، مع حكم ذاتي للأكراد في الشمال، والشيعة في الجنوب، والسنة في الوسط، وأن يكون رئيس الجمهورية عربياً سنياً، ورئيس الوزراء عربياً شعبياً، ورئيس البرلمان كردياً سنياً. وكان النظام المقترح مستوحى من النظامين الأمريكي (من حيث فيدراليته) واللبناني (من حيث توازنه العرقي). بل ذهب السيناريو الذي أعددته أكثر من ذلك في اختيار العناصر العسكرية والمدنية لقيادة المرحلة الانتقالية، واستفدت في ذلك من معرفتي الشخصية بالقيادات والأعيان الأكراد والسنة والشيعة.

وقد عرضت مسودة هذا السيناريو على باحثي مركز ابن خلدون في أحد اجتماعات الثلاثاء، وبدأت مناقشة حامية، كان الصوت المعارض فيها للباحث **محمد عبد الرسول**، الماركسي التجمعي العنيد، الذي اعترض على مبدأ إعداد سيناريو من هذا النوع، بينما الحرب ما زالت مشتعلة، ولا يمكن الحزم بنهايتها، وعما إذا كان نظام **صدام** سيسقط وبعد أن اقتنع بأن فكرة السيناريو تقوم على السؤال "ماذا لو؟ ماذا لو سقط أو اسقط **صدام**، ما هو نوع العراق الذي نريد، كعرب أو كخلدونيين؟"... صمت ولم يشارك في المناقشة، ولكن كان ينصت باهتمام، ويسجل ملاحظات كتابه... واتفقنا على صياغة ما اتفقنا عليه، ثم

مواصلة النقاش في الثلاثاء التالي... ومع ذلك الوقت سيكون الموقف الميداني قد حسم.

اشتباك مع صحيفة الأهالي

كان ضمن ما سأل عنه الباحث **محمد عبد الرسول** ما إذا كان ما نناقشه من سيناريوهات مستقبل العراق هو أمر سري ؟ وكانت الإجابة هي أن كل ما يقوم به المركز، كمركز، هو أمر علني... وأن ذلك تطبيق عملي إجرائي لمبدأ "الشفافية"، الذي نص عليه ويلتزم به المركز في وثائقه... وكان سؤاله الثاني "يعني لا ضرر في إشراك آخرين في هذا الحوار؟".

لم نكن ندري أن وراء سؤال الزميل **محمد عبد الرسول** مفاجأة، مثيرة يوم الأربعاء التالي، حيث صدرت صحيفة الأهالي، لسان حال حزب التجمع اليساري، بعنوان بارز في الصفحة الأولى عن "السيناريو الأمريكي لما بعد **صدام** في العراق: مركز ابن خلدون ضالع في المخطط"، وتحت هذا العنوان تفاصيل ما كنا قد ناقشناه بالفعل. وجاء **محمد عبد الرسول** إلى المركز ومعه أعداد من صحيفة الأهالي، وطلب عقد اجتماع طارئ للباحثين... وهو ما حدث.

وثار عليه الزملاء لأنه نقل السيناريو إلى صحيفة الأهالي بلا استئذان من المركز. ورد هو بأنه سأل في الاجتماع السابق عن هذا الأمر، وأنه فهم أنه "لا سر به"، وهناك شفافية مطلقة... ولكن تحفظ زملائه الذي شاركتهم فيه هو إطلاق صفة "السيناريو الأمريكي..."، قال معتذراً، أنا لم أختر عنوان التحقيق... ود. **سعد** يعرف جيداً أن رؤساء التحرير لهم طريقتهم في إبراز واختيار العناوين، وذلك من مستلزمات الحبكة الصحفية" وكان محقاً في ذلك. ومع ذلك لتسجيل موقفه الأيديولوجي المبدئي، أخرج من جيبه ورقة، قرأ منها ما معناه أن ضميره لم يعد يريحه أو يطاوعه إذا استمر يعمل في مركز ابن خلدون، لذلك فهو يتقدم باستقالته. سلمني الاستقالة، وجمع متعلقاته، وغادر المركز بين ذهول زملائه الذين كانوا جميعاً يحبونه ويحترمونه.

وخرجت الأهالي في الأسبوع التالي بخبر استقالة الباحث وعضو التجمع **محمد عبد الرسول** من مركز ابن خلدون احتجاجاً على "الدور المشبوه" الذي يقوم به المركز لمصلحة الإمبريالية الأمريكية. وانضمت لها صحيفة الشعب لسان حال حزب العمل في تسليط الضوء على "الدور المشبوه" لمركز ابن خلدون، وكانت تلك هي بداية معارك ابن خلدون الصاخبة التي ستستمر طوال السنوات العشر التالية.

صيف ٢٠١٢

الخميس ٢٦ يوليو ٢٠١٢، ٧ رمضان ١٤٣٣

مر ستون عاماً على ثورة ١٩٥٢، بدأت يومي في الثانية عشرة ظهرا، بمقابلة تليفزيونية طويلة مع الإعلامي الشاب **جابر القرموطي**، لحساب قناة on T.v واستمرت ساعتين، بمكتبي بمركز ابن خلدون. ثم استقبلت الأمير السعودي **يزيد بن محمد بن سعود**، وعدداً من الجهاديين. رفاق سجن مزرعة طرة. ومع آخر زائر، لم يكن قد تبقى على موعد الإفطار إلا ساعة ونصف، تكفى بالكاد للعودة من منطقة المقطم إلى منطقة المعادى، حيث أسكن.

دارت المقابلة التليفزيونية حول ذكريات الطفولة الرمضانية، في قريتي "بدين"، حيث كنا نضيء فانوساً بشمعة داخله، أو لمبة كيروسين صغيرة، كان يطلق عليها "ونّاسة" وكنا، كأطفال مع أبناء تتحمل أسرهم، مثل هذه الفوانيس، نطوف بشوارع القرية بعد صلاة العشاء، ونردد أهازيج رمضانية، تبدأ في عشية أول أيام الشهر، بأغنية "**هَلّ هلالك يا رمضان**"، و"**وحوي يا وحوي**". كذلك استرجعت من ذكريات رمضان في القرية، تقليد تناول الإفطار في الشرفة الخارجية، المطلة على أحد الشوارع الرئيسية للقرية. فإذا كان هناك من عابري سبيل ساعة الإفطار، فإننا كنا ندعوهم لتناول الإفطار عندنا أو تقديم أكواب من العرقسوس، أو الخروب، أو الماء لهم لكسر صيامهم. كانت أسرتي تستضيف مقرئا للقرآن الكريم، من خارج القرية (عادة من نواحي كفر الزيات، غربية) لإحياء ليالي رمضان بترتيل القرآن الكريم، بين صلاتي العشاء والسحور. وكان جزءا من شعورنا بالانتقال من الطفولة إلى الصبا ثم إلى الشباب هو القدرة على السهر إلى صلاة الفجر وتأديتها، ومن الخرافات التي صدقناها وخفنا منها، هو أننا قد نصادف في العودة من المسجد إلى منازلنا حماراً متوسط الارتفاع (جحشا)، يغريك بركوبه. فإذا فعلت، فإنه يبدأ في الارتفاع تدريجيا، إلى أن يصل إلى عشرين متراً، ثم يجرى بسرعة شديدة، لا يتمالك معها راكب الحمار إلا أن يسقط!

لذلك صدقنا تماما في طفولتنا بالقرية أنه في ليلة القدر، التي يقول القرآن إنها خير من ألف شهر، في الأيام الثلاثة الأخيرة من رمضان تظهر طاقة من

نور، لا يراها إلا من تقبل الله صيامه، ورضي عنه. فإذا طلب من يراها أى شيء، استجاب الله لدعائه.

وصدقنا، أيضاً حكاية "الجنيّة"، التي تظهر على ضفاف الترع، على صورة فتاة جميلة، تنادى بصوت رخيم على من يمر بها منفردا، أن تأتى إليه، فإذا فعل واستجاب لهذه "النداهة" فإنها سرعان ما تجذبه إلى حضنها، وتقفز معه إلى الماء، فيغرق.

وهكذا، كانت الذكريات الرمضانية لطفولتي في القرية مزيجاً من القصص والمعتقدات الشعبية، التي تشغل الخيال من ناحية، وتنطوي على غرس ضوابط سلوكية من ناحية أخرى.

غير أن أهم ذكريات هذا اليوم قبل ستين عاماً، هي مشاركتي مع آلاف الصبية والشباب، في مسيرة تلقائية على كورنيش الإسكندرية، بدأت بالنسبة لى من حي باكوس الرمل، حيث كنت أقضى الصيف مع أسرة عمى عبد الوهاب، إلى قُرب قصر راس التين، غرب الإسكندرية، وكنا قد علمنا من الإذاعة المصرية، بصوت المذيع جلال معوض، أن إنذارا قد صدر من القوات المسلحة إلى الملك فاروق، بضرورة التنازل عن العرش لولى عهده، الأمير أحمد فؤاد، ومغادرة البلاد، قبل السادسة مساء نفس اليوم. لقد كان ذلك مطلبا شعبيا، لكثرة ما شاع وقتها عن فساد الملك.

ورغم أن المسافة كانت عدة كيلو مترات، إلا أنني من الفرحة لم أشعر بالتعب. صحيح أنني كنت في الثالثة عشر، وكنت مع مئات آخرين، وفى حالة من البهجة، شعرت معها أنني حتى في ذلك العمر المبكر، أشهد حدثاً تاريخياً هاماً. وكنت عاشقاً للتاريخ، ومهتماً بالسياسة. وشاركت في مظاهرات الطلبة خلال الجزء الأول من ذلك العام الدراسي (١٩٥١/١٩٥٢)، والذي كان قد بدأ بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، بواسطة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وتلي ذلك في خريف وشتاء ذلك العام مظاهرات عارمة، ضد العرش وضد الإنجليز الذين ما يزالون يحتلون منطقة قناة السويس وأذكر متابعتنا للمقاومة المسلحة بواسطة الفدائيين. ثم حريق القاهرة يوم ٢٥ يناير، ومجزرة مديرية أمن الإسماعيلية، التي أبادت فيها قوات الاحتلال كل رجال الشرطة المصريين الذين تضامنوا مع الفدائيين، ولذلك أصبح ذلك اليوم هو عيد الشرطة في مصر والذي سيصبح هو نفسه بعد ٥٩ عاماً يوم انفجار ثورة مصرية شعبية جديدة.

وهكذا تدافعت ذكريات ثورة ١٩٥٢ مع حاضر ثورة ٢٠١١. ومازال مشهد اليخت الملكي "المحروسة" وعليه الملك وأفراد عائلته، يغادرون قصر التين، حيا

في ذاكرتي، كما لو كان قد وقع الأمس. بل ولازالت طلقات مدفعية التشريفة الملكية ترن في أذني، وحين أتأمل الآن (يوليو ٢٠١٢) ما وقع في مثل ذلك اليوم منذ ستين عاماً، يتأكد لي كم يتمتع المصريون بمستوى حضاري يفوق كثيرا ذلك السائد لدى بلدان الجوار - غربا (ليبيا) وجنوبا (السودان والصومال واليمن)، وشرقا (سوريا). فقد شهدت تلك البلدان ثورات مشابهة مما أصبح يطلق عليه مصطلح "الربيع العربي". ولكنها كانت أكثر دموية ودماراً. فرغم أن حجم مصر يفوق تلك البلدان مجتمعه، إلا أن عدد شهداء ثورتها في الثمانية عشر يوما إلى سقوط الرئيس مبارك، هو أقل مما لا يزال يسقط في سوريا يوميا.

الجمعة ٣/ أغسطس ٢٠١٢ – ١٥ رمضان ١٤٣٣

أسجل هذه الخواطر واليوميات من مزرعة "الهناء"، التي نملكها منذ خمسة عشر عاما، بالجهة المقابلة، لمنطقة وادي النطرون، عند الكيلو ١٠٧، طريق مصر – الإسكندرية، الصحراوي.

وقد أصبحت هذه المزرعة، التي يصر الأقارب والأصدقاء على تسميتها "بالعزبة"، مكانا ومنتجعا أخلو إليه مع زوجتي العزيزة، في عطلة نهاية الأسبوع، وفى الإجازات التي لا نذهب فيها إلى قريتي (بدين)، أو لزيارة ابنتنا راندا وأسرتها، أو الشقيقين حامد (أبو تلات، على الساحل الشمالي) وأحمد (بالإسماعيلية). وبين الحين والآخر، ندعو العاملين معنا من ابن خلدون أو الجامعة الأمريكية، لقضاء اليوم.

الجهاديون

وفى مثل هذا الوقت من العام الماضي، دعوت عددا من رفاق السجن، من تنظيم "الجهاد"، وكان قد أفرج عنهم قبل عيد الأضحى بأسبوع. واتصلوا بى أول أيام العيد للتهنئة، وعبروا عن رغبتهم في رؤيتي والحديث معي. فدعوتهم إلى "المزرعة"... وعلى سبيل الدعابة، قلت لهم (صبرة القاسمى، والشيخ نبيل نعيم)، إن هذه "مزرعة" أسرتي، غير تلك التي خرجوا منها في سجن طرة. وكان لافتا حجم السعادة والبهجة، وهم يجرون ويتحركون في المزرعة، وكأنهم أطفال في رحلة مدرسية!

قرب مساء اليوم طلب هؤلاء الجهاديون أن يتحدثوا في شيء يشغلهم وتحدثوا هم بشأنه في الطريق إلى المزرعة، وهى رغبتهم في العمل "بالسياسة" وضمن ما قالوه إنهم قتلوا السادات ورفعت المحجوب وآخرين، لا لأسباب شخصية، ولكن لأسباب سياسية تتعلق بالشأن العام.

أما وقد قامت ثورة بواسطة جيل أصغر منهم، وكانت ثورة سلمية، وحققت نتائج لم يحققوها هم رغم كل العنف الذي لجؤوا إليه، والعنف المضاد من الدولة نحوهم، فإنهم الآن يدركون أن أسلوبهم جانبه الصواب، والآن وقد خرجوا من السجون، ونعموا بالحرية أسبوعا كاملا، فإنهم يريدون الانخراط في العمل السياسي، وهم يثقون في شخصي، ويريدون النصيحة!

اقترحت عليهم أن ينضموا لحزب "الحرية والعدالة" الجناح السياسي للإخوان المسلمين. ولكنهم فاجؤونى، برد واحد وهو" "أعوذ بالله!". مع المفاجأة، أحسست

أنني بصدد "كنز سوسيولوجي". فتساءلت عن السبب، فإذا بهم يتسابقون في تسجيل مآخذهم، والتعبير عن مرارتهم تجاه الإخوان. من ذلك أنهم لم يجاهدوا في سبيل الله أو أي من قضايا المسلمين منذ عام ١٩٤٩ في فلسطين، بينما فعل الجهاديون في أفغانستان، والشيشان، والبوسنة والهرسك وألبانيا والعراق. وبينما هم يجاهدون، كان الإخوان يجمعون الملايين من المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها... ولم يقدموا أي عون أو مساعدة لأسرهم. وبدلا من ذلك استثمروا هذه الملايين في بنوك بسويسرا وجزر البهاما.. وتحت وطأة الحاجة، اضطرت أمهاتهم وأخواتهم إلى العمل "خادمات"، أو ما هو أسوأ.

وعلى سبيل الدعابة والاستفزاز، اقترحت عليهم حزبا آخر، وهو حزب "المصريين الأحرار". فسألوا، أليس هذا هو الحزب الذي يدعمه النصراني، رجل الأعمال نجيب ساويرس؟ قلت لهم نعم. ففاجأني اثنان من زعمائهم، الشيخ نبيل نعيم، مؤسس تنظيم الجهاد، وأحد كبار أنصاره الشيخ صبره القاسمى، بأنه لا مانع لديهم، إذا كان الحزب يقبل. فاتصلت على التو بالمهندس نجيب ساويرس، وأخبرته بما يدور على أرض مزرعتنا.. استغرب الرجل من وجود ثلاثين جهاديا في مكان واحد... وتساءل مداعبا هل جاؤوا لك مسلحين أم مسالمين؟ ولكنه قال لا بد من عرض الأمر على الهيئة العليا للحزب، وفى نفس الوقت يود أن يقابل بعضهم، واقترح أن أصاحبهم لزيارة في مكتبه بأبراج القاهرة. وهو ما حدث بعد ذلك بأيام... وكان بداية لتطورات مثيرة، انتهت بتأسيس هؤلاء الجهاديين لحزب مستقل، وبدعم سخي من نجيب ساويرس. واختار مؤسسوه أن يعلنوا قيام الحزب الجديد من مقر مركز ابن خلدون بالمقطم... والذي يبعد عن المقر الجديد للإخوان المسلمين بحوالي مئة متر!

هل هي رب ضارة نافعة؟

إن وجودي في المزرعة، وفى منتصف شهر رمضان الكريم، بكل ما ينطوي عليه ذلك من صفاء وروحانية، هو أيضاً مدعاة للتأمل والتعجب.

من ذلك أن تجربة السجن القاسية (٢٠٠٠-٢٠٠٣) لم تخل من عظات وحسنات ومفارقات:

١- فمنذ عشر سنوات كنت مازلت في سجن مزرعة طرة وباستثناء فقدان الحرية وتدهور حالتي الصحية، فقد تعلمت الكثير عن نفسي، وعن أقرب الناس، وعن عوالم أخرى صادفتها خلال تلك التجربة القاسية.

٢- إن المبادرة بمشروعي محو الأمية والقروض الصغيرة في تلك السنوات الثلاث فتحت أبواب خير كثيرة على نزلاء آخرين في السجن. من ذلك أن أربعة

نزلاء استأنفوا الدراسة وحصلوا على شهادات جامعية وهم معي في السجن أو بعد خروجي بقليل. ومنهم من فتح مكاتب محاماة (مثل صبرة القاسمى)، ومن أصبح رجل أعمال مثل (نبيل نعيم، وحسن سلطان)...

٣- إن الزنزانة التي قبعت فيها تلك السنوات، هي نفس الزنزانة التي يقضى فيها علاء وجمال مبارك عقوبتهما. ولو أن أحدا كان قد طرح في ذلك الوقت احتمال، مجرد احتمال، أن تدور الدوائر كما دارت، لاعتبرنا ذلك وقتها (٢٠٠٠-٢٠٠٣) أشبه بالمستحيلات. ولكن الله يُمهْل ولا يُهمل. ورب ضارة نافعة، أو عسى أن تكرهوا شيئاً، وهو خير لكم (صدق القرآن الكريم).

٤- كيف تداخلت الخطوط، وتقاطعت الخيوط في مسيرة هذه السنوات، وخاصة في آخرها. فهي السنة التي سيحضر فيها المليونير نجيب ساويرس إلى رواق ابن خلدون، ويعترف بالذنب والتقصير في حقي وفى حق مركز ابن خلدون في عهد مبارك، مخافة أن يؤثر ذلك على أعماله، ومن ثم يوقع الضرر على الآلاف من العاملين في شركات الأسرة، ويقول إنه الآن مستعد للتكفير عن هذا الذنب، بعمل أي شيء لمركز ابن خلدون. وكيف أننا أخذناه عند وعده، حينما طلبنا منه الاستجابة لطلب الجهاديين.

٥- مثل نجيب ساويرس، هناك أقباط، وكاثوليك، وأرمن، وبهائيون، وشيعة، وأكراد، وبربر، وجنوبيون سودانيون... يعبرون دائماً عن الامتنان لوقوفي معهم، ومدافعا عن حقوقهم وقضاياهم، منذ إصدار كتابي الموسوعي: **الملك والنحل والأعراق في الوطن العربي**، رغم أن هذا الكتاب كان أحد أسباب تنكيل نظام حسنى مبارك بى.

٦- ومثلما كانت أحد الحسنات هي مساعدة الجهاديين بقروض بسيطة، فإن عملاء مشروعاتهم الصغيرة كانوا مجموعة من المسجونين الميسورين، بعضهم كانوا نوابا ومصرفيين وقضاة، وضباط شرط سابقين، تعرفت عليهم بدوري، وحينما خرجوا من السجن، حفظوا الود، وداوموا الاتصال والتواصل. إن زمالة السجن مثل زمالة الدراسة والجيش والكفاح المسلح، تخلق عروة وثقى!

الفريق/ أحمد شفيق مرشحاً لرئاسة الجمهورية

من مفارقات الشهور الأخيرة أنني وجدت نفسي أؤيد الفريق المتقاعد أحمد شفيق في جولة التصفية الأخيرة، في مواجهة المرشح الإخواني د.محمد مرسى.

والمفارقة هي أن شفيق كان وثيق الصلة بنظام حسنى مبارك، وكلفه هذا الأخير بتولي رئاسة الوزراء في أيامه الأخيرة، قبل أن يُجبره ثوار التحرير على التنحي. أي أنه كان جزءاً من نفس النظام الذي زج بى في السجون ثلاث مرات (٢٠٠٠-٢٠٠٣).

ومن ناحية مقابلة، كان د.محمد مرسى زميلاً لي في سجن مزرعة طرة، وقد تبادلنا أطراف الحديث مرتين أو ثلاثة، إما في مسجد السجن بعد صلاة الجمعة، أو في مقاعد المتفرجين، حينما كان فريق عنبرهم (رقم ٣) يتنافس مع فريق عنبرنا (رقم ٦، أو عنبر المستشفى).

لقد كانت جولة الانتخابات الرئاسية الأولى تضم ١٣مرشحاً. وكان الأقرب إلى قلبي بينهم هو حمدين صباحي، الذي جمعني بِه في مرحلة سابقة الانتماء الناصري. والطريف أن أفراد أسرتي القاهرية، صوت كل منهم بشكل مختلف – فصوتت زوجتي لعمرو موسى، وصوتت راندا لعبد المنعم أبو الفتوح، وصوت أمير لخالد على. وقد أسعدني ذلك، ونوهت به في عدة برامج حوارية. كما استخدمت تشبيه البوفيه المفتوح في التنقل في اختياري للمرشح المفضل لرئاسة الجمهورية. ففي البداية كان مرشحي المفضل هو د.محمد البرادعى، إلى أن خذلنا الرجل بانسحابه من السباق فجأة، ودون أسباب وجيهة. وبدا لي في حينه أن الرجل رغم ما قد يتمتع به من صفات إيجابية، منها خبرته الدولية، إلا أنه غير مقاتل، ولا يميل إلى أخذ المخاطرات. وبالتأمل، فالرجل هو موظف مدني طول حياته. كذلك انطبق نفس التوصيف على عمرو موسى ذو الخلفية الوظيفية المماثلة. فالأول خارجية مصرية ثم أمم متحدة. والثاني خارجية مصرية ثم جامعة عربية.

لذلك كان اختياري في الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية على حمدين صباحي، الذي جمعتني به خلفية ناصرية مشتركة في شبابنا. ورغم أنني تجاوزت تلك المرحلة إلى الليبرالية، ولم يفعل هو بعد إلا أنني على يقين أنه سيفعل.

أما في الجولة الثانية للانتخابات الرئاسية بين الفريق الطيار أحمد شفيق والإخوانى محمد مرسى. فرغم أن الأخير كان زميل سجن في مزرعة طرة، وهو أستاذ جامعي، وحاصل على دكتوراه من الولايات المتحدة إلا أن انتماؤه

الإخوانى جعلني أدرك أنه لن يكون حر نفسه، وإنما سيحكمنا مكتب الإرشاد وهو ما أكده لي الأستاذ جمال البنا، الشقيق الأصغر للراحل حسن البنا، مؤسس الجماعة. ولم يعد أمامي من خيار إلا الفريق أحمد شفيق. وكانت لدى سبعة تحفظات على الرجل، عبرت عنها كتابة في مقال بعنوان "رسائل التوفيق إلى الفريق أحمد شفيق". فما كان منه أن أخذ المبادرة، واتصل بى، وتحاور معي لمدة ساعتين في منزله بالقطامية (قرب منزل أبنتى راندا). ثم فاجأني برجاء أن أكتب له مسودة الخطاب الذي يلقيه في نهاية الحملة، ويكون بمثابة تعهد علني لما يقوم به إذا وفقه الله، وانتخب رئيساً- وقد كان -ورغم عدم توفيق وخسارته (رسميا) بهامش طفيف، إلا أن الرجل ظل على علاقة مودة، حتى بعد أن غادر البلاد إلى دولة الإمارات.

عزاء في اللواء عمر سليمان وجبهة إنقاذ مصر

لم أكن أعرف اللواء عمر سليمان، رئيس جهاز المخابرات العامة السابق، شخصياً، كما لم يكن يعرفه كثيرون في مصر أو خارجها، إلى أن انفجرت ثورة الشباب في ٢٥ يناير ٢٠١١. ولأن ضمن أسباب تلك الثورة كان معارضة مخطط توريث حسنى مبارك الرئاسة لابنه جمال.. فقد أعلن مبارك أنه لن يفعل ذلك، وللتدليل على صدق النية، أعلن تعيين عمر سليمان نائباً له، وأصبح الرجل بوجهه الصارم، الخالي من أي تعبير، هو صوت النظام في الأيام العشرة الأخيرة لنظام مبارك. بل وكان هو الذي أعلن في الحادي عشر من فبراير ٢٠١١ تنحى مبارك عن منصبه وتسليم السلطة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، الذي عرف اختصاراً في وسائل الإعلام الأجنبية بـ SCAF.

واختفى عمر سليمان عن الأنظار حتى علمت من الفريق أحمد شفيق أنه غادر البلاد، ليعيش في دولة الإمارات العربية المتحدة. وفى الواقع، كان نفس المكان هو مقصد أحمد شفيق نفسه بعد إعلان د.محمد مرسى، رئيساً للبلاد. ودأب شفيق على التواصل الهاتفي معي من دُبى... وعرفت منه أن عمرسليمان ألم به مرض عضال، ويحتاج إلى السفر إلى الولايات المتحدة للعلاج، وما هي إلا أيام، حتى وفاته المنية هناك وقد أقيمت له جنازة عسكرية إلى مثواه الأخير.

لا أعلم لماذا أحسست بواجب العزاء في الرجل الذي لم يعد يملك لي أو لغيري ضراً ولا نفعاً. بل ربما كان الرجل طبقاً لأقرب أفراد أسرتي، أحد أضلاع القضية التي حيكت لي ودخلت السجون بسببها ففي مثل هذه القضية كانت هناك ردود فعل دولية متوقعة، ولابد أن يكون الرجل أو الجهاز الذي ترأسه في ذلك الوقت كان أخذ رأيه. بل وكان الزميل عبد المنعم سعيد، واللواء أحمد

عضوا مجلس أمناء ابن خلدون، اللذان شهدا في القضية لصالحي، قد أسرا لزوجتي بذلك في حينه وأكداه لي فيما بعد.

على أي الأحوال ذهبت للعزاء في مسجد القوات المسلحة، يصاحبني المحاميان شادي ومحمد طلعت وعند مغادرتي، لحق بي لفيف من المعارف وآخرين لم أكن أعرفهم. وطلبوا أن نذهب إلى فندق "الماسة" القريب للتداول حول ما يحدث في مصر.

وبعد ساعتين من النقاش، أتفق الحاضرون على تكوين "جبهة" للدفاع عن "الدولة المدنية" التي يتهددها خطر "الأخونة"– أي تحكم جماعة الإخوان المسلمين من مفاصلها. وكان المجتمعون قد طلبوا منى رئاسة الاجتماع. ثم طلبوا عقد اجتماع يوم الأربعاء التالي لمزيد من بلورة رسالة وآليات عمل الجبهة. وهو ما حدث. ولكنى اعتذرت عن الاجتماع الثالث، حيث كنا قد دعونا السفيرة الأمريكية، وزوجها ديفيد، ود.باسم يوسف وزوجته هالة، وابنتنا راندا وأسرتها لإفطار رمضاني.

براغ – جمهورية التشيك ٢٠١٢/٨/٢٧

وصلت مع زوجتي، باربارا، إلى براغ مساء اليوم الأربعاء، إلى هذه المدينة الجميلة، للمرة الثانية خلال هذا العام، لحضور المؤتمر الدوري الذي تنظمه جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيلوس، عن "الأمن في البحر المتوسط". وقد توسعت المشاركة في هذا الملتقى، من ستين مشاركاً إلى ثلثمئة وستين مشاركا هذا العام، أي إلى ستة أمثال خلال عشر سنوات.

وربما الجديد هذه المرة، هو تنفيذ أحد مقترحاتي في العام الماضي، بدعوة عدد من الإسلاميين المصريين إلى الملتقى. وبينهم د.محمد الهضيبى، ود.عمرو دراج، ود.عبد الموجود راجح درديرى، ود.أميمة، وللأمانة، كان أداؤهم في المؤتمر عقلانيا ومتميزا، وكذلك بعض تلاميذي السابقين، منهم سامح مكرم عبيد، ومحمد الخوانقة.

كما تجددت علاقتي بمصريين آخرين مثل السفراء محمد شاكر، ومشيرة خطاب، ومحمد النمكى.

استانبول: منتدى استانبول
٨-١٠ أكتوبر ٢٠١٢

دعيت للحديث عن الربيع العربي في منتدى أستانبول، الذي تأسس منذ ثلاث سنوات. ولكن هذه المدينة العريقة ليست جديدة على بالمرة. فقد زرتها سائحاً، ومشاركاً في عشرات الندوات والمؤتمرات بها، منذ أوائل السبعينيات.

وكالعادة في مثل هذه المناسبات، التقى أصدقاء قدامى كما التقى زملاء جدد... واهتم الإعلام التركي بالمؤتمر، وبالجلسة الافتتاحية التي كنت أول المتحدثين فيها.. كما طلب منظمو المؤتمر (د.سباد كمنجولد) أن أكون المتحدث في حفل العشاء. وهو ما وضع على كاهلي عبئاً، أن أقول جديدا في كلا الجلستين.

وقد تحدثت عن بلدان الربيع العربي في الصباح، ثم عن التغيرات التي خبرتها فئات مختلفة في المساء. وقد تحدثت عن فئتين التقيت بهما خلال سنوات السجن (٢٠٠٠-٢٠٠٣)، وهما الإخوان المسلمين، الذين خرجوا من السجن ليحكمون، وعن الجهاديين، الذين خرجوا من السجن أيضاً، ولكن ليعارضوا!

السبت ١٢/١٠/٢٠٠٣
الإسكندرية: حزب الأحرار
أخونة مصر أم تمصير الإخوان؟

- هل اختطفت الثورة؟
- هل اختطفت السلطة؟
- هل ستختطف مصر؟
- مصر هل يمكن حمايتها وتحصينها ضد الأخونة؟
- دستور مدني صرف
- انتخابات شاملة بعد الاستفتاء على الدستور
- واستعداد لمعركة حماية عقل مصر ووجدانها:

١- على القوى المدنية أن تتوحد في حزب أو حزبين مدنيين.

٢- حماية التعليم والإعلام والثقافة فالوزارات المختصة هنا ستكون أهم من الوزارات السيادية، (الدفاع، والخارجية، والداخلية). فهذه الوزارات تحديدا هي المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية وصياغة الوعي والوجدان.

٣- بالأمس فقط، نظمت القوى المدنية، ما أطلقت عليه "جمعة الحساب"، وتأتى في نهاية المئة يوم الأولى من رئاسة د.محمد مرسى، التي كان قد حددها هو لمواجهة خمس مشكلات جماهيرية (الأمن، والخبز، والنظافة، المرور، والوقود). ولكن يمكن إحساس نسبة كبيرة من الرأي العام، لم تشعر بتحسن يذكر في تخفيف وطأة هذه المشكلات!

والسؤال هو من سيغير من؟ هل سينجح الإخوان في أخونة الدولة والمجتمع في مصر أم العكس، أي تمصير الإخوان- أي أن تتغلب النزعة الوطنية على النزعة الدينية عند الإخوان؟

فهناك منظور الإخوان التقليدي الذي يريد بعث "دولة الخلافة"، التي تمتد إلى كل البلدان ذات الأغلبية المسلمة – من أندونيسيا شرقا إلى موريتانيا غربا. وضمن هذا المنظور تتحول مصر إلى مجرد "ولاية" من الخمس وخمسين بلدا التي تجمعهم منظمة المؤتمر الإسلامي organization of the Islamic Conferences.

أما المنظور المضاد فهو ذاك الذي يحرص على استقلال مصر ضمن الرقعة الجغرافية التي توحدت منذ عهد الملك مينا، مُوحد القطرين، حول وادي النيل ودلتاه، أي أصبحت كيانا متميزاً جغرافياً وبشرياً، قبل أربعة آلاف سنة على

الأقل. ومصر بهذه الخواص وبالتراكم الحضاري الذي اكتسبته مرشحة دائماً للريادة أو القيادة في عوالمها العربية والإفريقية والإسلامية، لا أن تكون ولاية تابعة لكيان أكبر.

أما الثورة التي فجرها شباب مصر في الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، بعد أقل من شهر من اندلاع نظيرتها التونسية، فهي التي غيرت التصورات النمطية حول إذعان الشعب المصري الأبدي للاستبداد الشرقي. كما تحدت المقولة التي روجها صامويل هنتجنتون، وبرنارد لويس، وفرانسيس فوكاياما حول التناقض الهيكلي بين الإسلام والمسلمين من ناحية، والأخذ بالحداثة والديمقراطية من ناحية أخرى.

صحيح أن محاولات مبكرة قد بذلت لاختطاف ثورات الربيع العربي، بواسطة القوى الاجتماعية الأكثر تنظيماً والأغنى مواردا، حتى لو كانت نزعاتها الديمقراطية موضع شك - وفى مقدمتها المؤسسة العسكرية، والإخوان المسلمون والسلفيون، أو حتى أن أنصار النظام القديم، والذين يلقبون بتعبير "الفلول". وآية ذلك أن الإخوان والسلفيون، حصلوا معاً على أغلبية الأصوات في أول انتخابات تمت بعد الثورتين الرائدتين في تونس ومصر. ولكنه صحيح أيضاً أنهم لم يحققوا إنجازاً مماثلاً، لا في ليبيا، ولا اليمن، ولا الجزائر أي أن الشاهد هو انبثاق تعددية سياسية جديدة، تعكس التعددية الاجتماعية الأكثر عمقا وتجذرا.

- كذلك فإن الساحة المصرية قد شهدت خلال السنة التالية للثورة تأسيس العديد من الأحزاب السياسية الجديدة، إلى جانب أكثر من خمسة عشر حزبا كانت قائمة بالفعل والشاهد أن مبادرات عديدة قد ظهرت، وهمها الرئيس هو إنقاذ المجتمع والدولة من "الأخونة". وضمن تلك المبادرات، "الحركة الوطنية"، والتي تتشكل في معظمها من أنصار المرشح الرئاسي السابق الفريق أحمد شفيق.

تونس؛ ندوة الدين والدولة في الوطن العربي

شاركت خلال المدة من ١٥ إلى ١٨ أكتوبر في ندوة بمنتجع الحمامات بتونس، والذي نظمه مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بالمشاركة مع المعهد السويسري بالإسكندرية.

وكتبت مكلفا بالتعليق على ورقة قدمها للندوة المستشار طارق البشرى، حول الدين والدولة بعد ثورة يناير ٢٠١١. كذلك شاركت في مائدة مستديرة مع الشيخ راشد الغنوشى، زعيم حركة النهضة، والذي يحكم تونس حاليا. وهو بمثابة الفرع التونسي لحركة الإخوان المسلمين؛ وأذيعت هذه الأخبار على "قناة الميادين" الفضائية.

ومثل معظم هذه التجمعات، فقد قدمت الندوة فرصة الالتقاء بأصدقاء وزملاء قدامى، وآخرون جدد. من أولئك جميل مطر، ومنير شفيق، ومضو الرشيد، وعبدالله بلقزيز ومارلين نصر، وسهام شريف، وسيد زهرة، وضارم البصام، والطاهر لبيب، وحسن حنفي، والحبيب الحنجالي، والشيخ جواد الخالصي، ورفعت سيد أحمد.

رددت في الندوة مقولتي عن اختطاف الثورات ومثلما حدث الثورة الروسية (١٩١٧)، والثورة الإيرانية (١٩٧٩) يحدث لثورات الربيع العربي، ومن ذلك اختطاف العسكر، ثم الإخوان المسلمين والسلفيين للثورة المصرية.

كذلك تساءلت: لماذا لم تنجب الحركة الإسلامية، رغم مرور ثمانية عقود (١٩٢٨) مبدعين في الفنون والآداب ؟ فلم نسمع عن شاعر، أو روائي، أو رسام، أو نحات إسلامي؟

وقد بهت الشيخ الغنوشى بهذا التساؤل، ولم يجادلني فيه، بل أعاد الكرة إلى ملعبي، فطلب منى وأنا عالم الاجتماع، أن أقدم تفسيراً لهذه الظاهرة.

رحيل الصديق المهندس حسن الصواف
الأحد ٢٠١٢/١١/٤

صدمت اليوم، حينما أخبرتني ابنتي راندا بالوفاة المفاجأة، للمهندس حسن الصواف، رجل الأعمال المستنير، وعضو مجلس أمناء ابن خلدون. وتأكد الخبر من اثنتين من زوجاته المطلقات، وهما مساعدتي السابقة نعمت جنينة، وصديقتي اللاحقة داليا الجزيري.

وقد عرفت حسن أثناء خطبته وزواجه من نعمت جنينة، أثناء أزمة مؤتمر الأقليات. ومنذ ذلك الوقت قبل ربع قرن، وهو يتحمس ويؤيد كل قضية أتبناها أو

يتبناها مركز ابن خلدون وأذكر من أفضاله، حينما تعرض المركز للهجوم من محمد حسنين هيكل، ومن الحكومة المصرية، وموررست ضغوط شديدة على الجهات المانحة لوقف دعمها لابن خلدون، إن تطوع حسن الصواف بالتبرع بسخاء، لمدة ثلاث متتالية، حتى لا يتوقف المركز عن النشاط.

لذلك اقترح العاملون في المركز ضمه لمجلس أمناء ابن خلدون. وكان أكثر أعضاء المجلس انضباطا بوفاء في حضور اجتماعات وأنشطة المركز، بما فيها لقاءات رواق ابن خلدون أيام الثلاثاء من كل أسبوع وكان الفقيد رحمه الله يسهم بمقال شهري للعدد الإنجليزي من نشرة المجتمع المدني. وكلما تحين الفرصة، فإنه كان هذه المقالات في كتاب، ينشره له مركز ابن خلدون أو أي ناشر آخر. ومن سخرية القدر أن آخر هذه الكتب كان تجميعنا لما كتبه عن ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، والتي كان فيها مؤيدا للشباب، وناقد ومحذرا من العسكر من ناحية ومن الإخوان المسلمين من ناحية أخرى.

كان المهندس حسن الصواف من أذكى من صادقتهم من أبناء جيله، وأكثرهم شجاعة وبلاغة. وكان هناك حفل لتدشين أخر كتبه في "مكتبة الديوان" بالزمالك مساء نفس اليوم الذي سقط فيه صريعاً وهو يمارس رياضة الجري المفضلة لديه.

كان حسن الصواف من أكثر معارفه وأهله صحة ولياقة بدنية وقد وافته المنية وهو يمارس رياضته المفضلة، استعدادا لحفل تدشين ثمرة نشاطه المفضل وهو النقد السياسي المكتوب.

كانت جنازة حسن الصواف من أكبر الجنازات التي رأيتها في السنة الأخيرة. وكان سرادق عزائه في مسجد الرحمن الرحيم من أكبرها أيضاً.

ترك حسن الصواف وراءه ابنا، هو طارق، وابنة هي شريفة. وكنت قد حضرت عُرسيهما.

رحم الله الفقيد، وأدخله فسيح جناته.

الدولة الدينية والدولة المدنية
مناظرة مع الزعيم سلفي، عبد المنعم الشحات
الأحد ٢٠١٢/١١/١١

بدعوة من المحامى منتصر الزيات، سكرتير عام منتدى الوسطية، ناظرت الزعيم السلفي السكندري المهندس/ عبدالمنعم الشحات، أمام حشد لا يقل عن خمسمئة سلفي ملتح، في القاعة الكبرى بأحد الفنادق. واستمرت المساجلة حوالي ثلاث ساعات (من السابعة إلى العاشرة مساء).

وكانت هذه هي المساجلة الرابعة التي أقوم بها خلال الشهور الثلاثة الأخيرة.

أما المناظرات الثلاث الأخرى فقد كانت على فضائيات مدينة الإنتاج الإعلامي مع:

* د.صبحي صالح، وهو قيادة إخوانية من الإسكندرية، وكان قد لعب دورا رئيسيا خلال الفترة الانتقالية، كأحد أعضاء اللجنة التي رأسها المستشار طارق البشرى، والتي وضعت من القواعد والتواريخ ما أفاد جماعة الإخوان المسلمين في التعجيل باختطاف الثورة، ثم اختطاف السلطة.

* د.فريد إسماعيل؛ وهو أيضاً قيادي وعضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين.

وللأمانة، كان جميع من ساجلتهم من الإسلاميين مهذبين للغاية منذ المناظرة مع المحامى الإسلامي، من حزب الوسط، عصام سلطان فى أعقاب وصفى له، بأنه "بلطجي قانوني"، لأنه دأب على رفع قضايا على المرشح الرئاسي السابق الفريق أحمد شفيق. وكان عصام سلطان قد ذكرني بمحام آخر من الحزب الوطني، اسمه **أبو النجا المحرزي**، تمرس برفع القضايا على شخصي، حتى وصلت إلى ٢٨ قضية، في أنحاء مختلفة من جمهورية مصر العربية. ومنها قضية لإسقاط الجنسية المصرية. وبعد ثورة ٢٥ يناير، اختفى **أبو النجا المحرزي**، ولم أعد أسمع عن قضاياه. ولكن أتوقع أن يظهر محامين آخرين من هواة الشهرة أو التزلف لمن يحكمون، لمطاردة، واستنزاف المعارضين.

ولم يكن صعبا بالمرة التغلب على الإسلاميين الذين ناظرتهم، رغم كثرة استشهادهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهو الأمر الذي لم يكن في مقدوري أن أفعله. ولذلك كنت أعوض ذلك بسحبهم إلى أرضية مدنية – دنيوية – علمانية؛ وأطلب منهم مبكراً الإقلاع عن "قال الله وقال الرسول... والتركيز

على ما عسى أن يقوله هو في المسائل والتحديات التي يواجهها الوطن... وعن حقيقة رغبتهم ورغبة جماعتهم في إلغاء شخصية مصر، وتحويلها إلى مجرد إمارة أو ولاية في دولة الخلافة التي تمتد من أندونيسيا إلى نيجيريا..."

وكان مجرد سعى الخصم إلى نفى هذا الإدعاء، يضعه موضع الدفاع... خاصة إذا لاحقته بأسئلتي غير المتوقعة.. من قبيل: هل تدرك متى استقلت أندونيسيا أو نيجيريا.. أو متى أصبحت دولاً، مقارنة بمصر التي كانت أول دولة في التاريخ الإنساني المسجل، قبل ستة آلاف سنة..

الإخواني محمد مرسى... الرئيس الإله: ١٨ ديسمبر ٢٠١٢

منذ انتخاب محمد مرسى، وعناصر ليبرالية، وحتى إسلامية جهادية من زملاء السجن القدامى، يحاولون تنظيم معارضة للإخوان المسلمين... هذا فضلاً عن النشاط المدني المستمر لمركز ابن خلدون، ولو أن هذا الأخير أصبح لا يستأثر بنفس القدر من الوقت والاهتمام، منذ تحملت مسؤولية الإدارة فيه الناشطة داليا زيادة.

فضمن ما فعله د.محمد مرسى بعد انتخابه رئيساً للجمهورية هو إعطاء نفسه صلاحيات لم تتوفر لأي حاكم مصري، خلال ستة آلاف سنة من تاريخنا المسجل وأكثر من ذلك أنه حصن كل قراراته، بحيث لا يجوز الطعن عليها أمام أي سلطة أخرى، تشريعية أو قضائية!

وتكونت مجموعة سمت نفسها الحركة المصرية الديمقراطية، كان معظم أعضائها من أنصار الفريق أحمد شفيق، المرشح الرئاسي السابق. واختارني أعضاؤها منسقاً عاماً. وكان ضمن أعضائها الفقيه الدستوري إبراهيم درويش، ورجل الأعمال ياسر أبو المكارم والصحفي عبد الرحيم على، والإعلامي أنور الهواري، وداليا الجزيري، ونجوان عنايت، وإيمان البلتاجي. واستأجرت الحركة مقرا لها في ٣٦ش ميشيل باخوم المتفرع من شارع مصدق بالمهندسين.

ولم يكن هذا المقر بعيدا عن ميدان أسوان الذي كان مقر المنظمة العربية لحقوق الإنسان، التي أسهمت في تأسيسها وكنت أول أمين عام لها (١٩٨٢-١٩٨٥)، قبل ثلاثين عاما. ما أشبه اليوم بالبارحة!

أدارت مكتب الحركة السيدة إيمان البلتاجي، والتي ذكرتني كثيرا من حيث الشكل والموضوع بمساعدتي الوفية نعمت جنينه. وقد وقع على عاتقي إعداد بيان قيام الحركة وأهدافها.

وهو ما قمت به في نقاط عشر، دارت كلها حول حماية ودعم وتكريس مدنية المجتمع والدولة، وسيادة المواطن وحقه في الحركة.

وكان ذلك متسقا مع المسيرة التي بدأتها في مركز ابن خلدون، وروح المؤسسات التي أسهمت في إنشائها خلال العقود الأربعة الأخيرة: المنظمة العربية لحقوق الإنسان، منتدى الفكر العربي، المنظمة العربية للطفولة والتنمية، مركز دراسات الوحدة العربية، والمؤسسة العربية للديمقراطية.

٢٠١٢/١٢/٢٧: جامعة حلوان

مناقشة رسالة ماجستير خدمة اجتماعية، حازم محمد إبراهيم مطر، مع د.طلعت مصطفى السروجي، د.محمد مدني، ود.عزة على شحاتة، بعنوان: "اتجاهات الشباب الجامعي نحو العدالة الاجتماعية، لتعبر عن صنع سياسات الرقابة الاجتماعية الجديدة".

كانت إشادة الزميلين السروجي ومدني بشخصي مسرفة في كرمها، أمام المدرج الخاص بأقارب وزملاء الطالب وأساتذة الجامعة.

ورغم التواضع العلمي للرسالة، إلا أن الموضوع والحماس المتدفق للطالب عوّضا مستوى الرسالة، فجاءت المناقشة حامية، وأضافت لجنة المناقشة الشيء الكثير، مما جعل المشهد إجمالاً فنياً فكرياً.

وقد أعادت رسالة الطالب حازم مطر خواطر وذكريات خاصة برسالتي للدكتوراه. فقد تشابهت عينة البحث من حيث كانت عنده طلبة جامعة حلوان، وكانت عندي قبل نصف قرن (١٩٦٦) الطلبة العرب الذين كانوا يدرسون في جامعات الولايات المتحدة في منتصف الستينيات. وبينما اقتصر الطالب حازم مطر على قضية واحدة (وهى العدالة الاجتماعية)، غطت رسالتي قضايا إضافية – مثل الديمقراطية، والحرب الباردة، والصراع العربي الإسرائيلي، والوحدة العربية.

وخلال الرحلة ذهابا وإيابا بين المعادى وحلوان عادت بى الذاكرة إلى ستينات القرن الماضي، ورئاستي للطلبة المصريين، ثم للطلبة الأفارقة، ثم للطلبة العرب. وكيف أدى نشاطي الطلابي آنذاك، إلى اصطدام بالنظام الناصري، وفرض الحراسة والعزل السياسي. وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى بقائي في أمريكا إلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وإلغاء الحراسة والعزل عام ١٩٧٤؛ وبالتالي استطعت العودة إلى الوطن عام ١٩٧٥. تذكرت رفاقاً وزملاءً سقطوا من دائرة اهتماماتي أو رحلوا تماماً عن عالمنا. كان منهم فوزي هيكل، ومحمود وهبة، وحلمي شريف، وأسامة الباز، وجودة عبد الخالق، وصلاح الجوهري، وصبري الشبراوي، وإسماعيل سراج الدين، وحسن طلعت، ونعيم

الشربيني من مصر؛ ونبيل شعث وجورج عيد (فلسطين)، وأكرم التميمي من الكويت.

ولم أنس كيف كانت خبرة رئاستي لمنظمة الطلبة العرب علامة فارقة ، لا فقط في تعميق وعيي القومي العروبي، ولكن أيضاً في إنضاج وتنمية ملكاتي القيادية والتنظيمية، وهو ما سيظل معي بقية عمري.

الفهرس

إن العقود الستة من انخراطي في الحياة العامة شهدت أحداثاً مرحلية. ووطنية. وإقليمية. وعالمية. كنت شاهداً عليها. وقد انفعلت بها من ناحية. وتقاطعت هي مع مسيرة حياتي من ناحية أخرى. وشجّعني كثيرون على الحديث عنها من منظوري الشخصي. وهو ما حاولته في هذه المُذكّرات فأرجوا أن تكون إضافة. ولو متواضعة. تُسهم في فهم التاريخ الاجتماعي لمصر والوطن العربي منذ منتصف العشرين إلى أوائل القرن الحادي والعشرين.

لقد كُنت محظوظاً أنني التقيت وجهاً لوجه كل رؤساء مصر - جمال عبد الناصر. وأنور السادات. وحسني مُبارك. ومحمد مُرسي. كما التقيت عدداً من الرؤساء والملوك العرب. مثل الملك فيصل. والملك حسين والملك الحسن الثاني. والرئيس العِراقي صدام حسين. و الرئيس السوري حافظ الأسد. والرئيس السوداني جعفر نميري. و اللبناني بشير الجمل. والرئيسين الفلسطينيين ياسر عرفات. ومحمود عباس. وحاكم قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني. وزوجته المُتميزة. الشيخة موزة بنت ناصر المُسند.

والزعيم الليبي مُعمر القذافي

(الذي سجلته لمدة ساعة على قناة الجزيرة عام ١٩٩٥).





ميريت